

الباب التاسع

في امة الاسلام ونظامها وما يجب على اهلها ان يتخذوه
في هذه الايام وفيه ٢٩ فصلا

ولقد ذكرنا نظام الأمم الضالة والفاسقة والجاهلة والمدن الفاضلة بوجه عام مع آرائهم وأخلاقهم ونظامهم وقارنا بينها وبين هذا الكون العظيم فلنشرع الآن في الكلام على الأمة الإسلامية بوجه خاص في هذه الأزمان الأخيرة إذ هي التي تهمننا وقد وجب على من أوتي علما أن ينشره بين هذه الأمة التي أصبحت ولا نصير لها من العالم أجمع فان لم يقم عقلاؤها وينشروا أفكارهم بين الملأ فهم المسئولون وحدهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الكتمان وكل ما يشين بالإنسانية ولنطبق أحوالها على نواميس الشريعة الإسلامية ونظام الكون ، ولنخص الكلام تلخيصا نقول

الفصل الأول - في ذكر أحوال المسلمين من القوة في عصر النبوة والضعف الطارئ بعد ذلك ثم استيقاظها الآن .

الفصل الثاني - في السعادة والاختيار والعمل والتوكل

الفصل الثالث - في توزيع الأعمال على الافراد وما حكم الشريعة فيها وذكر

فروض الكفاية

الفصل الرابع - في ذكر أنواع العلوم والصناعات التي يجب على الأمة تعلمها في

هذه الأزمان

الفصل الخامس - في ذكر طرق التعليم وما يجب على العلماء أن يسلكوه فيه

في هذه الايام

الفصل السادس — في حكمة النسخ في الآيات والأحاديث وما مناسبتة لهذه الأحوال التي نحن عليها وما حكمتها بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم

الفصل السابع — في وجوب استعمال العقول وترك الفضول مع انتهاج خطة الشرع

الفصل الثامن — فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

الفصل التاسع — في سياسة أوروبا واستطلاع علومها

الفصل العاشر — في قصص القرآن والروايات وقاريئها وما ثمراتها في الأمة

وما الواجب علينا وكيف كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيها وما الغرض منها وما الذي طرأ عليها في الاسلام حتى شوه وجهها

الفصل الحادى عشر — في علو همة أفراد الأمة وتثويقهم وما خطة القرآن في

ذلك وما تنتهج الأمم لعلو شأنها مما أغفله المسلمون

الفصل الثانى عشر — في كيفية النوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفهمه وما يجب

على طوائف الامة من كل صنف من معرفة آيات مخصوصة

الفصل الثالث عشر — في اقتصر المسلمين اليوم على الفقه وهكذا وان هذا

من أهم أسباب الانحطاط

الفصل الرابع عشر — في ذكر حكمة التكليف بالايان بما غاب عنا مما ليس

بمحرّم وتوحيد العلوم وان الوحدة بها نظام كل شيء ووجوب مطابقة وحدة المسلمين لهذا النظام

الفصل الخامس عشر — في خاتمة ما تقدم بذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا

واستطلاع ما في البلدان الشرقية والغربية وتقديم هذا الكتاب لعقلاء الاسلام قاطبة وهكذا من فوائد أخرى

الفصل السادس عشر — في المقالة الأولى من المقالات الأصمعية

الفصل السابع عشر — في المقالة الثانية منها وهو الكلام على كليات الاسلام الخ

- الفصل الثامن عشر — في المقالة الثالثة في نظام الأزهر
 الفصل التاسع عشر — في المقالة الرابعة الأصمعية
 الفصل العشرون — في المقالة الخامسة الأصمعية
 الفصل الواحد والعشرون — في المقالة السادسة الأصمعية
 الفصل الثاني والعشرون — في المقالة السابعة الأصمعية
 الفصل الثالث والعشرون — في المقالة الثامنة
 الفصل الرابع والعشرون — في المقالة التاسعة الأصمعية
 الفصل الخامس والعشرون — في المقالة العاشرة الأصمعية
 الفصل السادس والعشرون — في المقالة الأولى الرازية
 الفصل السابع والعشرون — في المقالة الثانية الرازية
 الفصل الثامن والعشرون — في المقالة الثالثة الملقبة بالرازية حاجة المسلمين الى
 مدرسة جامعة كبرى
 الفصل التاسع والعشرون — محاورات لطيفة في الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه

الفصل الأول

في ذكر احوال المسلمين من القوة في عصر النبوة ومن الضعف
الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الان

وذلك في ثلاث مباحث : المبحث الأول : في احوال أيام عصر النبوة
المبحث الثاني : فيما طرأ عليها بعد ذلك
المبحث الثالث : فيما يظهر عليها من الاستيقاظ الآن

المبحث الأول

في قوة أمة الاسلام في عصر النبوة وصدر الاسلام

فهاك بعض ما جاء في كتابنا الجواهر في تفسير القرآن : فما أناذا أذكرك أيها
الصديق أولاً بما جاء في (سورة الشورى) وما كان من أمر عمر رضى الله عنه ومبلغ
زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة ،
فهل تذكرها؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعته سننى
وسمعت نصيحتى لأنك تشير إليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت :
إنما أشرت إليه لأننى فى هذا المقام كما تقدم أبحث فى أمرين : أمر المصلحين الذين
تقتدى بهم . وما هو الذى ذكرته الآن . وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم
ونخالفهم وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلاً كما وعدتلك . وقيل ذلك التفصيل
أقول فى السلف الصالح قولاً مجملاً غير ما تقدم لتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ - ٤١ هجرية هو العصر الذهبى . عصر
العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة . والغيرة

الحقيقية على الدين ونبد الدنيا ، وهو العصر الذي اتخذ المسلمون منوالات يسجون عليه وكما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد ، وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا في حشد الأموال بأية وسيلة كانت

(بيت المال) توفي النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدمناها . ولم يكونوا يتطلبون المال إلا اقتضاء الحاجيات . وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة . وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهباً وفضة . فأدهشهم كثرتها . وتنبهوا لها . يقال أن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسة ألاف درهم . فاستكبره عمر . وقال : أتدري ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر . وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير . فإن شئتم كلنا لكم كيلا . وإن شئتم عددنا لكم عدداً وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين . باعتبار السابقة والقرابة من النبي ولكنه نهى عن اختزان المال . فقال له قائل : يا أمير المؤمنين . لو تركت في بيوت الأموال شيئاً يكون غدة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر . وقال له : تلك كفة ألقاها الشيطان على فيك . وقانى الله شرها . وهي فتنة لمن بعدى . إني لا أأعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله . وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال في أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال . وحرم على المسلمين اقتناء الضياع . والزراعة . أو المزارعة . لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال . حتى إلى عبيدهم ومواليهم . أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل . لا يمنعمهم انتظار الزرع . ولا يقعدهم الترف

والقصف . فاذا اسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته . تفرق فيهم . وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه . ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين .

والغرض الذى كان يرمى اليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً لامال الذى يحتاج اليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفنا لمصالحهم مدى الدهور أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم . ولا يمتضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكاً خاصة بهم . وعمر يريد أن يبقيا محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولا تورث لما أزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد . وأيد هذه القاعدة عمر بن عبيد العزيز الأموى . وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله . وما كان من أرض فانها من فى الله على المسلمين وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلمسون ثروة . فلما توفى أبو بكر . لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة . لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه . بل هو أتقى كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه . وذلك أربعمائة ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة . ثم فرضوا له مالا معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله . لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم . فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما أخذه من مال المسلمين . وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب الزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد والاستهلاك في نصرته الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد ، وقد يوم لعرايته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ ، يكفي منها تلك الفتوح التي جمعت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب ابناء من المياريب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأوابين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفنيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحسّ بدنو الأجل قال لابنه : إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدي ، فان لم يف ما لم فمال آل الخطاب) . وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام علي ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل ، ومن أقواله : (تزوجت بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعاف عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها) . وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يبن على آجرة على آجرة ، ولبنة على لبنة ، وقصبة على قصبة ، وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب ، وقيل انه أخرج سيفاله الى السوق فباعه ، وقال : (لو كان عندي أربعة دراهم ممن إزار لم أبعه) ومناقبه لا تحصى . وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد في الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له فاسمه عليه ، وهو لا يرى في ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمر بن العاص عامله على مصر ، وأبي هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة في ذلك ، لأن العامل إذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ، ويستملك في مصالحة الأمة فإنه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه ، وخاقه ، وخصوصاً عمر ، فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنة كتب إليه : (أقدم إلينا) فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشياً حافياً ، عكازه في يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمير أجبتنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نراك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، فقال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامي . فقال : ما صنعت بعملك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به ، فقال له : عد إلى عملك ولا تقتصر في هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأتني بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

المبحث الثاني

فيما طرأ عليها بعد ذلك في أيام بني أمية وأيام بني العباس وكيف أزالها التتار وفي الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند وإيزابلا فاما ما طرأ عليهم في أيام بني أمية وأيام بني العباس فهناك بعض ما جاء في كتاب الجواهر في تفسير القرآن في سورة الاحقاف عند آية أذهبتم طبيباتكم في حياتكم الدنيا الخ

شيوخ التبذير في الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس إلى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ - ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديداً مثل عمر ، وكان مع ذلك أموياً ، فاعتز الأُمويون

به ، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا ياسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت في أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افریقیة سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٥٠٠٠٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فزادوا طمعا في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقروا الأرضين في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها مملكا للبطارقة توراد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفروا البطارقة ، أو قتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقر معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمئون من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمراءهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وأنه لا مالك لها ، وليست هي من قرى أهل الذمة ، ولا للخراج ، وسأله أن يقطعها إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتبا مقداره ألف دينار في السنة ، وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال في تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطع تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها جبا على فقراء أهل بيته فجراه ذلك التماذي في اقتناء الأرضين وبيعها في أيام خلافته ، والأذن للمسلمين في ذلك .

واقتمدى معاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتمنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٠٠٠٠) دينار و (١٠٠٠٠٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها (١٠٠٠٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً .

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئاً لبيت المال بمقابل الإيجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفي حكاية أبي ذر الغفارى ما يعنى عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : (أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله ، أو يعده لكريم) . وكان يقوم في الشام ويقول : (يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكتزون الذهب والنضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) ، وما زال يقول ذلك وبكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم ، لأن أبا ذر وبجته غير مرة لاخترانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبو ذر : إن كنت بنيت من مال الله فانك من الخائنين ، وإن كنت بنيت من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية فأراد أن

يوقعه فيما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يفره بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير الى أبي ذرّ فرّقها حالاً مع أنها وصلتته ليلاً ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ؛ وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفقه في ساعته ، فلم ير معاوية سبيلاً إلا اتهمه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « أنك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذرّ » ، فكتب إليه : « احمله على قتب بغير وطاء ، » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب ساطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق ، فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف ، وظل هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما تقموه عليه إلى مقتله اهـ

هذا ماجاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وربما كان ما جاء فيه من أمر عثمان رضي الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضي الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمة ، فلنفصل الكلام في أيام بني أمية :

الأسراف أيام بني أمية

وعصرهم سنة ٤١ - ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسوام ، ومن أسلم من غير العرب

يسمونهم الموالى

اعلم أن بني أمية وإن فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالم أخذوا في الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أبا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته لارشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغنى أنه قد يكون في

حاشية العامل أو الوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك التعمات ، فليسوا يحفظون ما يوكون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو من أموال الرعية ، ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالفسف والظلم والتعدى ، ويقيدون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع فى الاسلام . وكان شأن نبى أمية وعاملهم وجباةهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه فى أيام سمية وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم ، وعينها بأسانها مفصلة ، وإبطال لعن على على المناير ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيرا منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليات ، فأتاه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو اخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم وكيف تصنع بولدك ؟ فبكى حنوا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسباها مظالم ، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال ، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأتته ، فقال لها : إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة ولما رأى الموالى عدله وتقواه ، اغتتموا الفرصة ، وشكوا إليه ما يقاسونه من الذل والضغط ، وكان الجراح بن عبد الله الحكيم عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فى الشام وقد جاء من العرب ، ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان ، والمولى ساكت ، فقال له عمر : أما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يفزون بلا عطاء ولا رزق وصلهم قد

أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالحراج ، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحر بمثلك أن يوفد ، وكتب إلى الجراح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فرغب الناس في الإسلام ، وتسارعوا إليه ، فقبل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجراح إلى عمر بذلك ، فأجابه : إن الله بعث محمداً داعياً ، ولم يبعثه خاتماً

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار آمنت بها عطاء أهل الديون ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائهم ففعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغني كتابك : وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم قبج الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جانياً ، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه .

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فإنه عزل من لم يوافقهم منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال ، وما في بني أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات . فقتلوه بالسم ، ويعدده المؤرخون من الخلفاء الراشدين . وإذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام تدعو إلى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الدين يتولون شئونها ، ولو أتيج لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأحت مظالم بني أمية ولكنه جاء في غير أوانه . فذهب سعيه هدرأ . ولما مات عادت الأمور إلى مجاريها ورافقتها رد الفعل . فصارت إلى أشد مما كانت عليه قبله . وبالغ العمال في الاستبداد والعدف وشددوا في استخراج الحراج وزادوه حتى اضطرب بعض أصحاب الأرضين إلى

الاجلاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة . أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سياتى .

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انفسا فى الترف . وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه اقتطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته : سلامة وحباية . وحديثهم مشهور وخلفه أخوه هشام وكان نجيبا وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد ابن الحبجاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر . لأن الأحوال غير ملائمة وفى أيام خلفه مروان بن محمد تناب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو أمية قد انفسوا فى الترف واللهو والخمر وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا بأشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيدي بن عبد الرحمن ، وكان الجنيدي قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية (١٠٠٠٠٠٠٠) درهم ، وهى الذلفاء ، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق فقال يزيد فى نفسه : إن العراق قد أخرجها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبهم عليه صرت كالحجاج ، أدخل على الناس الحرب^(١) وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عاقاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ،

(١) كسب : هو سلب المال

فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعدم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويتخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسري ، إذ وشى به كاتبه حيان النبطي أنه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار أو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الأخرى مما لا تعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهبت كأس الدابر ، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية .

دولة بني العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبي يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية . والعصر الثاني وهو عصر التقهقر والانحطاط ، ويبتدىء بمخالفة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهي بإتضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكي إلى إسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء في كتاب « تاريخ تمدن الاسلامى » أنهم انهمكوا فى البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا القرش ، من الخبز والديباج والحريير والماسير الفضة ، وابتنوا المتزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتألق بالمطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى ، وأطلقوا أيدي نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، فى الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء فى أمره ، ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هى صاحبة الأمر والنهى فى أيام الهادي وأيامه . وكان وزيره تحت أمرها . فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها فى العام (١٦٠٠٠٠٠٠٠) درهم . وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لآل يزيد على ثلثى هذا المال . فقد ذكروا أن إيراد (روكفلر) الغنى الأمريكى الشهير نحو (١٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه فى السنة . وغلة الخيزران أكثر من (١٠٠٠٠٠٠٠٠) دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم . والدينار نصف جنيه . فتكون غلة (روكفلر) نحو ثلثى غلة الخيزران . وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغبة فى الاستئثار ، فلما آتت فى ابنها الهادي معارضة لآرادتها . دست اليه من قتله ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وأقطع الناس ضياعها

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى . فلا غرابة فى اقتنائها الأموال فى إبان الثروة العباسية . إنما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة فى عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز

ونحوها نحو (٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ر) دينار تقدماً . وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأى بذكره على سبيل المثال . من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته (٢٠٠٠٠٠٠٠ ر) دينار . وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٠٠٠٠ ر) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق . فقد كانت غلتها (١٠٠٠٠٠٠٠٠ ر) دينار في العام . تنفقها في جواربها وهو نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر (٦٠٠٠٠٠٠ ر) دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من إطلاق الأيدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٥٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياض أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠٠٠ ر) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر) أو اذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني دراً فباعه بعشرين ألف دينار أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كن يتولين شئون دور الخلفاء وانفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه فكان هؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ولم يكن لأولئك القهرمانات

سبيل للانفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم^(١)

الجوارى والغلمان

وفي مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحاً للغناء واللهو ، قالوا انه كان في قصر الرشيد ثمانمائة جارية ما بين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلاً عن كبن في قصره من الندماء والمصاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليلي^(٢) وابن أبي مريم المدني^(٣) وغيرها ، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار^(٤) إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتنؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلى وهي شئ كثير ، فقد اشترى الرشيد خاتماً بمائة ألف دينار^(٥) وقس على ذلك لعله مبالغة بالنسبة لنحو الرشيد .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المالك والغلمان مما يعدون بالثلاث والألوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠) خصى من الروم والسودان^(٦) غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى العزيز داراً في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم^(٧) وبنى الأمين قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم^(٨) واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة

(١) إن هذا القول منقول من كتاب (تاريخ التمدن الاسلامي) وقد عزاه الى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : «١» المقرئى «٢» الجزء الاول من كتاب التمدن الاسلامي «٣» ابن الأثير «٤» الفخرى «٥» ابن عساكر نسخة كرايمر «٦» كتاب الخراج لأبي يوسف «٧» يعقوبى «٨» المستطرف «٩» المسعودى «١٠» الماوردى «١١» ابن النقيه «١٢» الطبرى «١٣» القرمانى (٢) إعلام الناس ٩٧ (٣) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ (٤) ترتيب الدول ١٢٦ (٥) ابن الأثير ٤٤٤ ج ٦ (٦) الفخرى ٢٣٤ (٧) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ (٨) ابن الأثير ١١٢ ج ٦

الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيماً ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمير مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
 فاذا ما ركبه سرت برأ سار في الماء راكباً لئلا يغيب
 عجب الناس إذ رأوك على صو رة لئلا تمر مرة السحاب
 سبتحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
 ذات زور وميسر وجناحيه ن تشق العباب بعد العباب
 تسبق الطير في السماء إذا ما تعجلوها بجيئة وذهاب

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال في أيام الزهو كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند^(١) ولكن الغالب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها اما رأساً إلى الخليفة كما فعل ابن مقله إذ بذل ٥٠٠.٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٠.٠٠٠ دينار^(٢) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من

(١) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

كل واحد رشوة ، فأنحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا في بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغي ان أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير ، فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقيون إلى الوزير ، ففرقهم في عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يعمل من الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
ويدنى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعه
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه^(١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فإنه كان عفيفاً ، ذكر الفخرى أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سقفاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لو كليل صاحب مصر : « لا والله لأقبلها ، ولا أقبل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها مندبلاً وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل إلى خزنة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر^(٢) .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة ، وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق ، أو في مصر ، أو في الأندلس فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ،

(١) الفخرى ٢٤١ (٢) الفخرى ٢١٦

وحج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠٠٠٠٠ دينار^(١). ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة، وخلف أملاكاً وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالاً ونوقا، وغير ذلك ما قيمته ٨٠٠٠٠٠٠٠ دينار غير ما أنفق في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار وخاف ٨٠٠ حطية سوى جوارى الخدمة، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية^(٢) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بثله وذلك ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار عينا^(٣) و ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ أردب دراهم تقدم مصر، و ٧٥٠٠٠٠٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ راحلة احقاق ذهب عراقى، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه، و ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد ما لا يحصى^(٤) وقس على ذلك أحوال الوزراء في الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة، فقد أوردتها ابن خلدون والقزوينى، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا في ثلاث صفحات كبيرة^(٥) وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في إبان ثروتها، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة، ويحتالون في استغلالها بأن ينفقوها على بعض المساجد، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها، أيضا صوا أنفسهم من خراجها أو عشورها!

وكانت اندنية محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة المدن في تلك الأيام

(١) المقرئى ١٥٥ ج ٢ - (٢) المقرئى ٦ ج ٢

(٣) وهو في الأصل ستائة ألف دينار، ولا بد من خطأ تطرق إلى نصه. إذ لا يعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد، وهو يفوق مجموع خراج مصر لائة سنة، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف دينار كما قلنا، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير، لأن أموال مصر قلما قدرت بالدرهم

(٤) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٥) نفع الطيب ١٦٨ ج ١

وهي أن تكون الثروة والأبهة حينما يكون ولاية الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعالمه ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياح مغارس لاعمارها فيها . ولا تسكاد تجد أثرا من آثار ذلك المدن في غير المدن

ففي هذه المدن قاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقمشة ، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، وبيت ماله حافلا بالنفود ، والبرامكة يبذلون المنات والألوف ، كان تجار بغداد في نعمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبدخ فقد رأيت في بعض ما تقدم أن جوهريا بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفظ من الجواهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبعه ^(١) وهو جزء ما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٥٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة ^(٣)

فلما سمع صاحبي ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أممنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وذاقوا حلو الزمان ومره ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويدكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخلل ، وهناك يرجع

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٢ (٢) — ابن الاثير ٢٢ ج ٧ (٣) ابن الاثير ٢٠ ج ٩

للأمم الإسلامية مجدم ، ويعاوشأهم ، ويذهب عنهم الخزي في الحياة الدنيا .
 هذا وانى أرجو أن أنشر بقول جامع في هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان
 يحرم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فاذا أفضت في ذلك
 وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك خير معوان على تذكير أمنا الإسلامية
 بعدنا . فقلت : جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب في الأرض »
 مانصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام في جمع كفة العرب وتوثيق
 عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيدهم العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق
 والشام ؛ لعلهم بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا
 الإسلام قوة ، ولكنه منعهم مماوراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلدا في دار الفتح أن لا يبنوه
 في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها
 فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم على
 أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة وأموال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب
 أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشد في منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة
 (المحرات) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل » ^(١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم
 عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم
 تكن المدن التي بنوها في صدر الإسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا
 أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال ^(٢) ولهذا
 السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي صلى الله عليه وسلم
 أن لا يترك في جزيرة العرب دينان ^(٣) وأن لا يأتى الحج أحدا من المشركين ^(٤) فأخرجهم
 وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الإسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ التمدن الإسلامى

(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ١ (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣

عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف ، ويباعون بالعشرات اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول ، وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في إفريقية ٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا ^(١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم ^(٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس ^(٣) ، وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ ه بقيادة ابراهيم بن ينال سبي المسلمون ١٠٠٠٠ رأس غير الدواب ^(٤) وفي جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والفلان مما يثقل نمله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ ه إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ ه بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم ^(٥) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان ^(٦) و بلاد البربر وغيرها

(١) نفع الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ - (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ - (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ -

(٥) نفع الطيب ٢٠٩ ج ١ (٦) المقرئ ٣١٣ ج ١

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالأفرنج ، ويقال أن أول من استنبطها (سميراميس) ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن لخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم تارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستينيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهر الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد ، وعمن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فأتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أديوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والسلات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة

من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فإسبانيا إلى افريقية ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة فكان التجار من الأفرنج وغيرهم يتعاونون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرها إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود، ولا يزال أهل جورجيا والجرس إلى اليوم يبيعون أولادهم ببيع السلع، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم يبص البشرية على جانب عظيم من الجمال، وفيهم الذكور والاناث، حتى يخطوا رحلهم في فرنسا، ومنها ينقلونهم إلى أسبانيا (الأندلس)، فكان المسلمون يتعاونون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرى وغلب على أولئك الأرقاء اتسابهم إلى قبيلة السلاف، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعرّبها العرب صقلبي وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان، وفعل الأفرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى، ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Slave) في الألمانية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية.

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهدهم طاقاتهم، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر^(١) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتاح الناس بغنائهم^(٢) وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه، ومن أقوالهم: «المغنون رسل الغرام».

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك، وكان يكره الغناء سمع مغنيا في عسكره،

(١) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ (٢) الاغانى ١٣٠ ج ٢

نطلبه ، فجأوه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتنفى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنتها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أني تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصى (١)

وسليمان هو الذي أمر بخصى الخنثين في المدينة لمثل هذا السبب ، قيل إنه كان في بادية له يسمر ليلاة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جساوة ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهابها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهي ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضيبت الناقة ونبت النيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل في المدينة بجماعة الخنثين وهم أئمة والحناق فيه ، فكتب إلى عامله هناك . اخص من قبلك من الخنثين المغنين ، فخصاهم (٢)

على أن المتهمين من الخلفاء والأمرء لم ينكروا ما يجر إليه الغناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « يا كم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ويهدم الروءة ويشور على الحر ، ويفعل ما يفعل المكر ، فإن كنتم فعلمين فجنوبه النساء ، فإن الغناء رقية الزنا ، وأنى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لنة ، وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال (٣) » اهـ

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين موقفة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل

(١) الكامل للبرد ٣٣٧ (٢) الاغانى ٦١ ج ٤ (٣) الاغانى ١٣٤ ج ٦

غصن منها فروع كثيرة مكحلة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصغير والهدير ، وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه^(١) .
وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، وموه سقفه بالذهب ، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠٠ دينار^(٢) ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم ، وأكثرها في قرطبة وغرناطة ، فمنها في قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع بينائه عبدالرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور في داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمجدد ، والحائر والروضة ، والعشوق والبارك ، والرسوق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والبحاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها إلى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس الموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والبحاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة^(٣) اهـ

(١) معجم باقوت ٥٢٠ ج ٣ (٢) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ (٣) نفع الطيب

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال أنها سميت (الحمراء) نسبة إلى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل

و بنى المنصور بن الأعلى قصرا فخما في بجاية أنشأ فيه بركة على حافتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها في الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أئمة العباسيين ، وقد نظم ابن حمديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خريز الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسمها	وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	اقعت على أديارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعا فقدّر سردها تقديرا ^(١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي ، فإنه أتفق في بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في وسطها

قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكبها لا يفتر والمأمون قاعد فيها^(١)

البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الحشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفي رجله نعلان من ليف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفى الخد بها^(٢) وكان عمالهم في مثل حالهم ، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بمائة دكنا ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه^(٣) ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك ، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أ كسروية يا معاوية ؟^(٤) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدينة إلى التبسط في العيش ، والتنعم باللباس ، وأحب الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثروا رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢ر٠٠٠ قميص وشى و ١٠ر٠٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته إذا حج تحمل على ٧٠٠ جل^(٥) ، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس ورغب أهل التجارة في حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موسى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخبز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر

(١) سراج الملوك ٥٠ (٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦ (٣) العقد الفريد ٦ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج ١ (٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢

والحرز وهو ذكر الأرناب^(١) والأبريسم حرير خالص والديباج نسيج حريري موسى ،
بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطي ثمين وغير ذلك من أصناف
الحرير والسكتان والاولدارى والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو
الصوف وما يدعى ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية
والدراريع والطبالسة والجيب والعائم والأبراد والغلائل واللاحف والآزر والسراويلات
والشاشيات والتكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ، ويغالون في ترفيعها لما يلاقونه من
البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ، ولا سيما الخليفة وأهل دولته ،
فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة
العامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثر من اقتنائها وربما لبس الواحد
٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم
إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما
الخلفاء ، مثاله ما خلفه المسكتني بالله من الألبسة وهو :

عدد

من الثياب المقصورة سوى الخمامات	٤٠٠٠٠٠٠
من الأثواب الخراسانية المروية .	٦٣٠٠٠٠
من الملاءات	٨٠٠٠٠
من العائم المروية .	١٣٠٠٠٠
من الخلل الموشاة الجمانية وغيرها منسوجة بالذهب .	١٨٠٠٠
من البطائن التي تحمل من كومان في أنابيب القصب .	١٨٠٠٠٠
من الأبسة الأرمنية .	١٨٠٠٠٠

(١) ألف با. ١٨٧ ح ٢

وتوفى ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة
بختيشوع الطيب ٤٠٠ سروال ديبقى ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا
في تركته ألف سروال ديبقى بألف تكة حرير . اهـ

الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعدي بالأثوف من ذلك ١٠٠٠٠٠٠
قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقله وني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار
واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب ، و ٣٠٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر
مطرز بأبيض من هذبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلائها ومقاطعها ؛
وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعته وستوره وكل
ما يحتاج إليه

ومن أدلة التعرف والاسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت
الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جماتها ثلاثون فرساً بمرابها ذهباً منها
مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر ؛ وبستان
من الفضة مزروع من أنواع الشجر اهـ

أثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة
السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتناعونهم ؛ ويقالون في رفع أثمانهم ، وكانت أسعارهم
تتضاعف إذا جمع بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية
من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل
إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون

درهم^(١) (نحو ٧٠٠٠٠٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار^(٢) وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٦٠٠٠٠ دينار فباعت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها « بنل » ، فأبى ، فأمر فأوقروا قار به ذهباً ، فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم^(٣) أى أكثر من مليون دينار ، وهذا إذا صحَّ كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجوارى . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى سلامة الغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهم اهـ

سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ، ويبكى وينتحب طويلاً ، ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف فبعث في طلبه ، فلما حضر انتهىه الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندي آياد خضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر ابن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع دارى ، وأملت إلى غاية ، فأشير على بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، ومعى نيف وعشرون امرأة وصبياً ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهم جياحاً لا نفقة لهم ، فمرت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى ، فجلست معهم أردد في صدري ما أخطبهم به ، فتجيد نفسى عن ذل المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، ققاموا ، فقمتم معهم ، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، فجلسوا

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ الاغانى ١٤٥ ج ١٥

وجالست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيى على القاضى ، وقال زوج ابن عمى هذا بابنتى عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، وبنادق العنبر ، وتماميل الندى ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه ، والصينية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدى ، لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقت ، وجعلت أمشى وألتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحى يلاحظنى من حيث لا أظن ، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية ، فحشنته فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فسألنى عن حالى ، فحدثته عن قصتى ، فبكى ، ثم قال على بموسى ، فجاهه ، فقال : يا بنى هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذة إليك فأخلطه بنفسك . فأخذنى وخلع على ، وأمرنى بحفظ الصينية لى ، فكنت فى ألد عيش يومى وليلى ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلى هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولونى وأنا قلق بأمر عيالى ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومى وليلى ، فلما أصبحت جاءنى خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقت والخدام يمشى بين يدي ، فأخرجنى من الدار ، فازداد ما بى ، ثم أدخلنى إلى دار كان الشمس تطلع فى جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلى الخدام صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين وأزمنى من خراجهما مالا يبنى به دخلهما ، فكلمنا لحنى

نائبة قصدت دورهم فيكيت ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يردّ على الرجل ما استخرج منه ويقرّر خراجه على ما كان في أيام البرامكة ، فيبكي الشبخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستأنف بك جميلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الرفاء مبارك وحسن العهد من الأيمان^(١) اهـ

التهتك

وطبيعيّ فيما قدّمناه من الحضارة والترّف أن يعثورها شيء من التهتك والفحشاء ، وإن كان ذلك لا يغلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهنّ رايات ينتحيهما الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء ينتفون عرض الدنيا^(٢) ، ولكن ذلك شأن الحضرم منهم ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهتك أوفر في المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوافر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن ، فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ، ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاورون عند الحاجة^(٣) ، وتفنونوا في ترويح تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات^(٤) ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهودهم في منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم^(٥) ، ولما عجزوا عن كفاها بالقوّة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات^(٦) .

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ واللائدى ١٣٢

(٢) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٣) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (٤) ابى خلكان ١٢٧

ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (٥) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقرئى

٢١٦ ج ١ (٦) المقرئى ٨٩ ج ١

وأقبح ما ظهر من التهتك في أثناء هذا التمدن مفاصلة العلماء وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيينهم ، وكانوا يخصوصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريتهم ، وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن الى التشبه بالغللمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢)

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرهن إلى التفتن بأساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٣) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأوكفاء ، أو لأسباب أخر كان يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقلّة التزويج (٤) ذكروا أن ابنة الأخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ العزل لدين الله الفاطمي ذلك ، وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الأخشيد استبشر . وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر في آية : (أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور : ما الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ما جرى لملوك الاسلام في الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت :

أولا - إن الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق إنما هو زوال الملك وضياع

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقرئى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الاثير ١٨٨

ج ٧ (٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

الأمة ، وذهاب ملك العرب بقته ، وهذا تقدم في سورة الكهف ، في آية : (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) فقد جاء التنار من الشرق وعلى رأسهم جتكير خان وخلفه ملوك منهم (هولاءكو) وأذل الأمة ودمرها تدميراً لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لا يحصره العد وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله في زكية مكظوم النفس فان أردت بإصاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك^(١) تحت عنوان « يأجوج ومأجوج »

يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى (قَالُوا يَاذَا الْقَرُينِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) وقال في سورة الأنبياء (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ واقتراب الوعد الحق الآية) فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضارين صفحاً عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به ولنحصره في خمسة مباحث .

المبحث الأول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج وأصلهم وجغرافية بلادهم .

المبحث الثاني في انسادهم في الأرض ويستلزم ذكر تاريخهم

المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج وذكر خروجهم وتعيين زمنه

وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق .

المبحث الأول - أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من

أجيج النار وهو ضوؤها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم وذكر بعض المدققين في

البحث عن تأصيلهم ان أصل المفعول والتم من رجل واحد يقال له ترك وهو نفس

الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا ان المفعول والتمهم المقصودون بيأجوج

(١) هذا الموضوع في سورة الكهف منقول من هذا الكتاب في طبعته الأولى

ومأجوج وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا تمتد بلادهم من التيبب والصين إلى المحيط المنجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد التركستان كما في فاكهة الخلفاء وابن مسكوية في تهذيب الأخلاق وفي رسائل اخوان الصفا فقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج

المبحث الثاني - الكلام على افسادهم في الأرض . وقد ذكر المؤرخون ومنهم الافرنج ان هذه الأمم كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميراً وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون في الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد ذكروا ان منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا في قديم العهد فمنهم أمة السيت والسعرياق والمسجيت والمون وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن وكذلك ورد ذكرهم في القرآن كما تقدم وفي بعض الأحاديث أيضاً ثم انهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الناهية الذهبية والغارة السموا من تلك الأمم المتوحشة الرحالة إذ ظهر منهم رجل يسمى تموجين لقب نفسه جنكيز خان وقال مؤرخو الافرنج ان معناه بلغة المغول ملك العالم ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذ أعد نفسه فاتحاً لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة فانه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولاً ثم ذهب إلى بلاد الاسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين ابن ارسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئاً وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشر سنين ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله في تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة

ولا صبي ولا صبية قتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أوأعا ولقد حسيوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلقق كل واحد من جموع جنكيز خان التي لا تحصى عدداً أربعة وعشرون قتيلاً وأحرقوا المدينة وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلاً عما فعلوه بسمرقند ومخاري وغيرها وفتكوا بأهل نيسابور وأفتوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات كالقطط والكلاب وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى في واقعة مرو فكانوا مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فضائلهم راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها فلقد أخضعوا بلاد الهند ومات جنكيز خان بعد قتوله من غزوها ولما ملك بعده ابنه اقطاي أغار ابن أخيه المدعو باتو على الروس سنة ٦٢٢ ودمروا بلونيا وبلاد المجر وأحرقوا وخرّبوا ومات اقطاي فقام مقامه جالوك فخارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقام ابن أخيه منجوك فكلف أخويه كيلاي وهولاكو أن يستمروا في طريق الفتح فيمتجه الأول إلى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية وقد فعل كل منهما ما أمر به فأخضع كيلاي بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق الداوالات فلم يفلح وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهاراً وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم في دجلة وجعلوها جسراً يبرون عليه بنحوهم وهذا الخليفة بعد ما أحضر لتسليم ماله من الكنوز التي لا تحصى وقد ورثها عن أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة كيلاي بالصين والمغول وملك جافاتاي أخو اقطاي لتركستان وملك ذرية باطرخان البلاد التي على شواطئ نهر فلجا وصارت روسيا تدفع الجزية إليها زمناً

طويلا وانضمت بلاد الفرس إلى هولاء الذين هم ببلادهم وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام

المبحث الثالث - قوله تعالى « حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » أي فتحت جهنم على أحد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التاريخ وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (اتركوا الترك ما تركوكم فان أول من يسلب أمتي ملكهم بنو قنطوراء) أي الترك مع ملاحظة ما ذكرناه في التاريخ أنه لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها الا هولاء وقد ورد أيضا في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقتهم بخراسان فهذه إشارة إلى سيرهم واتجاههم وطريق ومنتهم ملكهم إذ لم يتجاوزوا الشام إلى مصر ولا أفريقيا وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ولم يفتروا فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة فما أجلها معجزة ظاهرة ثم أن جنكيزخان هو المراد بمحدث (يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها ، وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيزخان المذكور وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التاريخ قتل رسل جنكيزخان والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده فاغتاز جنكيزخان وكتب إليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما معناه .

كيف تجرائتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الاتقياء أو تعادوا من لاعاداكم وتكذبوا صفو عيش من صادقكم وصافاكم تحركون الفتنة النائمة وتنبهون

الشروع الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سر يكتم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظم الضعيف قويكم أو ما أخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم (اتركوا الترك ما تركوكم) وكيف تؤذون الجار . وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أوصابه ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه (الا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فموها واحفظواوها وتلافوا هذا التلف تبلى أن ينهض داعى الانتقام وتقوم سوق القين ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلا ويهوج ويفتح عليكم سد يأجوج وماجوج . وسيدضر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سره بويته وآثار عدله في برته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج وماجوج من كل حذب انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان - وانظر كيف كان صريحا بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان وهذا مصداق ما رواه البخارى بسنده عن ام حبيبة بنت ابي سفيان عن زينب ابنة جحش . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فرعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج وماجوج مثل هذا وحلق بأصبه الابهام والتي تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون فقال نعم إذا كثر الخبث . ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ الى القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كأوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الاقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم . (انظر هذا المقام في تفسير سورة الكهف فان هذا السد أصبح مما كشف حديثا)

وصار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي

لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم وهذه من أجل المعجزات ثم إنه كان بين بلاد جنكيزخان ومملكة خوارزم مملكة تسمى انذار كأنها حد فاصل بين الدولتين أوسد بين الأمتين ففزاهم الملك السلجوق واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر . وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان إذ ذاك

في نيسابور عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الأرض بدموعهما فمثلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالا وأنتم تعدون هذا الثم فتجاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً وإنما هو مبدأ الخروج وتسلط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين (ولتعلمن نبأه بعد حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بأردناه ونص في فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه وظهر التتر وأفتوا المسلمين وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فراراً وكذلك أهل أوروبا

المبحث الرابع — قوله تعالى (من كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) الحدب ما ارتفع من الأرض وينسلون أى يسرعون في النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماماً على قوم جنكيزخان المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والأفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدها كما ذكرنا

المبحث الخامس — قوله تعالى واقرب الوعد الحق أى القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى . (وَنُنَخِّ فِي الصُّورِ نَجْمًا مِّنْهُمْ جَمًّا) في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة ألا ترى قوله تعالى (اقترَبَتِ السَّاعَةُ) وانشَقَّ القمر) وقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت انا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثمانمائة وألف سنة فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج واقرب الوعد الحق فكلاهما اقتراب . ورب قائل يقول أين الاقتراب في الموضوعين قلنا معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناول الاحصاء وما بقى من عمر الأرض الطبيعي قدره يسير جداً بالنسبة لذلك ونحن نقصر حياتنا عند ذلك بدءاً وبعده الله الباقي الدائم قريباً قال تعالى: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَاهُ قَرِيبًا) فألف السنين لا تنافى القرب مهما امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله إذ من البيديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدرى

رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج وماجوج وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل وأما صفتهم المشهورة في القصص وبعض الآثار فكثير منها لأصل له أو ضعيف الرواية وليؤون الصحيح منها أن خالف حقيقة هذه الأمم على قاعدة وجوب تأويل الدليل النقلى ليوافق العقلى الذى قطع برهانه فإذا سح أن الأرض اكتشفت تمامها وأن الربع الشمالى لم يبق فيه احتمال لوجود أمة مجهولة وجب المصير الى ما قلناه فى هذا المبحث أو نحوه هذا ما عن لى الآن وهذا ما كنت أجت به عن سؤال الأديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد فى مجلة الهلال فى آخر القرن التاسع عشر ثم قارنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام « ويل للعرب من شر قد اقترب قد فتح اليوم من ردم يأجوج وماجوج الخ » فيما ذكرناه مع اضطرابه وخوفه الشديد وبين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع فزاد يقينى بما كتبت ورأيت أن هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج وماجوج وزاد استقرابى جداً لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف تحقق هذا القول فى الخارج وجاء مصداقاً للقرآن والحديث فالحق أقول أن هذا النبى والكتاب المنزل عليه لما يدهش العقول وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج وماجوج فى كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ولكنه اجمال لا يشفى غليلاً ولا يؤخذ حجة لاجماله ولقد فصل فى رسائل قديمة الفت فى نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن أمة يأجوج وماجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالى الى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعاً وكانوا كفاتحين للعالم كله فسكانوا أشبه بأهل أوروبا الآن فكانهم أخلفوهم فى عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم ومن المقرر أن بينهم نسباً ورحماً فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة الصين بل هم الجزء العظيم منهم وهما من منشوريا تتجاذبها روسيا والصين وبلادهم

تبلغ في العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد تسكن الاقليم الرابع والخامس والسادس والدايع من الاقاليم التي اعتبرها الاقدمون هي الحدود المعروفة لاقسام الأرض وهي مبنية على مقادير العرض الذي لا يتغير بتغير الأيام والأمم وتداول السنين مما اختطه الملوك الأقدمون والحكام الغابرون والأنبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الأرض وغابت عنهم أمريكا والاقيانوسية لبعدها المواصلات وشقة السفر وحيلولة الجبل والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومي اليوناني وتبع الحميري وأفريدون النبطي وأزدشير بن بايكان الفارسي وسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الاسرائيلي وغيرهم ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً أننا معاشر المسلمين الآن والدولة الاسلامية أما في حال الهرم وهي وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما أطفال ولدهم شيخ كبير فهم يبحثون على آثاره .

فيا عجباً كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضاً وطولاً ونحن لانعلم منها شيئاً، وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الأمر ويحصل في الوجود ونجهله نحن ولعمري أنها لمعجزة ظاهرة واضحة ولقد كان الأقدمون يعملون علم الجغرافيا مما يجب النظر اليه في الكون مثل قوله تعالى (وفي الأرض آياتٌ للمؤمنين . قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) بل لو لم يكن للنبي معجزة سوى هذه التي ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد وانى لأعجب من ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ويل للعرب من شر قد اقترب الختم ان هؤلاء أزالوا دولة العرب وانهت الدولة العباسية بقتل المعتصم آخر ملوكها وبقي خليفة رسمي في مصر وعند قرب الألف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذر مذر وما حفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وأما أولئك التتار فهم كونوا أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيافكما ورثوا أرضهم وديارهم ورثوا دينهم وهذه المسئلة وان كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً والحق ان علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط

الساعة وسماها العلماء الأشراف الصغرى إذ الكبرى بخراب الأرض كلها والصغرى
 بأبادة أمة أو أمم فإذا جاءت الطامة الكبرى زالت الأمم من الوجود
 ولقد أوضح الرسول الصادق أموراً كثيرة لايسع المقام ذكرها الآن ولندع
 عنان القلم ففياً ذكرناه عبرة وتذكرة انتهى الكلام على المقام الأول
 ثانياً — ان الذى جرى لأمرأ الأندلس هو الذى جرى للموك الباسيين فى
 الشرق ، فانظر ماجاء فى كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثاً فى عصرنا ، وهذا
 ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (براقا) قابل الأذقونش فى رومه فى الفاتيكان ، وجاء أيضاً معهما
 دوق فينيزيا فقال له ابن اذقونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات
 أوروبا وشاورهم فى استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدنا » . فقال
 براق : « إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والحديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخر ، ولا يفل
 الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقاً فى أقل
 من ملح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد
 تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ،
 فهم يندعون بسهولة بالظواهر الموهمة ، فاجعلوا بينهم وبينهم معاهدة على حرية الدين
 والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقاً بها يثون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم
 يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون الحمية الدينية التى تحببهم فى الحرب ،
 فأما حرية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلمهم ،
 ويتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهى التى تضع شيناً فشيناً تمسكهم
 بأزيائهم فضلاً عن تجارة الخمر ، فهى الآن محرمة ، ففى شاعت بينهم أقدموا على
 المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ،
 وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس
 يا حضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ ، والاسراف فى الشهوات ، وإهمال سير

الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية
 فلمت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس . وشكر برآقا
 على إخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوربا ببراق وتحادثوا
 ملياً وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الاسلام بالاندلس
 فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك ابن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه
 فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء
 وغرناطة ، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى
 ابن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب إريز ، فنزلوا جميعا
 برصافة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصرًا فخماً تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل
 فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال
 ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقر العين منه ناظر بهج الجوانب لو مشى لاختالا
 قبلوا شروط الصالح فعارضهم قيس بن مصعب وبقى الأمراء في ضيافة مالك
 ابن عباد شهراً :

ومن رعى غنما في أرض مسبمة ونام عنها تولى رعيها الأسد
 فلما انقضت أيام الولايم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن بنى عامر صاحب
 بلنسية فإنه بقي مع الأمير يقضيان الزمن في اللهو والصيد والخر وهكنا بقية الأمراء
 وشعوبهم يتبعونهم ، فانهطت الدولة بذلك ، وزاد في افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر
 الرهبان في أنحاء الأندلس وأخذوا يبشون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون في أوقات خاصة
 للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البسائين ، وكانت متزها جميلة يؤمها
 العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد

وقال صاحب التاريخ المسمى بالعجب : لقد جددوا في عام هذه المعاهدة أربع
 مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن

شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماماً إلا ما يختص بالشريعة) فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان وتعلموا لغاتهم وجاروهم في عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر في بلنسية فان المبشرين والمعلمين تدخلوا في كل شئ . لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافرى) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة .

ولقد لعب براق بن عمار دوراً مهماً هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جنبدل ابن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسرخفى في نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطاباً من البابا وعده فيه بأنه يؤمله أن يجعله ملكاً مستقلاً بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته في أى وقت شاء . ثم أن براقاً وفى بعده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى « شيل » يرافقه في أيام الصيد ، وأخذ براق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يا براق ؟ فقال اختبره إن شئت فقال مالك لتتبارزا فان غلبته فكفاه خزيا وإن غلبك جعلته من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر براق بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة براق وشجاعته وجعل البطريق قائداً وقربه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة في البلاد ، ولا سيما الخمر

قسيس يخص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذى لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمراً ، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه ،

وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس هؤلاء القيسيين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

- (١) فشرّبوا الخمر نهاراً جهاراً .
- (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
- (٣) وحرقوا عوائد آبائهم .
- (٤) ولبسوا الحرير ، ولبسوا الصوف وانشروا .
- (٥) وأهملت تعاليم البلاد .
- (٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة في حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك مهتكين متصايين في عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واعتصبها من أيها فاستجار أبوها بجندل بن حمود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سبباً في الحرب بينهما فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته تجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفناً تحمل جنداً تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن حمود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون حراكاً حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المرية ، وهذه أول نتيجة للمعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قص القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفريق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفاً ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين)

وفي اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن

عبد العزيز يرسل الفرنجة ، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقايل الحصين الوزير وكله في ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الأنكار لا يفيد أخبره بالحقيقة محتجاً بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون لا يبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لا يبقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلماً ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم تقاتلهم نحن ؟

فغضب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء في الخيانة والجبن ، وإذا ظننت أن ابن (أذفونش) يعطيك نوالاً فأنت مخدوع ، فجزائك كجزاء سابور ذى الأكتاف للنصرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون في ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة في نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها والسيدة الجميلة بحضرة زوجها ، فيترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه وقد قال ابن زياد : إن الذين قتلوا في (بلنسية) ظلماً بسبب الدفاع عن العرض ١٣ ألفاً ، والذين قبلوا لآبائهم الدخول في دين الغير ٣٠ ألفاً ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .

وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عدياً خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشاً لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقة) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند في قرطبة للدفاع عنها . ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم أن ابن أذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر بأحراق ابن ذى النون ، ويقول المؤرخون أنه إنما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يحون عدوه .

مصير براق بن عمار

ذلك الماكر الخبيث الذى مكث زماناً معظماً فى قرطبة عند مالك ابن عباد حتى

سقطت بلنسية ، وحضر قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا للملك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ؛ فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الأذفونش إلى جندل ابن حمود ووعدته بالنصر على بقية ملوك الطوائف ؛ وأنه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفي شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولا تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ؛ ففرح جندل بهذا الخطاب ثم توجه برّاق إلى جهة المريّة وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمّاح ؛ فسلم كتابا معه من ابن الأذفونش إلى القنيطور أي القائد ؛ وفيه : « إنا سترسل لك ٢٠ مركبا فيها جنود ويحضرا ابن مردينش معاهدنا أمير اقليمه قاضي كادية معاهدنا فيكون تحت رأيك ٢٥٠٠٠ مقاتل ؛ ففتح أشبيلية في شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيراً على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة في الوقت الذي تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت امره القائد (كولى) تبيع أشبيلية ، حلا جنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل بن حمود الذي ظن أنه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم فقتلهم تفتيلا فنادوا الأمان

أما مالك بن عباد فانه بقي في سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الأذفونش فانه جلس في قصر الامارة ، واستحضر حسين بكراً من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموي بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما برّاق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق وإلى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه

وجاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس للاستاذ حسن مراد ما يلي :

نما شيد عظمة الدولة لأموية الفتوحات الاسلامية لذلك العهد التي جعلت للاسلام علما مترامى الأطراف نشر فيه مدينة وعلما ودينا جديدا وتقتصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس وإذا ماراجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس ويرجع فضل ذلك إلى جرأة طارق وإقدام موسى بن نصير ثم لان ثبت أن نرى عودة هذين القائدين ومصير الأندلس إلى الولاة وكان خروج موسى عام ٥٩٦ هـ واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة ومما يلفت الأنظار :

تعدد الولاة وظهور العصبيات وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتماً إلى تفرق الكلمة وضعف القوة ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصاراً أشداء مخلصين وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثاً بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الاسلامية

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال إلى الفوضى والثورات الداخلية وليس أدل على ذلك مما كان من أمر صميل وأبي الخطار وثورة جند الشام ومصير الأماة إلى يوسف بن عبدالرحمن الفهري ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين واتقسام الناس على بعضهم مما جعل المؤرخين يقولون أن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس أو عديم الوجود وما كان للأمويين في آخر سنيهم بالشرق أن يعيروا الأندلس أي اهتمام لما أحاط بهم بالشرق من ظروف

و بينما كان الأندلس تسير في حالتها هذه دبر الأمويون بها نقل الامارة إلى

أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام واستعان بجند اليمن وبعض البربر ودخل عبد الرحمن الأندلس وانتصر على يوسف وصارت له الإمارة

فشيّد ملكاً للأمويين دام ثلاثمائة من السنين ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف فنرى الداخل يخضع الثروات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون وتطلبت إليه الظروف أن يبنى ملكاً على حكم استبدادي المكانة الأولى فيه للسيف وتبعه على سياسته من خلفه ولما كان هذا النوع الحكومي لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهوراً وإذا ما أغمد ناروا وعملوا على استرجاع حرياتهم

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه وتآمر عليه بعض رجاله وأهله ولكنه انتصر عليهم وأهم ما نجده في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانتشاره فيها مما أدى إلى تطلع الفقهاء إلى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاد يحيى ابن يحيى وعيسى بن دينار وغيرها طلبة العلم وحرصاً الفوغاء على الثورة فقامت فتنة كادت تسقط أمانة الحكم ولكنه انتصر بقوته وعاقب الخارجين أشد العقاب

وعموت الحكم بن هشام وانتقال الإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد بن عبد الرحمن ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن وكاد ذلك العصر ينتهي بسقوط ملك الأمويين بالأندلس وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى :

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ونصر الخصى فتسربت الفوضى إلى البلاد فأدرك ما كان من خطئه وأسرع إلى إصلاح ما فسد

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذي أصبح أميراً على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالي بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ولا شك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة قرطبة وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون بأقليم ريبا على مقاتلة الامارة الإسلامية ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع سرا أو تميد الى الامارة عظيمها الأولى ولما آل الملك الى عبدالله ابن محمد ساءت الحال جدا : قامت العصبية وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة فعمت الفوضى وأصبح ملك الأمويين على قاب قوسين أو أدنى من السقوط وفي هذه الحال مات عبد الله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجل خدمة إذ أفصح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمر العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المؤمن وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقا جديدا : تبدل ضعفها إلى قوة فأخضعت الثورات وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمالي الأندلس وأذلتها ولم ينل منها الفاطميون مآربا وسارت البلاد في طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة . وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد فانه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء في صميم فؤادها وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر

فلما عجز ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاذ سيرة أبيه قتل وانتقلت البلاذ الى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير ومميزات هذا العصر

(١) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لادراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة

(ج) ظهور دولة بني حمود بمالقه وانتقال الخلافة إليها وصارت لعلى بن حمود أولاً ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن علي بن حمود ثم للقاسم ثانية ثم ليحيى لثاني مرة ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الامارات الى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق اقيام حكم ملوك الطوائف في عهد المستعين المرواني اقتضت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاثة مدن حولها ثم كانت خلافة المرتضى ثم المستظهر ثم المستكني ثم هشام الثالث ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس الى التفكير في اسقاط الأسرة الأموية نهائياً وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور

(٥) ولا بد أن نضيف الى ما تقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائي نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانتهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ويقول لينبول أن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ أهمل أمر المسيحيين من بدء الأمر

(٦) ونحتم جملة الأسباب بما كان من تغير كلى للخلق العربي مما أدى بهم إلى

نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والافتقار في الترف والنعيم وكيد بعضهم لبعض وقعودهم عن نصره بعضهم لبعض

لم يكن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً : كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت برمجهم وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد وفرضوا الجزية على الإسلام وأذلوا الناس وكان خلاص المسلمين على أيدي المرابطين زمن محدود ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلاً وفي آخر عهد الإسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بني الأحمر بقرنطة فشيدت أثراً باقياً ومجداً دونه لها التاريخ فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابها الفتن الداخلية وكانت المسيحية وصلت إلى عظمة قوتها على يد فرديناند وإيزابلا فاسقط المعقل الأخير من المعاقل الإسلامية وبادت دولة الأسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدينة والحضارة انتهى الكلام على الأمر الثاني

ثالثاً — الكلام على خراب الأندلس كما خربت بغداد والمملكة العباسية جاء في تاريخ العرب لسديو مانصه : المبحث الرابع : في إعدام النصارى سلطنة قرناطة من بحيث جزيرة أسبانيا

تنازع السلطنة يوسف الرابع الحمار ومحمد السابع فاستمد أحدهما دولة قسطنطينية الإسلامية فأمدته بجنود نصرروا على خصمه في صحارى قرناطة سنة ١٤٣٢ فكان ذلك الانتقاد الثاني للحروب بين مسلمي أسبانيا ومراكش وأما ما كان من سادات أهل قسطنطينية ومشايخ العرب الذين يودون إظهار الأناش والشماعة الحربية من الفارات على بلاد الأعداء فكانت منازل لم تستدع حرباً عامة بين هاتين الأمتين

وتولى سلطنة قرناطة سنة ١٤٦٥ السلطان حسن المعروف بالشجاعة وحب الوطن لكن رماه أهل قرناطة بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية على عقله مع اختياره ولدها أن يكون خليفته دون ولده أبي عبد الله بن السلطنة زورياً فكان بينهما عداوة ازداد بها ضعف هذه المملكة سنة ١٤٧٦ بخلاف مملكة قسطنطينية فان عظماءها

وان أوصولوا هنرى الرابع إلى أقصى درجات الحطة والمذلة لكنهم اتقادوا بعد وفاته سنة ١٤٧٤ لابنته ايزابله المتزوجة فردينند ملك مملكة نواراة والوارث الملك مملكة أراغون ثم كان لهذين الزوجين سنة ١٤٧٩ التصرف فى المالك الثلاث كيف شاءا طلبا من السلطان حسن الجزية التى كان والده يؤديها فأبى قائلا للسفراء اذهبوا فقولوا لأسيادكم ان غرناطة ليس لديها ذهب ولكن حديد لأعدائها ثم دهم مدينة زهرة وأخذها سنة ١٤٨٠ فأخذ أهل قسطيلة مدينة الحما المعضدة لغرناطة التى سار عقب ذلك لأخذها فالتهمت نيران الحرب الداخلية

وعزل أصحاب الامير أبى عبد الله اباه حسنا عن السلطنة وولوا ابنه فاطهر للناس نصرته على نصارى قسطيلة فى واقعة لقصة المقتضية أنه أولى بالسلطنة من ولده ولم يجد ذلك نفعا فأقام بريف غرناطة ثم عاد إلى السلطنة يسيرا ووقع ابنه عبد الله الجبان فى أيدي نصارى قسطيلة وهم يحاربون مع فتور همتهم وأطلقوه سنة ١٤٨٤ لعلمهم ان عزله أباه يساعدهم على بلوغ ما ربههم أكثر من النصر على أبيه الذى ألزم بجمع السلطنة على عمه المعروف بالزجال واحتقر أبناء الوطن أباب عبد الله فترجى فردينند أن ينصره فأجابته وأغار حالا على مملكة غرناطة فأخذ مدائن الويجا وهزم الرجال أمام مدينة لورقة فتنازل عبد الله عن غرناطة سنة ١٤٨٦ لفردينند الذى رخص لأبى عبد الله أن يدم جميع مملكة الزجال فحاصر أبو عبد الله ملاغة وأخذها ثم وجه عساكره إلى مدائن المرية وبازه وورا فبذل الزجال وسعه فى القتال حتى يتس فأمر الناس أن يسلموا نصارى اسبانيا وسلم هو مملكته إلى فردينند الذى أعطاه بدل ذلك اقطاعات واسعة بسائر مملكته سنة ١٤٩٠ وألحق أهل غرناطة برعاياه فى الاعتبار وحفظ الحرية والاموال والاعلان بشعار الدين والخراج الذى كان يؤخذ منهم سابقا ورأوا من سلوكه دلائل الهدوء الدائم فاتقاد لحكمه من حلفوا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى تنفذ وسائلهم الحربية لكن بعض المسلمين حرض على الغدر بالنصارى وشهروا السلاح وحصنوا غرناطة مصرين أن يموتوا تحت أطلالها فهرب الملك الزجال إلى افريقيا فتمثل فردينند

في تاسع مايو سنة ١٤٩١ بنائين ألفا أمام أسوارها ووكل عبد الله رؤساء رجاله في المدافعة عن تلك المدينة التي قامى الأهوال في حصارها نساؤها وأطفالها وشيوخها وتنافس جميع أهلها في صد العدو وبنت الملكة إيزابلا هناك مدينة سنافية لإعلانا بانها لا ترحل قبل فتح غرناطة وقطع فردينند اختلاط أهل غرناطة بغيرهم حتى ضاق بهم الامر فخرجوا على النصارى مخاطرين بأنفسهم فهزمهم النصارى بحوار أسوار المدينة وطلب فردينند من أبى عبدالله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت إليهما مدد في بر أو بحر ووضع امضاه على شروط بذلك فاستنجد أهلها سلاطين افرريقية والقسطنطينية فبعث ملوك القسطنطينية دون غيرهم سنة ١٤٨٦ سفنا اقتصرت على تخريب سواحل بحيث جزيرة اسبانيا فخاف أبو عبد الله من قيام أهلها عليه وسلمها قبل الميعاد إلى فردينند الذى رتب له اقطاعات كافية في أرض البوقساره ثم أقام أبو عبد الله في صحارى افرريقية لما ركبه من العار والنلة ونصب النصارى على ذروة قلعتى الحمراء والبايسين أعلام سلطنة قسطنية وأعلام سنجاق (مارى يعقوب) وزينوا مسجدها الاعظم بحلية العبادة النصرانية القاتوليكية وأمر القائد (كزيمينيس Ximénis) باحراق الكتب العربية المحفوظة منذ قرون ووضع فردينند يده بلامانع على المحطات المهمة في الجبال وعلى مملكة غرناطة فاقضى من اسبانيا حكم العرب الممتد من سنة ٧١٠ إلى سنة ١٤٩٢ ميلادية

وكان زوال سلطنة غرناطة اعلام بموتهم فانهم لم يسألوا بعد أخذها عن شروط التسليم المشتملة على تمتعهم بالحرية والمال والسلاح والدين والمساجد والعوائد وبقاء ترتيب القائدين للجنود والقضاة المكلفين بالحكم في الدعاوى على مقتضى الشريعة الاسلامية وعدم الجبر على تأدية شىء سوى الخراج والتكاليف التي كانوا يؤدونها للوكهم المسلمين المبحث الخامس في السياسة التي سلكها ملوك اسبانيا مع المسلمين المطرودين عنها

سنة ١٦٠٩ ميلادية

لم يقصد فردينند بشروط تسلمه غرناطة إلا الحصول عليها لا إجراء تلك الشروط

التي منها التمتع بالدين فانه رأى أن المسلمين بكثرتهم وغناهم وحبهم للاستقلال ربما كانوا مانعين نفوذ حكمه فصمم رأيه على أن يسلبهم العبادة الاسلامية والأخلاق العربية شيئاً فشيئاً ولم يبدل ذلك أول وهلة خشية ألا ينجح مقصده فاغذمتجسين على التدين بدؤا بمدح أهل قسطنطة ومأم عليه من الصلاح والاستقامة ليأمنهم المسلمون وينسوا ما كانوا عليه من سوء المعاملة وأوهومهم أنه يجب عليهم العمل بشروط التسليم بغاية الدقة وأنهم لا يؤذون إلا اليهود المالكاين لخصة عظيمة من أموال البلاد أو الذين رحلوا من وطنهم (غرناطة) أو تركوا دين آبائهم ودخلوا في دين النصرانية وأوقعوا سنة ١٤٩٢هـ ولاء من العذاب أنواعاً فزعمت المسلمين والمتجسسون إذ ذاك يدعون إلى النصرانية المسلمين الخائفين أن يحل بهم ما حل باليهود من سوء العذاب ثم أعلنت النصارى بمنع التدين بالاسلام وأغدقوا بالذهب على من استنصر ثم حكم فردينند سنة ١٤٩٩ بطرد من لم يستنصر من جميع أسبانيا فاقاد ظاهراً للذهاب إلى الكنائس لعبادة المسيح المسلمون بسائر المدن إلا سكان جبال البوقسارة فلم يمثلوا وشهروا السلاح فهزمهم هذا الملك وأتلف مزارعهم وأخذ أموالهم وطردهم من البلاد نعم تحمل النصارى أن يتدين بدين الاسلام أهل والنسة التي صناعتها أحد الينايع الأصلية لفاهية أسبانيا حتى ولى السلطنة شرلكان كرولوس الخامس سنة ١٥٢٤ فأزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر فاشتكوا ذلك إلى شرلكان فلم يصغ لهم وأحالمهم على محكمة تحقيق الدين وعقوبة المعرلة عن طريقة القاثوليكية فحكم أرباب المحكمة بإكراه المسلمين على التنصر وسعى رئيس أساقفة اشبلية لدى هذا الملك حتى حكم سنة ١٥٥٢ بمنع مسلمى غرناطة فى يوم واحد من عوائدهم القديمة ولباسهم والتكلم بلغتهم ورتب لتحقيق دعاوى المخالفين لذلك الأمر محكمة مخصوصة ودفع المسلمون سنة ١٥٩٢ إلى الملك فيلبس الثانى ثمانمائة ألف دوقية (دينار) ليخفف عنهم ذلك فكفت عنهم أرباب الحكومة إلا أن الرعية مازالوا يتأدون فى عدم التحمل للتدين بالاسلام شاهرين السيف باليمن والصليب باليسار مقتفين أثر المسلمين فى كل جهة حتى الجبال

غدر ملوك الاسبانيين بالعرب ومنعهم من مزاوله دينهم عواندهم ٢٣٧

وبالجملة أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمراً من الملك فيلبس الثاني بمنع اغتسال المسلمين من الحديين والزقص المغربي واستعمال اللسان العربي وخروج النساء متبرقات فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودة مع مغاربة افريقية فتبعهم المراكيز (منديار Mondejar) القائد النصراني فالتجثوا إلى جبال تابعين قائدهم محمد بن أمية المدعى أنه من نسل بني أمية خلفاء قرطبة الأول واستمرت الحرب بينهما سنين حتى بدأ الشقاق بين المسلمين وذبح محمد بن أمية لخلفه عبد الله فأخذ منه (دون خنا وتر يش Don juan'd Autriche) سنة ١٥٧٠ معظم عساكره الذين انقاد بعضهم للنصارى وبعض ذهب إلى افريقية ووزع النصارى الساكنين بجبال البوقسارة على استورية وغاليسة وقسطيلة تحت الملاحظة الشديدة وأمر الملك فيلبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمي والنسة ومرسية فنقلتهم سفن إلى سواحل افريقية واجتاز منهم كثيرون جبال برينيه فقبل نزولهم في فرنسا ملكها هنرى الرابع وجاد على بعضهم بالمسكن والزراعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر في البحر إلى مينا غينة ومينا لنجدوق

ووجد بعض المؤرخين المسلمين المطرودين من أسبانيا منذ فتح النصارى غرناطة إلى سنة ١٦٠٩ ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة فدرست معالم عز أسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة ننتس سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب القائلين بخلق ذوى الصنائع العظيمة

للسيد يحيى القرطبي

وقد أصبح في حال تعد المنايا أمانيا ويرى الموت لضعف الدين طيبا شافيا

وقد أسر بالآندلس وذلك في عهد السلطان سليمان :

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يفر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وعالم الكون لا تبقى محاسنه ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر منا كل سافه إذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضى كل سيف للفناء ولو
 أين الملوك ذوو التيجان من يمن؟
 وأين ماشاه شداد من إلام؟
 وأين ماخازه قارون من ذهب؟
 أتى على الكل أمرٌ لامردة له!
 وصار ما كان من ملك ومن ملك
 دار الزمان على دارا وقائله
 كأنما الصعب لم يسهل له سبب
 فخانم الدهر أنواعٌ متنوعة
 وللمصائب سكونٌ يهونها

كان ابن ذى يزن والعميد غمدان
 وأين منهم أكاليلٌ وتيجان؟
 وأين ماساه في الفرس سامان؟
 وأين عاد وشداد وقحطان؟
 حتى قضاوا فكان الكل ما كانوا!
 كما حكى عن خيال الطيف وسنان!
 وأم كسرى فما آواه إيوان!
 يوما ولم يملك الدنيا سليمان!
 وللزمان مسراتٌ وأحزان!
 وما للاحل بالإسلام سلوان!!

دهى الجزيرة خطبٌ لأعزاء له
 أصابها العين في الإسلام فارتزأت
 فسئل بكنسبة ماشانٌ مرسية
 وأين حصص وما تحويه من نزه
 وأين غرناطة دار الجهاد فكم
 وأين حمراءها العليا وزخرفها
 قواعدٌ كمن أركان البلاد فما
 هوى له أهدى وانهدى هيلان
 حتى خلت منه أقطارٌ وبلدان
 وأين قرطبة أم أين جيان
 ونهرها العذب فياضٌ وملآن
 أسدٌ بها وهم في الحرب عقبان
 كأنها من جنان الخلد عدنان
 عسى البكاه إذا لم تبقى أركان

تبكى الحنيفة السحاء من أسف
 حتى المحاريب تبكى وهي جامدة
 على ديار من الإسلام خالية
 حيث المساجد أمست كنفاس ما
 كما بكى لفراق الألف هيلان
 حتى المنابر تبكى وهي عيدان
 قد أفتوت ولها بالكفر عمران
 بين إلا نواقيس وصلبان

ياغافلا وله في الدهر موعظةٌ إن كنتَ في سنةٍ فالدهر يقطن
وماشياً مرحاً يُلهمه موطنه أبعدَ حِصصٍ تُعزُّ المرءَ أوطان
تلك المصيبة أنست ماتقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان

يارا كبين عِتاقَ الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوفَ الهند مرهفةً كأنها في ظلام الليل نيران
ورائعين وراء النهر من دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أمر أندلس لقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث صناديد الرجال وهم أسرى وقتلى فلا يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام يبنكو وأنتمو يا عباد الله إخوان
ألا نفوسُ أيتات لها هم أما على الخير أنصارٌ وأعوان
يامن لنصرة قومٍ قسموا فرقا سطا عليهم بها كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في قيود الكفر عُبدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
فلو رأيت بكاهم عند يمهمو لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يارب طفيل وأمّ حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وغادة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العليج عند السبي صاغرة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يدوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

الأمم الإسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد علي باشا حذت حذو الدول الإسلامية القديمة ، فكان فيها الإسراف والتبذير ، والفناء والحرق والغزق ، فهي مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الإنجليز مصر تلك الديون التي ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد علي باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تتنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، فقد كان في اصلاحاته كما يقول البارون دي مورسي « كالباقي الذي أراد أن يبني بيتاً يكلفه مالا طاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الأوروبية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يعجز المدين عن سداد دينه » (١)

ولا ريب أنهم كانوا يعيرون اسماعيل باشا المال بأفحش أنواع الربا ، وقد وضع كاتب انكليزي (سيموركي) في سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقي (أي المبلغ المستعار حقيقة) بفائدة ٦ في المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمي لا يقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون أنهم يحاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نديراً لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن (روتشلد وأوبنهايم) وغيرها من أصحاب رؤوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة في انكلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان في عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخل فعلياً منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون في الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انكلترا تحول دون حل المسألة حلا مالياً ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضماناً للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد

(١) هذا منقول من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن منقول من كتاب كشف الستار عن سر الاسرار تأليف عرابي باشا

كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كما سنحت الفرصة إرسال أخصائين سياسيين في زى ماليين لاصلاح الأمور من جديد وايقاف الحاكم المستبد عند حده . وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التي كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب في شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضعت نية القوم قلق المصريون على مستقبلهم اه . وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتى :

سر مكنون

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوى السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث أقلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولى (نهر من نغور إيطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوى توفيق باشا بحضور خيري باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الايبارى إمام المعية في أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية في شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : (ياليتك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها) . ولما وصل الخديوى اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوى توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فضمه والده ثم قال له : (لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تسكون يا أعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر الآل برآ . واعلم أنى مسافر ، وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك ، وكن أسعد حالاً من أهلك ، وكان من أشد المناظر تأثيراً في النفوس منظر العبدان والجوارى وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهد أرواحهم حزناً وغماً ، ثم سار

القطار الخصوصي حتى وصل إلى الاسكندرية . إنتهى ما أردته من الكتاب المذكور هذا ولقد سمعت أن عائدا ألمانيا ألف كتابا وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه هذه نسخة من حياة أمم الاسلام قديما وحديثا . فقال صاحبي : وماذا تريد من أمم الاسلام المستقبلية ؟ قلت : أمم الاسلام المستقبلية ستكون غير الامم الاسلامية الماضية ، هذه الأمم التي بعدنا سيدرس رؤسائهم ما كتبناه في كتبنا وفي هذا التفسير ، وما كتبه الكتّابون في زماننا هذا وهوزمن النهضة الحقيقية الاسلامية وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الاسباب لاستكناه علم التاريخ تحتص به جماعة في كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون في السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة في التاريخ وتكون هناك جماعات جماعات في سائر العلوم والصناعات ، هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الامراء من بينهم لمدة معينة كخمس سنين أو عشر سنين أو نحو ذلك ولا يراعى في ذلك إلا قوله تعالى « وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشا وهو وأمنه أعزرها من الامراء الآخرين فهو حتما الذي يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون في المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكتّابون في الاسلام

المبحث الثالث

في حال المسلمين في عصرنا الحاضر

لقد مر بك أيها الذكي في المبحثين السابقين ما كان من شأن المسلمين ارتفاعه وانحطاطاً سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً إذ يقول (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

ساق الله هذه الآية من قلب الصحراء لتكون نبراساً للناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور فم ذلك ولكن بعد قليل من الزمن أخذوا يقلدون القياصرة والأكاسرة وتناسوا عهدهم الأول من عزمهم ومجدهم وبأسهم وأخذوا يقتتلون على الخلافة وجهلوا

أن الله عز وجل لن يسلم قيادة الأمم إلا لأقوام يحلون من عبادة محل الشمس والنجوم من عبادة بحيث يسوسونهم ويحفظون على كيانهم ولا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً وإنما يكونوا خلفاء الله عليهم كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده فكانت الدنيا في قبضتهم وهم فيها زاهدون فأما الأمويون والعباسيون وأهل الأندلس وغيرهم فأنهم أخذوا يتدلون انحطاطاً كما تقدم إيضاحه وإياك أن تعجب أيها الذي بما أقول الآن وهو أن الله لا يملك عباده إلا للمخلصين في خدمتهم الخ ما تقدم فإن لي عليه دليلين دليلاً دينياً ودليلاً علمياً

أما الدليل الديني فذلك أن الله يقول (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وهؤلاء الصالحون هم الذين يسلم المسلم عليهم كل يوم في صلاته فيحیی ربه ويسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين أما تحيته لله فإنه هو النعم وأما تسليمه على النبي صلى الله عليه وسلم فلا أنه هو الذي نتج باب الخلافة الصادقة ورق الإنسانية مع زهده في مالها

وأما السلام على عباد الله الصالحين المذكورين فذلك أنهم أمثال أبي بكر وعمر يريدون السلام في الأرض ولا مطمع لهم من القيام بخدمة عباده

لإسلام في الأرض إلا حيث تكون الشورى والنشورى قام بها صاحب الرسالة وخلفاؤه الراشدون فهؤلاء هم الصالحون الذين يورثهم الله الأرض وقد ورثوها فعلاً كما تقدم فأما ملوك الإسلام الذين سمو أنفسهم خلفاء فإنهم لم يريدوا غالباً إلا الملك ومن لم يرغب من الملك إلا المال فستحيل صفاء العيش له ولا بد من ذهاب دولته عاجلاً أو آجلاً فلذلك ذهب الملك من أيديهم بعد أن جهلوا ما جاء في قصة فرعون إذ استشار الملائكة حوته في أمر موسى فقال لهم إن هذا ساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمروا

وقصة ملكة سبأ إذ قالت يا أيها الملائكة أفوتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى

تشهدون

جهلوا ان للقرآن عجائب في قصصه يذكر القصة ويدخل فيها كل ما يفتن له العقلاء كما فطن جميع المسلمين لمسألة وأد البنات في غضون آيات كلها تذكر بيوم القيامة من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار الخ وهكذا حتى ذكر المؤودة ففهموها وعمل بها جميع المسلمين

أما الشورى التي وردت في بلاد مصر واليمن فأنهم يعرضون عنها لحلاوة الملك وغلبة

الشهوات

كأن الله يقول أيها المسلمون ألا تحجلون إذا أخبرتمكم أن مصر في افريقيا واليمن في آسيا (وهاتان القارتان أهم ممالككم!) كانت حكوماتهم قوية وهمهم عليهم وعليه وكان لسبباً ولمصر حكومات عظيمة أفلا تكونون أنتم أولى بالشورى منهم وإذا كنت أهلكت الاثنين لانحراف في أعمالهم فأنتم أحق بالهلاك منهم وزوال مجدكم وتسليط الأمم عليكم وقد تم ذلك

جهل المسلمون المتأخرون هذا كله واستبدوا بالناس فأزال الله دولهم ثم أخذت الفرنجة تجوس خلال الديار وأحاطت بنا من كل جانب حتى صار جيلنا هذا في القرن العشرين ولقد امتحن الله الفرنجة كما امتحن أمم الاسلام وقد مكن الله للفرنجة في أرضه فاحتلوا ديارنا أجل احتلوها ولكني أقول وأنا واثق مما أقول أن الفرنجة قد ولي شبابهم وأدبرت أيامهم وهذا أوان طردهم من بلاد الشرق

ذلك أنهم احتلوا بلاد الاسلام لمصلحتهم هم أنفسهم وقد قررنا أن الملك لا يدوم على هذه الحال كما لم يدم لأسلافنا لما كان هذا رأيهم

الله أكبر إن الله يقول (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) وها نحن أولاء مستضعفون في الأرض فلا بد من ارتفاع شأننا عاجلاً هذا هو الدليل الديني أما الدليل العلمى فما هو ذا العلامة لوثروب ستودارد (Lothrop Stoddard)

يقول في الجزء الثاني صفحة ٧١ وما بعدها ما نصه بالحرف الواحد :

قال الحجة الثقة أرمنيوس فامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق

سائر اديان العالم شورى وديمقراطية — الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فإن كان العالم قد شهد حقاً منذ أن عهد انعمان البشرى إلى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهي لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين . وقال محقق انكليزي كبير^(١) خير في شؤون الشرق الأدنى :

« إن بلاد العرب التي يضرب فيها البدو الرجل هي البلاد الفذة في العالم المشتملة على صحيح الديمقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم^(٢) يذودون عن

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) ليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكم وأمرائهم كما تتخاضع لأمرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم بالألقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم إلا بمجرد اسمائهم . وإنما كانوا في أيام الخلفاء بدوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لا غير . فكل ما دخل في العربية والعرب من القاب التعظيم والتفخيم إنما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال البادية — إلى يومنا هذا — ينادون شيوخهم وأمرأهم بمجرد اسمائهم ، فإذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : يا أبا فلان . هكذا يخاطبون السلطان ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل ابن الحسين مؤخراً وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : يا أبا غازي . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هي الديمقراطية الصحيحة . وكانوا في العصر القديم يقولون لعمر ابن الخطاب وهو يخطب : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفنا » . وكان الأحف يقول لمعاوية : « والله يا معاوية ان السيوف التي قاتلناك بها هي في اعقادها » . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين : فقال أيها الناس اتقوا الله . فقام إليه رجل من عرض الناس فقال له : أذكرك الذي ذرتنا به . فأجاب الخليفة : سمعا سمعا لمن ذكر بالله

نعم ان كان في الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنجان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لا يزالون فرقاً وحرقات ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم أجابه النجنان : ان الأتاجم تطيع ملوكها من استخدام نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوساً وأحى أنوفاً من

سياجها بشفار سيوفهم ومنهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش نبتة الاستبداد » وقال العلامة لبيار^(١) في شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة إنما ذلك وهم شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت توافقة إلى إنشاء الحكومة النيابية وعلى جانب عظيم من الاستعداد لذلك . أجل ثم جل ، إن النظم الشرعية والمدنية التي كانت عليها تركية إنما هي أفضل أس يشيد عليه

أن تطيع ملكا ، بل تجدد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الأصلية في تحاسد هذه الأمة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض مما آل الى فقدها الملك العظيم الذي كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التي كانت آفة على سلطان العرب في كل مكان ، والسبب في وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الأندلس وغربى أوروبا إن العرب لم يجتمع كلماتها الا بدعوة دينية هي دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديمقراطية بما في الاسلام من سنن المساواة والأخاء والحرية . قال عمر ابن الخطاب : لسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفى قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودرية لرماحنا ، ، ومرمى لطعانا ، وتبعا لسلطاننا ؛ بل نحن في نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمره حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

وأما المشاورة فالي اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لا بل فرض أوجه الله في كتابه قال تعالى : « وشاورهم في الأمر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم . والخلفاء الراشدون يعملون كل شيء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه : « ولكن الأبرام بعد التشاور . والصفقة بعد التناظر لذلك جميع الحكومات الاسلامية هي شورية ديموقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها عارض ومن جعلتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

شكيب أرسلان

(١) A. H. Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

الحكم النبائى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلاميه يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترنى بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلاميه هى ديمقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذاً أن تتمكن الشعوب الاسلاميه ، كافة ، حتى أبعدها إغراقا فى التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النبائى « ثم بين العلامة لبيدار فى موضع آخر ان السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة ، وإمداده بالمشورة الحكيمه . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلا حتى أنشئ فى العهد الأخير مجلسان الأول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء^(١) زد على هذا انه أنشئ مجلس نواب مرتين الأولى فى سنة ١٨٧٧ والأخرى فى سنة ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الحيدى فقد كان على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النبائى . وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب ألا يعتبر إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلاميه . بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف . كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج

(١) كنا مرة نطوف فى قصر طوب قبو (مقر السلاطين فى الاستانة قبل بناء طولمه بفجه ويلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراءه كل يوم للنظر فى أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم فى هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأخدم . فدخل مرة زعيم قادم من الأناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكارمز كيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لا تزال الى الآن .

شكيب ارسلان

به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب .

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شطر الأميركي ليقوم بتنظيم الشؤون المالية في بلادها فلم يطل مقامه في فارس إلى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الإداري الكبير مبينا استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسي لإنشاء النظام الدستوري وهو متفائل في ذلك كل التفاؤل

« إنى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيباً لأمة مثل ما يحوى من ذلك للأمة الفارسية التي انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة إلى دور الحكم الدستوري النيابي ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يهل على أن أمة ذات مقام عال في الحكمة السياسية وفي معرفة أصول الاشتراع إلى حد يكاد لا يصدق^(١) ، أما أعضاء المجلس النيابي الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشئ المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً في تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله في حرز حريز من طوارئ الاستبداد . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع ما يستونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء

« وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى أعرف أعضائه معرفة شخصية صحيحة فما كان على كل حال ليعد في رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الأميركى . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، في بلاد استطالت رقدتها أجيالاً ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدير أمورها على نمط تضاهى به الحكومات التى انقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقاً . لا ينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج إلى كثير من المعارف الاكتمائية في كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة . بيد أن الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف

(١) ومن في الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسية واستعدادها للرقى ، وهى الأمة المتمدة منذ آلاف السنين التى أوتيت في العلم والصناعة مواهب قلباً وهبها الله أمة

معتبراً هو أن هذا المجلس النيابي الفارسي يمثل حقاً رأى الأمة الفارسية ، وبه نواة جميع أمانيها ومبتغياتها التي تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم ، والرأى السيد والشجاعة الحدة . يحنون أضلاعهم عنى قلوب تنصرم اخلاصاً ووطنية يبحثون بجد وعزم فى كل مقترح وطنى وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص فى الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية ، وإذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخالص بمحضونهم الود ويحملونهم موضع ثقتهم ومحققى آمالهم ، ويفوضون إليهم أمور التنظيم ، هذا إذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكاييد السياسية والرشوة ومبادلة الأمة الفارسية الود والاخلاص . والصدق فى الأقوال والأعمال

وليس من العدل ولا الانصاف فى شىء أن يقال أن المجلس النيابى الفارسى قاصر عن المجازاة الحقة فى ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الأزر وأتمته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يتغنى جواز نطاقها بغير حق ، وأعضاؤه أبدأ على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة فى سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها وإعلاء شأنها .

أما الأمة الفارسية فليست على مستوى تناوله صفة عامة . فالسواد الأعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة فى الممالك الراقية فيعدون بالئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والأخذ عن الحضارة الأوروبية . وهم هم الذين قاموا بذلك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديمقراطية خفاقاً ، بعد أن ذلوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدي الحكومة التي أنشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفؤ من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير

لارتشاف العلوم والترقى خلال السنوات الخمس الأخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وأنشئت الصحف الحرة فانبرى حذاق الكتاب شارعين أقلامهم يهدون الأمة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر في الأمة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشئ على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والأدبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الأمة بأسرها بتلك الروح الاسيوية التي ألهمت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة إلى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً في انشاء الجمهورية الصينية «

ثم أنهى المستر شصطر كلامه قائلاً : « قد صاح السكاتب الأشهر (رديارد كينغ) ناضحاً مراراً أن الشرق لن يطبق بعد المناخس معاملة في جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوما مقاومة رجعية عظيمة ، ولكن باستطاعة رجال الغرب ، إذا تدرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الأوربية الصحيحة أن يسترعوا الشرق في سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون أن ذلك هو خيرهم ومصالحهم . على أن الحق الذي لا يمارى فيه أن روح التضامن الأدبي والعزة القومية والعصبية الجنسية لجميع ذلك قد غدا شديداً في الشرق شدته في الغرب . فبات الشرقيون بسبب ذلك صعب المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا ما دامت أوربة سائقة لهم في سبيل واحد غايته ابتزازهم لملء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها^(١)»

حقاً يعتقد كثير من الأحرار الغربيين أن التسلط الأوربي ليس من شأنه أن يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتي والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهما كان^(٢) بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار أن الطريقة الوحيدة

(١) Shuster كتابه : The Strangling of Persia

(٢) جميع المسيطرين الأوربيين في الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهودهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدنيوى وأن يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون الفنون التي فيها . وإن ما جاهدته مصر في أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف

امثلى التي اهل الشرق احرى بتعليمها والتدريب عليها ، هي أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرج ذاتها بذاتها اعليه ، وقد أجد «ايونن كرتس»^(١) الكاتب الانكليزي الدافع الصيت أينا إجابة في جلاء هذا القول ونصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً لقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطراً كبيراً و بلية إيجابية . ما لم يقرنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعها شيئاً فشيئاً ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافي حيز النظر والتصور والخيال . » قد يقول بعضهم اني لجوج في طلبى الذى بينت فيه انه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلا صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حصة إلى هذه الحكومة الفتية وان يوطعوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لاعطف الظئر المأجورة التى سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ماأريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتى يجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالاغلال من ناحية أخرى . فان لم يكن هذا ، فليس من سبيل إذاً لهذه وتكثير المدارس يعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المختلون يقيمون فى وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . أما فى الجزائر فابقا الأهلين فى الجهل وحرمان أطفالهم من الكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك .

(١) كتابه : «رسائل الى الهند فى شأن الحكومة النيابية . (لندن ١٩١٨)

Lionel Curtis, " Letters to the People of India on Responsible Government ,,

الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بأنها مسؤولة لدى الشعب الذي هو من ورائها حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذلك ليدراً عنه . نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذي يتبعى بملء ارادته حكماً ذاتياً لا يتسنى له الوصول إلى غرضه السامى وغايته الكبيرة إلا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأ نفس وتركب الأهوال وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

إنى لأفخر فخراً كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع ، من أنشاء النظام وثبتيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لا أعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد ، دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص .

يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن تقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لا يتم إلا إذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل إلى نطاقهم تقلاً مزداداً . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوساً على المقاعد لا وصول إلى الغاية التى بينها حديثنا وزير الهند^(١) إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ،

(١) إشارة الى الغاية الميينة فى تقرير موتاغو - شلمز فورد من منح الحكم الذاتى .

والانتباه، إلى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الانتقام مع ما هو معروف لنا من التقاليد .
وأما ما بقي أماننا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان في ذلك
بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في
سائر الأقطار الشرقية . إن الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى
تركتها لظي شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا
مقبض أوربا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال . وسواء
كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتخلص الظل أمر واقع لا مرد له ولا مدفع
مما يدل على أنه لن ينتضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول
الاسلامية في الشرق الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام
لا عيب فيه . أما التساؤل أتسىء هذه الشعوب التي ستصبح حرة اغتنام الفرصة ،
فتعود تتعمر معائر الاستبداد والنفوضى ، أو تفلح حقا عالية الجبين في إنشاء الحكومات
الديموقراطية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ، ذلك أمر سيكشفه
المستقبل . وإذا قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق التطور السياسي ،
سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقفة في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين
تقلبها المستمر في هذا الدور دور التحول انتهى

ويقول في الجزء الأول صفحة ٢٨ وما بعدها مانصه :

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان . فبعد أن
ركبت أوروبا متن البحار ، صارت تستهزئ بجبايرة آسية وعتاتها ، وكانت من قبل
يردح توى النصر عليهم أبعد متالا من الجوزاء . ثم أخذت موارد الثروة تفيض على
أوروبا من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها . ولا يعجزن من ذلك
بأوربة قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لانفاذ لها .

غذاء طيباً لحياتها وصناعاتها ، فباتت والشرق شتاناً ماها . فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم ، ازاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دينبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدتها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجيابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطياً ، وقابضة على طلسم العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامي جامداً ساكناً ، ملتفياً بخلق الحضارة العربية التي طال على خواتمها الأمد ، ومتسكماً في ديمجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستفرقوا في انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجارة أوروبا اختراعاً وارتقاءً ، ولا تحسين فن فنون القتال . وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فملت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد انه لما أغار الترك على أسوار « فينة » سنة ١٦٨٣ م . فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك أما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولو لم تؤرث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضاً ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهد .

ثم توالى الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر ، فتماثل في مهجعه مستقلاً وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ، وتخضع لها الأقطار ، في شرقي أوروبا وجزائر الهند ، واما جل العالم الاسلامي ومعظمه ، من مرا كش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً في هججته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبا ، راضياً مسلماً ان شقائه انما بمشيئة من

الله ، لا يقيم لرقى أوروبا وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقظ استيقظ في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها العاشمتين الطيبة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربيه جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الاسلامى ، أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر فى أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسا شمالى أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق للغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتم أخضاع العالم الاسلامى — ولكن على القوطاس ! !

أجل ، تم ذلك على القوطاس فحسب . والسبب فى ذلك انه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامى طيلة هذه المئات من السنين التى كرت عليه وهو هان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى أن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

(١) نعم كانوا يعلمون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسادهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الإدارة

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى فى إيلام الشرق مفاولة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامى حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراناً عجيباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهب الـ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من اتباع النبي محمد (١) ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكنفو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها . قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها أن ترقى واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحولات فى العالم الاسلامى منصوره على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبتث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب فى كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعته لغيره من المؤلفين الأوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاءات جرت منذ عشرات من السنين ، مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الأثناء كثيراً فالعلامة نانسى الألمانية كان يحزر مسلمى أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون يحصون مسلمى الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٢٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ إلى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٢٥ مليوناً وكثيرا ما يحصونهم ٣٠ مليوناً وهم جرا .

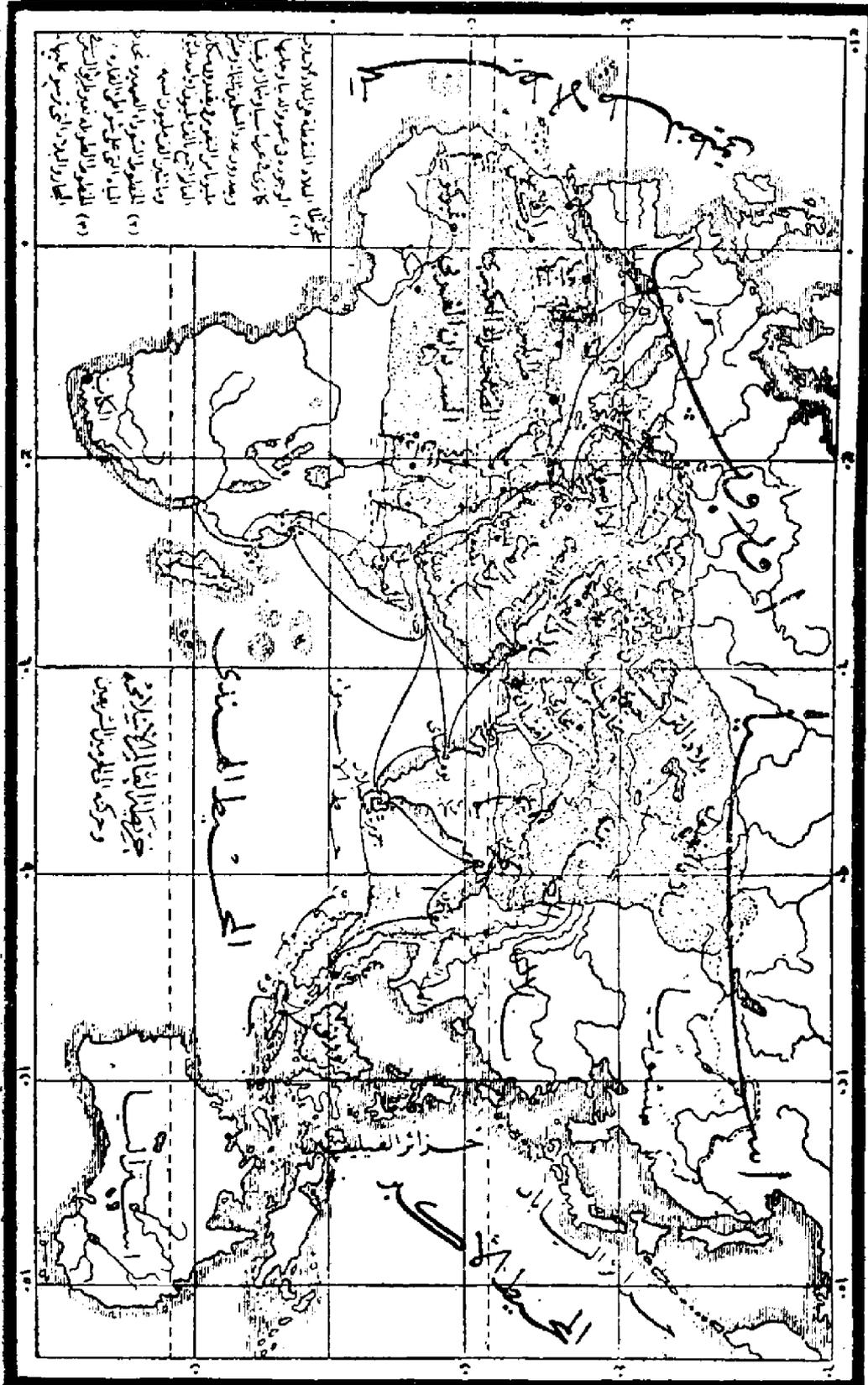
شكيب ارسلان

فتوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدة التضيق الأوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حداً يزيدان فى هيجانه فيشملان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يميد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غاية تجدد عالم اسلامى حديث . ولييان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . . انتهى ماقلناه من كتاب حاضر العالم الاسلامى

﴿ تذكره ﴾ ما ذكرناه هنا قليل ملخص من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن وكفى من القلادة ما أحاط بالعتق ومن وجد فى وقته سعة وفى صدره انشراحا لازدياد المعرفة فى هذا المقام فعليه بما كتبناه فى سور مختلفة كما فى سورة ابراهيم عند قوله تعالى (وذكروهم بأيام الله) وعند قصة ابراهيم فى آخر السورة وفى سورة النحل عند آية (إن الله يأمر بالعدل الخ) وفى أوائل سورة الاسراء فهناك مقال فى المسلمين بالأندلس قبيل آية (وقضى ربك الخ) وفى سورة الكهف عند آية (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وفى سورة طه عند آية (وقل ربى زدنى علما) وفى سورة الشعراء عند آية (السحر) وعند آية (والشعراء يتبعهم الغاؤون) وفى سورة النمل عند آية (إن الملوك إذا دخلوا قرية الخ) مع آية (فتلك بيوتهم خاوية الخ) وفى سورة سبأ عند آية (محاجة الضعفاء والذين استكبروا) وفى سورة ص عند آية (ياداود إنا جعلناك خليفة الآية) وهناك مواضع أخرى هامة وفى سورة الشورى عند آية (وأمرهم شورى بينهم) وفى سورة الاحقاف عند آية (أذهبتم طيباتكم الخ) وهناك فى بعض سور الحواميم التى ذكر فيها أن القرآن عربى مقال مسهب يخلص العرب فى زماننا ويحتم الوحدة ويبحث فى تاريخهم

وهكذا فى سورة فاطر عند آية (ألم تر أن الله أنزل الخ) مقال عن الجراد وانه

يهجم كل سنة على البلاد ولا يصد عنه الاتحاد صاد . وهذا درس للامم العربية
أن يكونوا متحدين انتهى الفصل الاول



(خريطة العالم الاسلامي)

الفصل الثاني

في السعادة والاختيار والعمل والتوكل

للإنسان ثلاث قوى شهوة وغضب وعقل ورسَلها إلى العالم الخارجي أخواس
الحس وخزائنها قوى الدماغ الحس وله مع كل قوة من هذه الثلاث ميل إلى ما يلائم
ونفور عما لا يلائم فالميل إلى الملائم والنفور عنه في الغضب والشهوة نسميه اراده وفي العقل
نسميه اختيارا وهو الذي عليه مدار السعادة الانسانية اذ به يمكن التسلط على الشهوتين
الآخرين باضعاف ارادتهما ومحو خروجهما عن سنن الاعتدال بلا إفراط ولا تفریط ويكون
بهذا الاختيار السعادة ويكون به الشقاء فاية أمة كان اختيار عقلائها أميل إلى الكمال
وأحرص على السعادة كانت هي سعيدة وبضدها تتميز الأشياء

والسعادة يدور أمرها على كمال النفوس الانسانية أشخاصا وأما فسعادة الشخص
تكون بكمال العقل وصحة البدن والجاه وتوفر الأموال^(١) إذ الموجودات التي نشاهدها
لا تخرج عن هذه إذ الكائنات إما أرواحنا أو أجسامنا أو خارجه عنا والخارج إما
إنسان وإما غيره ونعبر عنه بالأموال وترتيبها في الشرف على حسب قربها وبعدها
من العقل فالأموال أدناها وأرقى منها الجاه ويليها الصحة التي بها يترن العقل والعقل
وعلومه هو نهاية السعادة فكل ماعدها مقدمة له ولا يكمل إلا بمعرفة جميع أنواع
العلوم العقلية والنقلية التي يجمعها ثلاثة أقسام وهي إما أن تحتاج إلى المادة في الخارج
والذهن وهي العلوم الطبيعية وإما أن تحتاج إليها في الخارج دون الذهن وهي الرياضية
وإما أن لا تحتاج لها فهما وهي الالهيات وثلاثة عملية وهي علم الأخلاق وعلم سياسة
المنزل وعلم سياسة المدينة وهذه الثلاثة تكفلت بها الشريعة المطهرة وأرشدت إلى الثلاثة قبلها
صريحاً وإشارة ورمزاً أخرى فهذه هي طرق السعادة ولا يمكن إلا بالاختيار الناشئ عن الشوق

(١) هذا الرأي مأخوذ من كلام الامام الغزالي في الأحياء وهو مبني على كتاب
ارسطاطاليس في الاخلاق وقد نقلناه في سورة فصات عند آية ان الذين قالوا ربنا الله
الخ وعليه اعتراض وجيه فتدبر

المسند إلى العقل وأى أمة كان اختيار أفرادها يغلب عليه السعادة كانت سعيدة وإيماناً تقاعس أفرادها عن اكتساب السعادة انحطت إلى دركات الهون واعلم أن روح السعادة إذا سرت في الأمة أثرت في أفرادها تأثيراً حسناً وإذا تقلصت تلك الروح خمدت نيران أشواق أفرادهم ومعاشرة الإنسان لقوم هي أس سعادته وأس شقائه ومبدأ جنته وناره فالوسط يؤثر تأثيراً بينا ولما كانت الروح ألطف من النار بل أكثر سرياناً من الكهرباء كان تأثير المعاشرة على الأخلاق أشد من تأثير النار فيما جاورها أو الكهرباء في المعادن وهذا هو السر في مشروعية الهجرة من بلد الكفر والجهل وهذا مبدأ ارتحال العلماء من بلد لبلد وأسفارهم إلى الديار القاصية لعلمهم ان الآخرة ليست شيئاً سوى ثمرة هذه الحياة ومتى كانت الحياة الدنيا مع من لا يعرفون طريق السعادة قلدتم الانسان بالمعاشرة وكانت سعادته الأخرى على حسب الدينوية إذا أكثر الناس يفهمون أن المقدمة للسعادة سعادة فالملل والأهل والأصحاب والزوجة والأولاد والوظائف والرتب وعلو الجاه هي نهاية السعادة عند الكثيرين ولكنها عند الخاصة من العلماء مقدمات للسعادة لأنفسها فكأنهم يجعلونها سلماً إلى رقى عقولهم الباقية بعد موتهم إذ هم يفهمون من قوله تعالى إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ومن غيرها من آيات ذم الدنيا والأحاديث وكلام العلماء والزهاد أن هذه يقصد بها أنها ليست مقصداً قط للعلماء ومن جعلها مقصده فهو من الانعام بل هو أضل وإنما تكون وسيلة وعلى ذلك يحمل كل مدح للدنيا وجميع أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الناموس من هذا القبيل فكانت أخروية بالقصد وإن كانت دينوية بالعمل مثل اتخاذ الأزواج والمآكل والمشارب وغير ذلك

وبالجملة تكون تلك الأموال منصرفه إلى المنفعة العامة دون الخاصة وهذا هو مقصود الشرائع السماوية بأكملها حتى تستعد الأمة بأغنيائها وعلماؤها ويتعاونوا على البر والتقوى

الكلام على العمل والتوكل

علمت من هذا أن الشرع لم يأت قط بترك الأعمال وإنما جاء بالحث عليها إذ هي رقى المدنية والتوكل عمادها فليس التوكل ما يفهم قوم من العامة من أنها ترك الأشياء للمصادفة تجرى على غير نظام ولا سنن معهود وترك الأشياء ناقصة بلا ترو ولا اكمال عمل كلا ولنشرح التوكل بأوجز ما يمكن مع استيفاء البيان ولنقدم مقدمة فنقول :

قضى الشرع وحكم العقل ان مدبر الكون لا يكلف نفسا إلا وسعها ولذلك ترى جميع هذه الكائنات تجرى على هذه القاعدة فكل من أوتى فهما وتمييزا وعقلا وأعضاء فبقدر ما أعطى يكلف العمل وهالك البيان

ترى الطفل في بطن أمه لا إرادة له ولا اختيار ولا قوة يبطش بها فتأمل كيف لم يكلف في بقاء حياته ان يأكل بضمه ولا يتناول شيئا بيده ولا يدبر لنفسه تدبيراً ولا يستنشق الهواء حتى يحيا في بطن أمه وإنما أتاه عرق فيه دم يجرى متصل بالسرة يتفرع الى جميع اجزاء جسمه من دم الحيض ولذلك ينقطع أيام الحمل فاذا خرج من بطن أمه فتأمل كيف كاف بالهام من مدبر الكون أن يفتح فمه ويمسك بيديه ثدى أمه ويستنشق الهواء بأنفه وفمه وسهل له ارتضاع اللبن في ثدى المرأة ولم يكلفه أكثر من ذلك بأن يسعى إذ لا طاقه له فاذا فطم أخذ يسعى على رجليه وكاف مضغ الطعام بالأسنان والقواطع التي تحدث له ويكلف بالأطعام العمل بمقدار ما أعطى ويتناول الطعام بيده ولا يزال تزايد قواه العقلية والبدنية ويزيد تكليفة بالأعمال كالصنائع وتعلمها والدروس وفهمها الى أن يصير رجلاً يلزم بتدبير منزل أو أمة بأسرها هذه هي سنة الكون ونواميسه ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فتأمل كيف طابق الكلام هذا النظام اذا فهمت هذا فلنبين معنى التوكل فنقول

المتوكل فيه إما أمر مقطوع به وإما أمر مظنون وإما موهوم فالأمر المقطوع

بها والقريبة منها كاستنشاق الهواء وإدخاله الرئتين لإصلاح الدم وتناول الطعام باليد وإدخاله الفم واستعمال الملابس لوقاية الحر والبرد والمساكن فكل هذه يقطع العقلاء بنتائجها عند الاستعمال وبضررها عند التترك والمظنون تفعلها جميع الأعمال التي لها نتائج عند غالب الناس وقليل لا تثمر وذلك جميع الأمور التي تقوم بها الممالك من الزراعة والتجارة والصناعة والأمانة وينتج عنها سياساتها بالسياسات وبناء القلاع وإصلاح الجيوش وعمل الأسلحة وكل ما به نظام الأمم والممالك وإصلاح الأشخاص وشؤونهم في داخل الممالك وخارجها بالطرق المألوفة المعهودة عند الناس فهذان القسمان وهما المتطوع به والمظنون يكون التوكل فيهما راجعا لصرف القلب الى مدير الكون في انتاج الثمرات وبقاء تلك الأدوات وأن تكون الأعضاء صحيحة إذ هو الذي يقدر على إبقاء تلك الأعضاء وإنتاج تلك الثمرات فلا يعلم ما ينتج من تلك الأعمال إلا هو ولا يحفظ الأعضاء إلا هو فيكون المقصود من التوكل إذن إنما هو القوة على العمل مع استيفاء شرائطه العقلية وأدواته العملية وإخلاصه ظاهرا وباطنا فتكون الأعمال جارية على النواميس المعهودة والعقول ملتجئة الى مدير الكون هذا هو المقصود من التوكل وكم ورد في القرآن من مدحه لأنه أقوى نصير على العمل قال تعالى في قوم موسى « وقال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » فتأمل كيف جعلوا التوكل معينا على العمل وتقوية العزيمة لا كما يزعمه كثير من الجهلة إنه ترك الأمور الى المصادفة

فكلف الإنسان بالعمل العقلي تدبيرا والجسماني مباشرة على مقدار ما أوتي كما هو مقتضى نواميس الكون كما علمت في مثال الجنين والطفل والشاب وهذا هو المقصود المطابق لما ورد مع الدخول للأمر من أبوابها — أما القسم الثالث فهو الطرق التي لا توصل الى المقصود في غالب الأوقات وإنما يكون توصيلها على حسيب الاتفاق والمصادفة لأنها من غير الطرق المعهودة المألوفة وذلك كل ما ليس سببا للنفع مثل الرقى والتطير والتشاوم وأخذ الأمور من الفأل والاستشفاء بالعزائم وأمور الدجالين وكتابة التمام

وجعل آخر الطب الكى والتصد ان كل أمر لم يكن سببا طبيعيا للأمر فانه خارج عن التوكل ومن سار فيه فقد النفع الدنيوى وخرج عن اسم التوكل فلم ينل دنيا ولا ديناً وليس لهذا المعنى أجمع ولا أخصر من قوله صلى الله عليه وسلم « سبعون الفا من من أمى يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فجعل الرقية والطيرة والكى من الخروج عن التوكل ومعلوم انها أمور نفعها قليل ليست من الأمور الاعتيادية اما الطب فهو الفن الذى يشمر فى كثير من الأوقات النفع فهو من باب التوكل كجميع الصنائع والعلوم وأما الكى فقد كان العرب يكوون المريض اذا يئسوا من شفائه ولا جرم انه ينفع فى أمراض قليلة وهى التى يوافقها انضاج محل الألم وفى الأكثر يضر كما هو الشأن فى كل دواء يستعمل بدون علم فقد يوافق قليلا والأكثر عدم الموافقة إذ وضع دواء واحد لجميع الأمراض جعل محض وكل شىء عنده بتقدير

المتكل على شىء من هذه الأشياء ممقوت فى الدنيا منحوس الحظ لخروجه عن التوكل ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه (من اتكل على شىء من هذه وكاه الله إليه)

نرى العلماء يجرمون تولية القضاء على من طلبه بلسانه أو قلبه وادخلوا هذا مع هؤلاء الدجالين من علماء السحر والطلاسم ويلحق بهم محضروا الأرواح وكاتبوا التأمم إذ هؤلاء جعل الله أعمالهم موقوفة على ما اتكلوا عليه فكأنهم قيدوا أنفسهم فى ذل العبودية لتلك الأشياء

التوكل من يأتى البيوت من أبوابها ومن هذا نفهم قول كثير (خذ من عبد الله وتوكل على الله) ثم تأمل كيف ظهر مما قررناه أن التوكل فى الاسلامية ضد ما يفهمه الناس فيه فعنى التوكل إذن هو اعتماد القلب على الله فى سلامة الحواس والآلات وتتمام الأعمال مع استيفاء ما يقتضيه العقل والطرق المعتادة المألوفة قال تعالى « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » فانظر كيف قدم

المشاورة مع أصحابه ثم العزم على الأمر ثم التوكل
 من هنا نفهم أن الاتكال على الاخبار بالغيب من القوم الجهولى الأخوان أو
 الأحلام ليس من التوكل فى شىء وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس
 وأقربهم الى علم الغيب فكيف أمر بالمشاورة مع أصحابه ثم العزم بعد ذلك
 نعم إن الاخبار بالغيب يقع كرامة لبعض أصفياؤه وهذا لا ينكره العقلاء وهكذا
 الرؤيا الصادقة كما هو معهود معلوم مستفيض ولكن الرؤيا تحتل التأويل ومثلها كلام
 الصالحاء على أن الرؤيا الصادقة تتبعها الكاذبة فتختلط بها وهكذا الكشف الصادق
 يختلط به الكاذب وهكذا الصادق من الناس مختلط بالكاذب وأكثر الموسومين
 بذلك براءء من الدين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقليل ما هم
 العول عليه فى جميع الأمور إنما هى الآراء الصادقة والعقول وترك الانخداع
 للزخارف والأوهام

كثير من أمراء الاسلام يخذعون بأقوال قوم جاءوا دسيسة من بلاد أخرى
 وافترروا إنما وكذبا على الله فيكون هؤلاء سبب سقوط الأمة كما حصل فى الجزائر أيام
 الشيخ عبد القادر إذ أرسل الفرنسيون رجلا سرا فقرأ علوم الاسلام وادعى الصلاح
 واتبعه أكابرهم وانتهى الأمر إلى أنه أخبرهم أخيراً بأن الفرنسيين سيدخلون فى هذا
 العلم هذه البلاد وكان أمر الله قدرا مقدورا فأنحلت عرى قواهم وهبطت همهم فدخل
 الفرنسيين وسلم لهم العسكر ولبس ذلك الشيخ الفرنسي حقيقه المسلم ظاهرا برنيطة
 ورجع الى بلاده وليست المسألة خاصة بهذا بل وقائعهم كثير جدا أدت الى زوال دول
 وقتل ملوك وما نشأ هذا كله إلا من فهم للشريعة على خلاف وجهها وعلى هذا
 فلتحصل جميع آيات التوكل

من أكبر أسباب إهمال الأعمال ما كثرو شاع من قراءة القرآن لمجرد مجبىء
 الرزق وتكرار السورة مرة أو مرارا على ما يفعله أهل العزائم لقصد جلب الرزق ولعسرى
 أن هذا من أشد الضربات على أمتنا، وذلك أن القرآن مبدأ العلوم ومنشأ الحكم

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون منه الأحكام بمجرد قراءته ثم دونت المذاهب الأربعة في القرن الثاني من الهجرة واشتغل أغلب الناس بالفروع المتفرعة من تلك المذاهب فقام طائفة من الصالحين أخذتهم الحمية على القرآن ووضعوا أحاديث في فضائل السور ليصرفوا الناس عن الخلاف في المذاهب إلى القرآن وحفظه فذكروا له فضائل ذكره الشيخ السيوطي في كتاب الاتقان في علوم القرآن وحكى أن رجلاً وجد أحاديث كثيرة رواها أحد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس فسأله قائلاً أن أصحاب عكرمة لم ينقل أحد منهم شيئاً عنه في فضائل السور مما تذكره أنت . فقال وضعته لينصرف الناس عن فقه أبي حنيفة إلى القرآن وهكذا حكى عن أحد الصوفية في ذلك الزمان مثل ذلك فيؤولاء قصدوا خيراً فجاء شراً فإن الناس انصرفوا إلى القرآن لمجرد التلاوة بلا فهم إذا كثرت الأحاديث جاءت للترغيب في ثواب عاجل أو أجل على مجرد التلاوة ولم يرجع فيها للمعنى واتفق الحفاظ على أن أغلب تلك الأحاديث موضوعة أو ضعيفة ولذلك أصبح القرآن يقصد للفظه دون معناه مما جعل الإسلام لفظاً بدون معنى إلا عند الخاصة وقليل مأمم وأصبح كثير من القراء يتكلمون على مجرد التلاوة وهذا مخالف للعقول ولما في شريعتنا من وجوب السير على موجب النوااميس الكونية في الأعمال والجرى على مقتضى الطريق المستقيم في كل شيء ، وعلى هذا فهذه كلها أعمال تخالف شرعنا وهذا القرآن يجب أن يصرف الناس إليه بالتعقل والفهم ومعرفة ما فيه من الحكم والعلوم

هؤلاء الكاذبون الوضاعون قد أفسدوا في الدين ولم يصلحوا فهم وإن كانت وضعهم لقصد شريف ليسوا بآدرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم في وضع الناموس والعلوم فيحقق أن يقال لهم (نعم السير على بئس العير) وأولئك هم وقود النار كما قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار

الفصل الثالث

توزيع الأعمال على الأفراد وما حكم الشرع في فروض الكفايات

قدمنا ان الامة كالجسم الواحد وكما ان في الجسم رأسا فيها المخ ومركز الاعصاب السارية في الجسم وفيها أيضا الكبد لطبخ الدم والقلب لتوزيعه والطحال والكليتان والامعاء والمعدة فكل هذه كخزائن فيها جواهر تخزنها أولا الى وقت معلوم ثم ترسلها في البدن تأخذ مجراها القانوني فهكذا للامة ملوك وأمراء وعقلاء وهؤلاء منهم الرأس ومنهم الكبد ومنهم القلب فوجب عليهم جميعا أن يوزعوا الاعمال على الامة لكل ما يليق له وذلك أن الله عز وجل ما خلق الخلق وتركهم سدى فلما جعلهم محتاجين لبعضهم جعل لكل طائفة استعداد الامور خاصة بهم وشاهدنا على ذلك ما نرى من ميل كل انسان لحرفة مخصوصة أو علم على حدته أو غير ذلك مما هو مشاهد معروف ثم اعلم أن فرض العلم قسمان عيني وكفائي فالعيني من الفقه ما اشتهر بين المسلمين معرفته من العامة والخاصة مما نص عليه القرآن والكفائي منه ما لا ينص عليه فيه ولم يذكر الا في الفروع أو بعض الاحاديث وهذا هو الواجب على سبيل الكفاية لا على العامة ولا على جميع الخاصة بل بعضهم الذين تقوم بهم الكفاية وهناك علوم وأعمال لا يجب تعلمها الا على بعض الامة كعلم الطب والزراعة والطبيعة والفلك والسياسة والجهاد ورد السلام وصلاة الجنازة وبهذا تعلم ما يقوله كثير من علماء الفروع ان علم الفقه فرض عين على الناس الى حد اجتهاد الفتوى أو اجتهاد المذهب أو نحو ذلك مما تنزه عنه شريعتنا المطهرة فانصرفت اليه أفكار العلماء وتركوا ماعدها مع أن فروض الكفايات كثيرة وهي كل ما يحتاج اليه الامة ومنه جميع الصنائع لاسيما الاسلحة الجديدة والمدافع القتاله وعلوم الطب والزراعة وعلوم الحروب والتجارة والبيطرة والسياحة شرقا وغربا والبرد على مؤلفي الكتب من اعداء الدين وضروب الصنائع المتنوعة والآلات

البخارية وجميع ما يلزم هذه الحياة مضارعة لمن جارونا من الامم فالالاقتصار على فن واحد خروج عن سنن هذا الدين القويم فاذا تركت الامة هذه الفرائض كلها اثمت جميعها وعوقبوا في الدنيا باخزي وفي الآخرة بعذاب النار كما ذكره الشافعي رحمه الله في الرسالة

باب العلم

(قال الشافعي) قال لي قائل ما العلم وما يجب على الناس في العلم ؟ فقلت له : العلم علمان علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله . قال : ومثل ماذا قلت مثل ان الصلوات خمس وأن الله فرض على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت ان استطاعوا إليه سبيلا وزكاة في أموالهم وانه حرم عليهم الربا والزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وان يكفوا عما حرم عليهم منه

(قال الشافعي) وهذا الصنف من العلم كله موجود نصا في كتاب الله جل ثناؤه وموجود عاما عند أهل الاسلام ينقله عوامهم عن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط في الخبر والتأويل ولا يجوز فيه التنازع (قال فما الوجه الثاني) قال : فقلت له ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة وإن كانت في شيء منه سنة فانما هي من أخبار الخاصة لا من أخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً قال . أفتمدون هذا أن يكون واجبا وجوب العلم الذي قبله أو موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه متنفلا ومن ترك علمه غير آثم بتركه أو من وجه ثالث فوجدناه خبرا أو قياساً

(قال الشافعي) فقلت له بل هو من وجه ثالث قال صفه لي واذا كر الحجة فيه وما يلزم منه ومن يلزم وعمن يسقط فقلت هذه درجة من العلم ليس يبلغها العامة ولم يكافئها كل الخاصة ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطوها

وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يخرج غيره ممن تركها ان شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها

(قال الشافعي) وقال فأوجد لي في هذا خبرا وسببا في معناه ليكون هذا قياسا عليه فقلت له فرض الله عز وجل الجهاد في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أكد النفي منه فقال جل ثناؤه ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد وقال جل ثناؤه قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية

(قال الشافعي) أخبرنا عبد العزيز ابن محمد الداروردي عن محمد بن عمر بن علقمة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وقال الله جل ثناؤه (مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَى قَدِيرٍ) وقال جل ثناؤه (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ)

قال الشافعي فاحتملت الآيات ان يكون الجهاد كله والنفي خاصة منه على كل مطبق له لا يسمع أحدا منهم التخلف عنه كما كانت الصلاة والحج والزكاة فلم يجز لاحد منهم وجب عليه فرض منها أن يؤدي غيره الفرض عن نفسه لان عمل احد في هذا لا يكتب لغيره واحتملت ان يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات وذلك أن يكون قصد بالفرض منها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية في جهاد من جاهد من المشركين مدركا تأدية الفرض فله الفضل ومخرجا من تخلف من الأثم ولم يسو الله بينهما فقال تعالى لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْآيَةَ

(قال الشافعي) فقال أما الظاهر في الآيات فالفرض على العامة فأين الدلالة بأنه إذا قام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من الأثم (قال الشافعي) فقلت له في هذه الآية قال وأين هو منها قلت قال الله جل ثناؤه (وكلا وعد الله الحسنى) فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الأيمان وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم كانت العقوبة بالأثم إن لم يعف الله عنهم أولى بهم من الحسنى قال فهل تجد في هذا غير هذا قلت نعم قال الله جل ثناؤه وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى حتى خلف على ابن أبي طالب رضى الله عنه في غزوة تبوك فآخبره الله جل ثناؤه أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة قال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فآخبر أن النفير على بعضهم دون بعض وأن التفقه إنما يكون على بعضهم دون بعض وكذلك ما عدا الفرض في عظم الفرائض التي لا يسع جهلها والله اعلم (قال الشافعي) وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم ولو ضيعوه معاً خفت أن لا يخرج واحد منهم مطبق فيه من المأثم بل لا أشك إن شاء الله لقوله ألا تنفروا يذبحكم عذاباً أليماً قال فما معناه قلت الدلالة عليه أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم ونفير بعضهم إذا كانت في نفيه كفاية يخرج من تخلف من المأثم إن شاء الله لأنه إذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم النفير قال ومثل ماذا سوى الجهاد قلت الصلاة على الجنائز ودفنها لا يحمل تركها ولا يجب على كل من يحضرها كلهم حضورها ويخرج من تخلف عنها من المأثم من قام بكفائتها وهكذا رد السلام قال الله جل ثناؤه وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم القائم على القاعد وإذا سلم من القوم واحداً جزأ عنهم وإنما أريد بهذا الرد القليل الجامع لاسم الرد والكفاية فيه لئلا يكون الرد معطلا ولم يزل المسلمون على ما وصفت

منذ بعث الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا الى اليوم يتفقوه ويشهد الجنائز بعضهم ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف عن ذلك غيرهم فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام ولا يؤثمون من قعد عن ذلك اذا كان لهذا قوم قأمون بكفايته اه كلام الشافعي رحمه الله

وفرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله أى يقصد حصوله فى الجملة فلا ينظر لفاعله إلا بالتبع للفعل ضرورة أنه لا يحصل بدون فاعل وهو يشمل الدينى والدنيوى كالحرف والصنائع وكل ما ذكرناه مما يلزم للمدينة الحاضرة وها أنت ذا علمت أن الشافعى رضى الله تعالى عنه قال : ان الأمم على القادرين جميعا عند الترك وأنت تعلم أن القدرة مختلفة إذ ليس أحد العقلاء . الذين لاجاه لهم كعاقل عظم جاهه كالمملك والأمرء فالأمة الآن كلها مطالبة بجميع الأعمال اللازمة للمدينة الحاضرة ومباراة الارو باويين والمملك أولى بالوجوب وأكثر المسئولية عليهم هم والعلماء الذين لا يعظون الناس بذلك ولا يفهمونهم واجباتهم ولا يظهرون لهم أن هذه فروض كفايات فالحق والحق أقول أن العلماء لو علموا هذه الحقيقة ونادوا بها فى الجماهير لهرع الناس الى تلك الصنائع وعدوها من جملة ما يثاب عليه فى الآخرة ولأصبح الشرق يضارع الغرب ويفوقه

وها أنا اذا أدعوا بكتاب الله وسنة نبيه وكلامه مملك الاسلام وأمرائه وعلمائه الى الى تنبيه أغنياء الأمة وعقلائها الى جميع الصنائع وأن يعطى كل ما هو له أهل من تلك الصنائع حتى لا نحتاج الى ثوب ولا إبرة ولا فأس ولا قدوم ولا مدفع ولا غيرها من الخارج وما دمنا نحتاج الى أصغر شىء كالكبريت الذى يوقد به فنحن فى أثم وحر ج عظيم ومحاسبون يوم القيامة معذبون فى الدنيا بالجهل والتأخر وفى الآخرة بالعذاب المهيين

والذى أراه فى ذلك أن يشغل مملك الاسلام وعلمائه الطوائف كلا بحرفة تنفع الأمة فيوزعون على كل واحد من مشايخ الطرق ما يقدر على تحصيله فلقوم الطب

والجراحة ولآخرين الترغيب في الصلاة ولآخرين الترغيب في الزكاة ولآخرين الترغيب في الحج وغيرهم للحث على صلة الأرحام ولعيرهم وجوب الاتحاد في المسلمين وهكذا ويثنون العلماء لارشادهم فيحضونهم على الصنائع المختلفة والآلات البخارية فهذا كله صار الآن من فروض الكفايات الواجبة لمباراة الأمم المجاورة ومسابقةها ولا ينفع أمة الإسلام أكثر من بث النصح والأرشاد من أهل العلم ولا يوقظ أهل العلم إلا الحكماء المرشدون والعلماء الكبار لذلك يجب على كل حكيم أن ينصح العلماء ويدلهم على تلك الطريقة المثلى ليشتهر القول بين طبقات المسلمين ولا يتكفون الفقه وحده وضياح الزمن فيه فانك قد رأيت من كلام الشافعي رحمه الله تعالى ان الواجب فيه قليل جدا وهي الأمور العامة ولا تخفى على أحد أما ما عدا ذلك ففرض كفاية وفروض الكفاية كثيرة جدا إذ هي دينية ودينية ومن الدينية الوعظ والإرشاد لفنون العبادات والذي أراه في نصيحة الأمة بالقرآن أن يحفظ كل ما ينط به الوعظ في باب مخصوص آيات يعظ بها فية كآيات الجهاد فيه مع فهم معناها وكايات الصلاة والحج وبر الوالدين والأخلاق والحلم وهكذا من يرشد لتعليم العلوم النافعة كالطبيعية يحفظ ما يشير لتلك العلوم منها وسنجعل لهذا بابا نذكر فيه ما يلزم في ذلك

ولما كان مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب واجب على ملوك الإسلام والأمراء أن يتوصلوا لهذا الغرض بعمل المعارض الصناعية في بلادهم ودفع مكافأة والقاب شرف لمن يبرع في فن من تلك الفنون دينية أو دنيوية ليقوم الناس بتلك الواجبات ويم التعليم في أنحاء بلادهم وتنتشر انتشاراً تاماً والاسلامية الآن في حاجة شديدة الى التنشيط فكل من قام بعمل مثل هذا قام مقام نبيه صلى الله عليه وسلم في التأدية على قدر اجتهاده ألا فليغتنم هذه الفرصة العلماء والأغنياء والأمراء (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين)

الفصل الرابع

العلوم التي يجب تحصيلها والصنائع

ذكرنا آنفاً ما قاله الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه وعلماء الأصول من وجوب جميع الصنائع والعلوم على الناس من باب فرض الكفاية فأى أمة قصر رجالها وسكت علماءها على بعض الفروض دون بعض فلتبشر بأنها تعذب مرتين مرة في الدنيا بالتأخر ومرة في الآخرة بالعذاب المهين ولعذاب الآخرة أشد وأبقى فان عذاب الدنيا قاصر على الجسم الفاني وعذاب الآخرة على تلك النفس الانسانية التي لها الدوام واعلم أن الأمم في الدنيا لها وجهتان وجهة الأفراد ووجهة الأمم فوجهة الأفراد الترقى الى عالم آخر ووجهة الأمم ترقى مجموعها ليحوز ابناءهم والمنتسبون اليهم شرفاً وراحة بين الأمم وهاتان الوجهتان عليهما مدار الحياة واليهما يعمل العاملون وفيهما تنافس التنافسون وتغلب الوجهة الأولى على المتدينين والثانية على السياسيين وبينهما ارتباط شديد ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فجميع عقلاء الأمم انما يسمعون في الحياة لأمر دائماً إما بدوام الأشخاص وذلك بالرقى لعالم أرقى وأما بدوام الأمم ببقاء الأجيال المتعاقبة حائزة الكمال في المدنية والحضارة والأول هو بقاء الشخص والثانى بقاء النوع ولعمري أن كلا منهما يخدم الآخر وقد جمع الأمرين الحكمة المشهورة اعمل لاخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . وأقرب منه قوله تعالى فمن الناس من يقول ربنا آتتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق وهؤلاء هم الطبقة السفلى من نوع الانسان التي عبرنا عنها بالأمم الجاهلة ومنهم من يقول ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وهؤلاء هم أهل المدينة الفاضلة التي قدمنا شرحها وأما الذين يقولون ربنا آتتنا في الآخرة حسنة لا في الدنيا فليس لهم ذكر في الآية وهم الأمم المنحرفة الذين قدمنا ذكرهم وقارناهم ومن معهم بمراتب الحيوان وذكرنا أنهم هم الذين يقولون

مت بالارادة تحى بالطبيعة فيؤولاء منحرفون لأهم أزدوا القصد بلا وسيلة ولذلك جاء شرعنا باندئين والدنيا معاً لأنهما ممتزجتان والقصد لا يستغنى عن الوسيلة وإلا هلك الأصل والفرع

وانما لم يذكر هؤلاء المنحرفون في الآية لأن القصد من التنزيل أن يكون ضد الطبع ليتعادلا فدم من اقتصر على الدنيا ليكون ضد الطبع ومدح من اعتدل فيهما لأنه الكمال (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) وأما أولئك فلم يذكروا لأن القصد سوق الأفكار إلى الآخرة وذلك ينافيه فما أعجب حكم هذا الترتيب ثم تأمل كيف ذكر حسنة الدنيا ثم أتبعها بحسنة الآخرة ليعرفنا ان الأولى سلم للآخرة ونفقند بتلك الحكم الزاهرة وتقدم حسنة الدنيا فنقول حسنة الدنيا عبارة عن كل ما يلزم لها من ما كمل ومشارب وتزواج مما به بقاء الحياة فيها والراحة الممكنة مع حسن النظام

ولهذه الحسنة علوم هي بمنزلة الغذاء وأخرى بمنزلة الدواء فالأولى تشمل الصنائع

والزراعات والتجارات

فكل صنعة لجلب القوت كالزراعة والخبز وما يحتاج إليه من صناعات البخار التي بها السقى والحصاد والدرس والتخليص والطحن والعجن والنخل وأجبة ولكل من هذه آلات وعدد يجب الاعتناء بها وعملها وقيام المسلمين بها اذ لا يمكن الحياة الدنيا في هذه الأزمان إلا بها وهكذا الآلات والعدد التي بها الملابس كالآلات الخليج والنسيج والخياطة وغيرها من آلات البناء ولا بد لهذه كلها من قلاع وحصون وسلاح فاذن لا بد من علوم الصنائع التي بها عمل الأسلحة النارية المستحدثة

هذه هي العلوم التي تعدل حسنة الدنيا كالغذاء أما العلوم التي هي كالدواء فهي العلوم التي بها يكون عدم التنازع في الأموال كالبيع والشراء وقسمة الموارث والهبات والصدقات والمناسكات وعدم التنازع في النساء بذكر أحوالهن الشخصية مع الرجال من الطلاق

والرجعة والعدة والخلع وغير ذلك وبها يكون دفع المفسدات لها كالعقوبات الزاجرة كقتال الكفار وأهل البغي والحث عليه والحدود والفرامات والتعزيرات والكفارات فشكل هذه تزجر عن انتهاك حرمة أصحاب الأموال فهذه كلها في علم الفقه الذي هو في الحقيقة كالدواء وتلك الصنائع الدنيوية كالغذاء وأي أمة استعملت الدواء وتركزت الغذاء مات احساسها فكما يموت من يعيش على أكل الصبر أو يحيى حياة لا يموت فيها ولا يحيى فهكذا الأمة التي تقتصر على علم الحدود والأحكام ولا تعرف سواها ولعمري إذا ضعفت المكاسب وقلت حيل الدفع فأين المعاملات والأحكام والحدود وإنما جاء الشرع بهذه العلوم لأن الناس بطبيعتهم ميالون إلى تعبير الأرض فجاءت الشرائع لتهدبهم إلى مابها تعاونهم وتعاوضهم فأما إذا وكلت إليهم وجاء دور جديد للأحوال المعاشية فإنه يأمرهم باقتحام الأخطار لاستدراار الرزق من هائل الغيث ونابت الزرع

وكما إن علم الطب يراد لاصلاح الجسم الموجود فهكذا علم الفقه جاء لاصلاح أمة تعيش ولها ما يكفيها في الحياة فعلم الطب لاصلاح أجسام الأشخاص وحدود الفقه وأحكامه لاصلاح جسم الأمة وتعلم العبادات خصوصية أخرى في تشويق النفس إلى مدبر الكون فهل يعقل أن يحيى جسم ميت فاذا ماتت الأمة بعدم مايفذيها وضعفت معداتها في الحياة من الأغذية التي بها حياتها والأسلحة التي بها تدافع فمن يصح بعلم الطب ومن تجرى عليه نواميس الشرع بل يموت كل منهما بموت الأمة التي هو فيها ومن هنا تفهم قول الشيخ الفزالي (ان العلوم العقلية بمنزلة الغذاء، والشرعية بمنزلة الدواء) هذا هو الذي به تعمر المدن في الدنيا وتبقى الأجسام محفوظة إلى وقت معلوم ومحصلها أمران مابها حفظ الأجسام من الداخل بالتحليل والتركيب وما يأتي لها من خارج من عوارض الجو ومنازعات نوع الانسان وقد قدمنا مافيه الكفاية في ذلك كله

أما مابها صلاح العقول فهي علوم الأخلاق والعبادات وجميع مابها كمال النفس الانسانية من العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وهذه الأربعة هي أمهات الفضائل التي

بها يكون الانسان كاملا في العفة والشجاعة يتخلى عن الرذائل وبالحكمة والعدل يتحلى بالفضائل وتحت الحكمة معرفة جميع العلوم وهي لا تكون إلا للحكام الأمة وكبرائها الذين رضوا بالراحة الفكرية عن الشهوات المحرقة ولهم السلطان على علماء الأمة ينصحونهم ويرشدونهم ويعين على هذه معرفة مآل الانسان ودار الآخرة وصفات الإله وأفعاله فترتبط النفس بمبدع الكون ومن هذا عرفنا ما به عمارة الأرض وبقاء الأجسام وما به تنوير العقول وترقيتها .

وكل من علوم القسامين لا تأتي وحدها بل لا بد من وعاظ يهدون الناس إلى تلك العلوم ويشوقونهم إلى حفظها والحرص عليها بالترغيب والترهيب وهؤلاء يحتاجون إلى فن القصص والروايات الأدبية التي أسها قصص القرآن الشريف بذكر أحوال الانبياء والجبارة والصالحين والكافرين والأمم البائدة المهالكة التي تركت عمارة الأرض للمصادفة فأهلكهم الله بذنوبهم وسنعد لهذا وأمثاله بابا خاصا في هذا الكتاب انشاء الله تعالى وهؤلاء الوعاظ يجب أن يتحروا مواضع النقص في الأمة فكلما رأوا ثلثة أسرعوا إليها فنصحوا ورغبوا فيها ففي مثل هذه الايام يذكرون أن المحبة واجبة بين جميع المسلمين ويعرفونهم أحوال الأمم المجاورة وكيف حصل تفرقنا ويوردون الأحاديث والآيات ويذكرونهم بالصنائع والحرف ويعرفونهم أن لهم على ذلك أجرين أحرا في الدنيا وأجرا في الآخرة وهكذا ولا بد أيضا من علماء الكلام وعليهم أن يكون علمهم على حسب ما اعترى الدين من التشويش فأما علم الكلام الذي عندنا الآن فالصواب تحويره وتهذيب الذي في الأمة الآن فليس له لزوم بالمرّة بل الاشتغال به حرام على المسلمين فان الدين جاءه أعداء كالسيل العرم انحط عليهم من بين أيدينا ومن خلفنا وما بين ذلك فأخذ القسيسون يؤلفون المطاعن على الاسلام وهكذا القاصرون في العلوم الجديدة يظنونها مخالفة له فوجب أن يكون علماء الكلام هم الباحثون عن نفي الشبهة الحادثة وتطبيق العلم على الدين بقدر الشبهة بلا زيادة ولا نقص إذا علم الكلام ليس إلا سلاحا يقاتل به المشوش للأذهان كما إن الحصون والقلاع والأسلحة يدافع

بها المغيرون على الاجسام والبلاد وكما أن السلاح ليس لنا به حاجة إذا لم يكن عدو فكذلك علم الكلام ليس لنا به حاجة إذا لم يكن مبتدع وكما أن السلاح يجب أن يكون في كل زمن بحسبه ويتنوع على حسب تنوع أسلحة العدو فهكذا علم الكلام يتنوع على حسب التشويش الحادث على الدين فالوعظ والسلاح وعلم الكلام كلها أدوية لأعراض أجسام الأمة فكما أن لكل مرض علاجاً فهكذا تعالج الأمة بالوعظ وتصنع الأسلحة والحصون وتؤلف علم الكلام على حسب الحوادث الطارئة عليها وكما أن من يداوى جميع المرضى بدواء واحد يعد جاهلاً كالذي يكون مريضاً ويستعمل الرقيا مع جميع الناس فكذلك من يعظ الأمة الإسلامية كلها بوعظ واحد ويظن أنه ينطبق على جميع الأزمان والامكنة اريقاتل كل عدو بسلاح واحد فهو غر جاهل أو يدرس علم الكلام القديم الذي جعل دفاعاً لمبتدعة العصر الاول لهذا العصر فكذلك يعد قليل العقل ويكون كالذين يكتبون وقد عدم رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلين في غير المتوكلين اذ ليس القصد مسألة الكي وحدها بل كل أمر يؤخذ بلا فكر ولا روية ولا نظام بل يقال كما وجدنا عليه أباءنا فهو خارج عن التوكل وبعبارة أوضح كل مالم يوصل الى المقصود عقلاً وعرفاً فهو خارج عن التوكل وما أشبهه وعاظنا وعلماء كلامنا وصانعي أسلحتنا بشمرائنا فكما نرى أولئك يدرسون ويصنعون ويعظون كما كان الأولون فهكذا ترى الشعراء إلا قليلاً منهم يرجعون للتشبيه البدوي القديم ولا يذكرون ما يرون من جمال المدنية والحضارة ومحاسن الطبيعة وجمال ما يشاهدون في مناهج الكون فاذا سرى التقليد والانحطاط في أمة سرى في كافة شعرائها وخطبائها وعلمائها (اجمال وقد كره)

واجمال القول أن العلوم إما أن تكون أغذية أو أدوية وهما قسمان عقلية وجسمية وكل منهما تخلية وتحلية فهي ثمانية أقسام .

(١) فالأغذية الجسمية هي علوم الزراعة بما يتبعها من جميع العلوم الطبيعية وهي فروع كثيرة كالكيمياء وعلوم الحيوان والنبات والبيطرة والبيزرة وغيرها وكل

فرع ربما تفرع إلى فروع بتقدم العلوم وتمدين الأمم
(٢) وعلوم الأغذية الجسمية التي للتخلية هي علوم سبك المعادن والأسلحة
الجديدة والعدد من المدافع والسفن الحربية فهذه كلها لقتال العدو وللمحافظة على
الأجسام من الخارج وأما التي قبلها فهي للمحافظة عليها من الداخل ومرددة بالداخل
ملم يكن من اغتيال نوع الانسان فيدخل فيه المسكن والملابس واتقاء الحر والبرد
وغير ذلك

(٣) وأما علوم الأغذية العقلية التي للتخلية فهي علوم الحكمة النظرية وهو لعمرك
ينبى على أساس علوم الأغذية الجسمية فترى علماء الحكمة العالية والفلسفة الالهية
يننون براهينهم على ما رآه علماء الطبيعة والفلك ويخرجون من المحسوس إلى المعقول
ويدخلها علوم السنة والقرآن بل هما مبدأ لجميع الأقسام اما صريحاً واما إشارة واما
علوم اللغات والبلاغة ونحوها فهي مقدمات ليست إلا للتوصل بها فلتعمق فيها جهول
ولقد صرفنا شطراً كبيراً من حياتنا فيهما تقليداً ثم اتضح لنا الحق بعد حين وعرفنا
أن الأمم حولنا يعرف الواحد منهم لغة واثنين وأربع لغات في أزمان قليلة ونحن نمضى
حياتنا كلها في اللغة العربية وهم أعلم منا بها فيا حسرة على أمة لم تجدمن يرشدها ويقيمها
من رقدتها ويوقظها من غفلتها وكتابتنا هذا إذا تأملته وجدت فيه زبداً من علوم
الحكمة والفلسفة العالية التي هي المقصود من حياتنا

(٤) وعلوم الأغذية التي للتخلية العقلية هي علوم الأخلاق الدالة على الطهارة
من الشجاعة والعفة والعبادات

(٥) وعلوم الأدوية الجسمية التي للتخلية هي علم الطب ومن العجيب أن هذه
الفن يحتاج إلى فنون أخرى من الطبيعة بل يحتاج إلى علوم الطبيعة بأكملها كما أن
الفلك يحتاج إلى علوم الرياضة أجمعها وكأن الأمراض وتقدير الأزمان يحثنا على قراءة
جميع علوم الأرض والسما لنعيش في رفاة وراحة وترى الطب يدعو إلى كل علم
يحتاج إليه علماء الزراعة ولو إجمالاً فكانه يشير إلى أنكم تتداونون بهذه العقاقير وهي

تداوى أجسامكم ولا بقاء لها إلا بهذه العلوم كما كانت معرفة الطب تتبع علوم الطبيعيات المحتاج إليها الانسان فهكذا ترى علماء الالهيات يحتاجون لجميع العلوم ولو إجمالاً لأن مدبر الكون يحب ترقيننا في جميع العلوم لنعيش في راحة ونموت مع علم وكمال وهذا هو السر في نزول الأنبياء بالتوحيد ثم يتركونهم وشأنهم لتوقظهم الموقظات إلى معرفة هذا العالم بعقولهم وأخذ ما ينفعهم وترك ما يضرهم في أجسامهم وعقولهم حتى تقوى مداركهم فالاله هو نهاية ما ترمى إليه المدنية والحضارة وإن جهلها أغلب الناس فالأنبياء يحثون والأمم يترا كضون في ميادين الحياة سعياً وراء الارتقاء وتراهم يتجادلون ويتحاربون باسم الدين وهذا هو مقصود الرب تبارك وتعالى فجعل نفسه موضوع الجدل والنزاع ليدوم الترقى بدوام الحروب ولقد كاد القلم يخرج بنا عن جادة ما نحن فيه فلنرجع ونقول

ومن العلوم التي للتخلية الجسمية علوم الحرب التي يدرسونها في المدارس الحربية (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

(٦) والعلوم التي هي أدوية جسمية للتخلية علوم المواقيت والفلك والهيئة فهي زينة للأمة وكمال وجمال ما عدا الضروري منها كالأوقات المعروفة فهي من الضروريات لا الكليات

(٧) والعلوم العقلية التي هي أدوية للتخلية فهي علوم الكلام التي تكون في كل زمان بحسبه

(٨) والعلوم العقلية الدوائية للتخلية فهي المواعظ التي يدخلها جميع قصص القرآن ومواعظه وأمثاله

وهذه هي أقسام العلوم الواجب تعلمها على المسلمين فرض كفاية وأول وزر يكون على الملوك والأمراء والعلماء والذي أعلمه أن أغلب العلماء لم يتيقظوا لهذا ولم يعرفوه ولو عرفوه لعرفه الأمراء ومتى عرفه الأمراء تقدمت الأمة وما الأمراء إلا أفراد من من الأمة لا ذنب عليهم وخدم وإتمام منها ولهذا ورد (كما تكونوا يولى عليكم)

فأى أمة أراد الله تعالى إغاثها من الضلال تنبه حكماؤها أولا ثم نبهوا علماءها وهم يرقون أفكار أمرائها وعامتها، فليُنظر حكماء الاسلام وعلموه الى ما قنناه ولينيقظوا من قلدتهم وليقوموا من نومهم ليكون هم أجور النبين ونحبي أمتهم التي يحبي ذكرم بحياتها ولا يظن العلماء أن علوم العربية والتفسير والحديث والفقاه التي يموتون فيها ويحيون تنفعهم إلا بالعمل وتحرير الأمة على جميع تلك العلوم التي أشرنا إليها وإلا ماتت الأمة وعلمائها فان السنة والقرآن قد حرصا على جميع هذه العلوم كما أوضحناه في غضون كتابنا هذا ألا فليحى العلم فلتحبي الأمة فليحبي الدين فليحى الوطن فيجب على العلماء والحكماء والأمرء أن ينجثوا الناس على جميع العلوم وإلا ذهب ربحهم او خسروا الدنيا والآخرة

فليت شعري لم ترك الامراء الخطب يوم الجمعة ولم تركوها للجهال الفقهاء الذين لا يعقلون ألم يأن لكم أيها الامراء أن تقتدوا بالخلفاء الراشدين ألم يأن لكم أن تقتدوا بالخلفاء الامويين والعباسيين ألم يأن لكم أن تقتدوا بخطباء أوربا الذين يقومون على منابر الخطابة وتهزلهم المنابر فتكسى ورقا خضرا . ساء ما وصلنا اليه ألم تعلموا أيها الامراء أن خطبة الجمعة والعيد لكم وخدمكم لتفقدوا أممكم الى مصالحهم في الدنيا من الصناعات والتجارات والزراعات وكذا الآخرة أهكذا دين الاسلام تيقظ الناس ونحن نيام

ألا فلتحى الأمة فليحى اوطن المزيه فليحى الدين فليحى العلم فلتقم الأمة فلتتقدم الصناعة أتم أيها الحكماء ويا أيها العلماء تقودون الناس في الدنيا وستقودونهم في الآخرة فان كنتم الآن منحطين فالأنحطاط ما لكم في الآخرة وإن كنتم راقين فهر ما لكم في الآخرة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة سنة وقنا عذاب النار

تتمة هذا الباب

قد علمت ان العلوم قسمان أغذية وأدوية ولا بد منهما في بقاء الأمة إذ الأغذية بمنزلة أدوية يتبعها ضرر وإفراط وتقر يط فلا تجد ما يوقفها عند الحد فيكون هناك الضرر

العظيم والأدوية بلا أغذية مهلكة و باجتماعهما الصلاح وبعدهما الهلاك
ولكن الاقتصار على الأغذية أقرب الى الحياة وعلى الأدوية أقرب الى الموت
وعلى ذلك ترى فرنسا وما شاكلها ممن أعرضوا عن الدين أحياء حياة فيها مرض والشرقيين
التاركين لعلوم العقل أقرب الى الموت فهذا عرفت منشأ عمارة الأمم وخرابها وارتفاعها
وانخفاضها وهي أربعة أقسام لا غذاء ولا دواء وهؤلاء هلكى غذاء لا دواء وهؤلاء
مرضى كبعض الأوروبين دواء لا غذاء وهؤلاء أقرب الى الموت كبعض الشرقيين
غذاء ودواء وهؤلاء أحياء وهي المدينة الفاضلة التي اليها يصل النوع الأنسانى وقد
بلغنا إن بلاد سويسره بلغت هذا الحد

الفصل الخامس

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه

في هذه الأيام

أمة الاسلام ما حط بها في مهواة الدمار إلا طرق التعليم منذ قرون متطاولة وكم
أرشدهم المرشدون وأفادهم الحكماء ولا سميع ولا مجيب لقد كان أهل الغرب (شمال
افريقيا) في الأزمان الغابرة أيام ابن خلدون لا يدرسون إلا القرآن وعلم الرسم الخاص
به واختلاف الروايات لا يزيدون عليه شيئاً فلا علم ولا عمل ولا صناعة ولا دين
ولا دنيا فاذا أتم الطالب القرآن وقف وقوفاً تاماً عن العلم وإن انقطع عن اتمامه انقطع
عن كل خير في الدنيا والآخرة وزاد أهل افريقيا (تونس) شيئاً من الحديث ومدارسة
بعض قوانين العلوم ولكنهم هم ومن حولهم لم يكونوا لينالوا حظاً من ملكة الانشاء
إذ القرآن بالغ حد الأعجاز فلا يقدر البشر على تقليده وقوانين العلوم التي تقرأ في
إفريقية وغيرها عباراتها نازلة عن البلاغة

ولما رأى علماء الأندلس ضعف العلم في تلك الاصقاع المغربية زادوا على تعليم

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذه الأيام ٢٨١

القرآن الشعر والأدب والترسل وعلوم العربية والخط والكتابة فكان ذلك يفيدهم بعض الأفادة في الإنشاء

وكان تعليم أهل المشرق قريباً من تعليم أهل الأندلس وتردد ابن خلدون رحمه الله تعالى في أي العلوم عنايتهم به أكثر وقال ان علماء الأندلس عنايتهم بالشعر وقواعد العربية أكثر من عنايتهم بالحديث والتفسير وقد انقطع إذ ذاك سبيل تعليم العلوم بتلك البلاد وقد دخل النصراني شرقي الأندلس فهاجر أهلها إلى أفريقيا وقال . وكان لأهل المشرق عناية تامة بالخط وهذه هي طرق التعليم في الأزمان الغابرة . وأنت ترى إن طريقة التعليم في كتاتيب بلادنا تشبه أحط درجات التعليم . وهي تعليم أهل المغرب في عهد ابن خلدون قاصرة على تعليم القرآن ولقد تأفف منها بل ومن جميع طرق التعليم في ذلك الحين القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته (كما قاله العلامة ابن خلدون) وأرشد إلى طريقة غريبة في وجه التعليم وعاد في ذلك وبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة أهل بلادنا في أن يأخذ الصبي بكتاب الله أول مرة يقرؤه ولا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه منه ثم قال ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله تعالى وقال العلامة ابن خلدون وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال هذا ما خص ما قاله العلامة ابن خلدون رحمه الله وما نقله عن أبي بكر رحمه الله تعالى عند الكلام على تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه وأنا أقول إلا فاحضراً أيها العالمين اليوم وانظروا ما نظرت واسمعا ما سمعت تجدا الحال أسوأ مما رأينا وتجدا الطريقة الدنيا وهي طريقة أهل المغرب عندنا واندرست طريقة الأندلس بذهاب دولتهم وهكذا الطريقة

الافريقية والمشرقية إلا فاحضر يا ابن العربي وسر معى فى الكتاتيب واقراً (كذلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم)

ولقد اتفق لى أثناء تأليف هذا الكتاب أنى رحلت كما رحلت فى بعض أرجاء القطر المصرى لمشاهدة الكتاتيب فى القرى ولقد كان هذا من عجيب الاتفاق إذ لم أكن عند ابتداء تأليف هذا الكتاب مفكراً فيه ولكن أبى الله إلا أن يظهر العجائب ويتم ما أراد من الكلام عل نظام هذه الأمة مع نظام الكون فلو رأيت ثم رأيت أكوأخا^(١) يعلوها التراب وتأتيها الشمس والرياح من كل جانب كأنها جحر ضب خرب ليس فيها درس الألفاظ القرآن والعقل فى معزل عن الدنيا والآخرة وصار المسلمون قاطبه لاهم لهم إلا ألفاظ ظانين أن البركة فى مجردها وأما السمع فالأغلب عنه معزولون ألا فلتحضرا أيها العالمان وتريا ما أحدث الدهر بعد كاتريا تحقيق آية اليهود إذ قال فيهم ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون (أى يقرؤون ولا يفهمون وقوله فيهم (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) بس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) ولقد بلغنا أن تعليم المسلمين فى غالب الاقطار على هذه الشريطة من شرق وغرب الاندلس إذ لم يبق لها وجود بل صارت بلاداً بدل دينها كفرة وأحلوا قومهم دار البوار .

وأما علومنا ومعارفنا فلا نشرع فيها إلا بعد حفظ القرآن إذ يمضى شطر من حياته ويمضى زمن غرس نذر الأخلاق فيشب الطفل على الجبن والخوف والهلع وسلب الارادة بتهديد المعلم وضربه، فاذا قبيض الله له من يعلمه لم يجد ذلك العلم إلا يسيراً مع التكلف فى زمان الفتوة والكهولة وقلمنا تصلح الأخلاق بعد زمان الصبا

ويا ليت تعلمنا العلوم بعد ذلك على طريقة حسنة كافلة بالنجاح وإنما زاد الأمر

(١) كان هذا قبل طبع هذا الكتاب ولقد ترفت كتاتينا رقياً حسناً فحمد الله حمداً كثيراً بهمة اخواننا فى نظارة المعارف

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذه الأيام ٢٨٣

وكثر الشراح والحواشي والتفاسير واختلطت المذاهب وتشعبت الفروع في النحو والصرف .

وصار علم البلاغة إما لا يسمى له إلا السعد وشرحه وحواشيه التي هي عبارة عن كلام معسى كاه تقلد بقى الآلات بغير وصول له تصود من فهم القوائد والرسائل وكلام العرب والقرآن والحديث بل إذا نظرتم لم تريا إلا قواعد مجردة كقواعد المنطق فلا تطبق له على المعقولات ولا للمعاني والبلاغة على الكلام وإن حصل التطبيق فإما يكون بمجرد الاشكال والجواب ويقرأ علم الفقه والكلام والأصول والتفسير والحديث والاعتناء بالثلاثة الأول أكثر وبالأخيرين أقل بل تارة يقرأ للتبرك وتارة تطبيقاً على العلوم العربية لاسيما النحو

ولقد صدق ظنكم وأن العادة حاكمة على الناس وطريقة التعليم رديئة جداً صعبة لا توصل إلى المقصود فإذا حضر أحد من الريف أزم بحفظ إعراب البسلة ووجوهها التسعة مع أنه لا يدري ماهو الاعراب وما هي الصفة وماهو الموصوف، وبالجملة فالعناية على وجه العموم متصرفه للآلات وهي قواعد اللغة لا اللغة نفسها إذ هي ذهبت ربحها ولقد وقع الاسلام كله الآن في هاوية الجهل ولكن جاء الغربيون وهم أهل أوروبا يسيلهم الجارف على الشرق ويخيلهم ورجلهم وشاركوا الشرقيين في الأموال والأملك ووعدوهم وما يعدوهم إلا غروراً وشوا طرق تعليمهم في بلاد المسلمين فنبه بعض هلماء الأزهر لهذه الطريقة الحديثة وأشار بعضهم بتسهيل التعليم وادخال علم الحساب والهندسة وتخطيط البلدان . وهام العلماء الآخرون تارة يشنون وتارة ينفون وقد أخذت روح العلم تدب فيما بيننا

وهكذا فتحت في مصر مدارس يتعلم فيها العلوم التي بها نظام الحكومة وأسست الجمعيات ومدارس لتعليم الفقراء وأظنها أحسن طريقة نعلمها فيعلمون شيئاً من القرآن مع معناه والخطب والحساب والاملاء والآداب الاسلامية والعبادات ومحاسن الأخلاق وصنعة يعيشون بها وقواعد العربية والانشاء والترسل .

وقد فاقت في ذلك كاه المدرسة التي أنشأها خديو مصر عباس باشا الثاني في هذه الأيام وجميع المدارس شرقية وغربية يعلمون علوماً متعددة في أوقات منتظمة ونجاحها ظاهر . فخلط العلوم لا يضر بطريقة التعليم وهذه هي طريقة ظاهرة النجاح ولو أن المسلمين في جميع الاقطار قاموا بأعمال مثل هذه في التعليم لارتقى الاسلام في أقل من نصف قرن ولكن ما دام الحال على هذا المنوال بقي الانحطاط إذ المتعلمون ما تخرجوا في صغرهم إلا على أيدي هؤلاء الجهال الذين يقرأون ما لا يعقلون فيشيب الانسان المتعلم ولم يتفكر يوماً في حالة الأمم الاسلامية ولا حرية له ولا ذنب عليه وإنما الذنب على طريقة التعليم في الصغر التي ضربت عليه بالذلة والمسكنة

فها نحن الآن ندعو إلى نسخ هذه الطريقة وأن تؤلف كتب غير هذه التي بأيدينا في جميع الفنون وتعلم جميع العلوم كما ذكره الغزالي في الاحياء ويرشد الناس إلى الصناعات حتى نصل إلى المدنية الصحيحة

ولقد يجمع كلامنا الآن أكثر من زمان ابن خلدون فاننا أحيط بنا من كل جانب وذقنا جزاء ما فرطنا في الكتاب وقيل ذوقوا ما كنتم تكسبون ، ولترك ما وجدنا عليه آباءنا ولا نكون كالذين قيل لهم (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا على آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)

ولقد صار قراء القرآن في هذا الزمان تضرب بهم الأمثال في سوء الأخلاق والفقر إذ هم مجردون عن كل دين ودنيا في الغالب إلا من قيض الله له من يدخله الجامع الأزهر فقد يرقى إلى طبقة العلماء ولكن يبقى محكوماً بعادة التدريس المضرة ولقد دار الحديث بيني وبين أحد مشايخي بالجامع الأزهر أثناء تأليف هذا الكتاب فقال بلغني انكم تلومون العلماء على ترك العلوم الطبيعية والتاريخية والفلكية وغيرها ، فقلت له نعم فقال أليست الطبيعة كفرأ ألا تتذكر انهم نصوا على ذلك وأنت حضرت في الأزهر عندنا هذا الكلام فقلت نعم ولكن علمت ان هذا ليس له وجود إلا في الورق وتحققت بعد ذلك من كلام أكبر علمائنا رحمهم الله تعالى كالغزالي وغيره انها

أعظم طريق للتوحيد بل صرح القرآن بأن معرفة الكون من طبيعة وفلك وغيرها هي الطريقة المثلى للوصول للخالق بل العالم هو الذي يعرف تلك العلوم مع الخدوبها حذو الدين وسردت له أدلة من هذا القبيل وقلت له لقد ألفت في هذا الموضوع نفسه كتباً وأوردت له منها أشياء مما في الناكرة فرأيت بوارق السرور تلمع في جبينه واستبشر فسرني ذلك وعلمت ان الأمة تحتاج إلى من يرشدون العلماء إلى ما به صلاح الخلق ولقد وجدت نفسى مغرمة بهذا العمل مع علمى بقصور باعى ولكن أودى ما فى عنقى من الأمانة لأدافع بها عن نفسى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ثم قال انهم يذمون طريقة التعليم فهل توافق على ذلك قلت نعم فقال وكيف ذلك اليس التعليم عندنا يعلم فهم العبارات الصعبة فقلت له لم نخلق لذلك فهو ضياع للحياة فى فهم اصطلاح بعض الأدميين وهم كثير من المؤلفين مع البعد عن المقصود الأسمى ولا ذكرك ياسيدى بعارة منك فى الدرس ألم تقل لنا (من اتبع الحواشى ما حواشى) فقال نعم فقلت وهل تركت الحاشية فقال لا فقلت له وما المانع من اتباع الحق فسكت فقلت له أجبب أنا ان العادة جرت ان الطلبة لا يتعلمون إلا على شيخ يأتى لهم بالفرائب فاذا تركتم الحاشية ووجدوا غيركم يقرؤها ذهبوا اليه فقال نعم فتذكرت قول ابن خلدون إن العادة استحكمت ولقد آن للمسلمين العدول عن هذه الطريقة المشؤومة وكل من سعى فى ازالتها فله أجر بنى إذ يكون مجددا لهذه الأمة التى تنكست أعلام مجدها ودك سور مدينتها ولننقل من كلام ابن خلدون ما استحسناه فى الكلام على التأليف وكثرتها واختصاراتها ووجه الصواب فى تعليم العلوم قال رحمه الله تعالى فصل فى أن كثرة التأليف فى العلوم عاتقة عن التحصيل

اعلم ان مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات فى التعليم وتمدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يقنى عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون مرتبة

التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس والرخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على المعتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه على أنه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحوِيلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضى عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة إلا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهمما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاخر به وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغل بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتية من يشاء وهذا نادر من نواذر الوجود وإلا فإظهار أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يهدى له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدى من يشاء

﴿ تذكرة ﴾ في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يؤلفون بها ويدونون منها برناجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في

الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاقتصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصوله وأبو مالك في العربية والخوجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لا بد فيه تخليط على المبتدئ، بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن الألفاظ المختصرة تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعلم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة وإذا قصر التكرار قصرت الملكة لقلته كئشان هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكئها ومن يهدى الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

* تذكره * في وجه الصواب في تعلم العلوم وطريق افادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان بالتدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا يأتي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستمداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايته أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسأله ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شب فلا يترك عويصاً ولا فهماً ولا متعلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص

من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل الثقيلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه ويلتقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والاحمال وبالمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى استيعاب الذي فوقه حتى تم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا أقيمت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنه وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وإنما أتى ذلك عن سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكتب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخاطب مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستوفى منه على ملكة بما ينفذ في غيره لأن المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما تبقى وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستوفى على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانطمس فكره ونأس عن التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم الفن الواحد بتقريب المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى البسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول ملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانية للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صيغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع العقل

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذه الايام ٢٨٩

وتكراره واذا تنوسى العقل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجنية والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علما معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالحيرة واذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فر بما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب اه

ولقد مشى على هذه الطريقة في الاختصار والتعليم مدرسو المدارس الأميرية في بلادنا المصرية ، فألفوا كتب العربية تباعا كتابا بعد الآخر ، واتبعوا قول ابن خلدون رحمه الله تعالى فالأول كتاب بسيط جداً والثاني عبارة عن الكتاب الأول مزيداً فيه عبارات أخرى وهكذا الثالث عن الثاني مع زيادة عبارات والرابع في فن البلاغة ونجحت نجاحا باهرا فيها هي ذه مصر الآن فيها مدارس حسنة النظام وتعليمها علوم العربية وغيرها وتأليف كتبها أتى بالمقضود ، ألافيم التعليم بلاد الاسلام على هذا النمط وأحسن منه

وأول الفيث قطر ثم ينسكب ولعمرك ليست علوم العربية مقصودة لذاتها ، فعلم العربية والقراءات بل والتفسير والحديث إنما يراد بها الاطلاع على العلوم التي بها الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة وهي العلوم التي هي غذاء والتي هي دواء جسما وعقلا كما أوضحناه سابقا

ولقد جعل الغزالي رحمه الله تعالى علوم العربية كلها قشورا وجعل التفسير أسفل القشرة مما يلي اللب بل جعل المفسر كالقارى ، غاية الأمر أنه أرقى منه ، إذ هو أقرب إلى العلوم . أما حافظ الروايات وقارى ، علوم البلاغة فانما هو في القشر البحت وكذلك عالم اللغة فالمدار إنما هو على نفس العلوم

الفصل السادس والسابع

في وجوب استعمال العقول وترك الفضول

وفي حكم النسخ في آيات القرآن والأحاديث وما مناسبتة لهذه الأحوال التي نحن عليها وما حكمته بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم ولقد جعلنا الفصلين فصلاً واحداً لأن العقل يشهد ان نظام العالم ملازم للترقي المصاحب للنسخ الذي يشهد به العقل كما جاء به الوحي

لقد علمت أيها المطلع على كتابنا هسدا ما طبع عليه هذا الكون من التغيير والتبديل والنسخ فتري الليل نسخ النهار والنهار نسخ الليل وتتعاقب الفصول بالحر والبرد والرطوبة واليبوسة وبها يحصل خروج النبات ونمو الحيوان والانسان وكلها في تغير دائم ونسخ مستمر وما من شمس إلا وسيأتي لها أجل مسمى تمحي فيه من الوجود وهكذا الأقمار والسيارات والثوابت وذوات الأذنان وهكذا قرر علماء الفلك والطبيعة (كلٌ يُجْرِي لِأَجَلٍ مَسْمَى) وهكذا كانت جميع المولدات على سطح الكرة الأرضية كلما غرب نجم أشرق نجم ويموت الحيوان ويعقبه الآخر وهكذا أنواعها فكم من أنواع عثر عليها في طبقات الأرض اقطع وجودها الآن بالمرّة وكم حيوان يتمتع بنسيم الهواء وروح الحياة ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً وهكذا سطح الأرض فكم من عامر أضحي غامراً وغامر أضحي عامراً وجبل صار بحراً وبحر صار جبلاً على هذا تطابقت آراء العلماء في كافة أنحاء المعمورة واليه الرمز بحكاية الخضر عليه السلام انه رأى أرضاً قفراء وبعد (٥٠٠) سنة رآها مدينة زاهرة وبعد ٥٠٠ سنة أخرى رآها بحراً وبعد مثلها شاهدتها مدينة زاهرة . وما ذكر الحكماء هذا إلا رمزاً لحال الأرض على حسب ما طبعت عليه وما نظمها به مبدعها وهذا كله نسخ حقيقي في الطبائع الكونية والكائنات العلوية والسفلية ولما كان هذا فعل صانع الكون وهو الحكيم في صنعه (كل يوم هو في شأن) فلا بد أن يكون حكيماً في قوله وما أنزل على رسله إذ

الحكيم في قوله حكيم في فعله ولذلك تراه يغير الشرائع بتغير الزمان إذ لا جرم أن تغير الزمان وتتابع الأجيال يحدث تغيراً في الأخلاق وتبايناً في الطباع فيكون بلا ريب للناس شرائع توافق المشارب على حسب ما يقتضيه الزمان والمكان المتغيران فأنزل آدم وشيثا ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وجاء كل شرع يناسب أهل زمانه وكانت هذه الديانات كلها كسلسلة واحدة تتصل كل حلقة منها بالحلقة الأخرى والمتأخر يلهم بعض المتقدم ويزيد عليه بوحى من الله وإلهام وتعليم وإرشاد فتكون الشريعة متصلة بما قبلها من وجه منفصلة من أوجه أخر وكلما جاء شرع كان أرقى مما قبله وأوفق منه لنوع الانسان وكأنها سلسلة ترقى شخص فيكون جنينا فطفلا فشابا فكهلا وهكذا أو سلسلة ترقى حيوان من الحيوانات المكرسوية الصغيرة وتزيد شيئاً فشيئاً إلى الحيوانات العالية كالانسان الذي يليه الملك فهكذا الديانات يظهر أنها ابتدأت من الأيسر إلى البسيط إلى المركب وهلم جرا فشرعية إبراهيم للتوحيد وموسى للتوحيد والأمور العملية وشرعية عيسى أفرطت في العلمية وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلمية والعملية بلا إفراط ولا تفریط فدين الاسلام في الديانات كالانسان في الحيوانات ولذلك كان النبي خاتماً والخاتم بالفتح ما ينقش به صور كثيرة وخاتم بكسر التاء أى آخر الديانات ولذلك ترى العلوم عممت الكرة الأرضية وكثرت المواصلات وعم النشر وكل أخذ بما يلائمه من كفر وإيمان ولا بد أن يأتي يوم تظهر فيه الديانات محققاً ومبطلها لعموم البشر وبسرعة المواصلات فلا لزوم إذن لأنبياء يعثون ويرسلون إذ الكتاب موجود وها هي ذه رسائل البريد غير ممتنعة التوصيل إلى جميع الأقطار وما أهل الكرة الأرضية إلا كأهل بيت واحد يتحادثون وهذا هو سر قوله خاتم النبيين ولم يحصل هذا بعد نبي من الأنبياء قط نعم هذه هي المعجزة العجيبة

ثم لنترجع الى ما نحن فيه فنقول :

جاءت الشريعة الاسلامية ونزل الوحي بآيات وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأخرى نزل بها الوحي وسميت سنة وحديثاً ثم ترى الآية تنسخها آية والحديث ينسخه

حديث فعلمنا أن ناظم هذا الكون جعل نظامه واحداً فكأنه يقول ها أنا ذا أغير خلقى
بيدى (كل يوم هو فى شأن) وإلا كان الوقوف على نظام واحد قصوراً فى الحكمة
وجوراً فى الطبيعة وظلماً فى الحكم فلا بد من التغيير وكل يوم لنا شأن فى أفعالنا وليست
الاقوال تخالف الأفعال فى سيرها

فهذه الديانات كل دين منها يوافق ما قبله فى بعض ويخالفه فى بعض على مقتضى
الحكمة ونواميسنا فهكذا أنزل القرآن وجعلناه كالشرائع قد تنسخ الآية الآيه ،
والحديث الحديث لتقلدونا فى نظام مدينتكم مما لا يخالف آياتنا وسنتنا فنأتى بالحكم
ما يوافق المصالح ثم نرفعه ونأتى بآخر لتغير الأحوال (ما نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا
نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) ولما كان هذا يوافق نواميس الكون كما ذكرنا عقبه
بقوله (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) وإذا كان كذلك فوقوفه عند شئ دون
شئ هو الجور والظلم فى المادة ومثلها الأحكام التى نستبدلها بخير منها أو مثلها (ألم
تعلم أن الله له ملكُ السمواتِ والأرضِ ومالكُ من دون الله من ولى ولا نصير)

وقد آن نذكر جملاً من الناسخ والمنسوخ لتعلم أن الله أراد أن ينبه أن أمة الاسلام
التي انمط مجدها آن أن تغير نظام مدينتها وتؤلف كتباً وتنشئ صنائع وتنسخ ما كانت
تصنعه من قبل نسخاً بلطف فتؤلف كتب قد حوت من علوم الأمة والعلوم الحديثة
لتبقى وحدتها بالأصل وتترقى مدينتها وتساكن الأمم المحيطة بها بالجديد كما اتفقت
الشرائع السماوية فى التوحيد (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم
أن اتقوا الله) ، (وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)
فانظر كيف اتفقت الأمم والديانات على نقطتين أصليتين وهما التوحيد ومكارم
الأخلاق واختلفوا فى أمور عملية

فهكذا ترى فيما سياتى فنسخ الآية بآية أخرى قد اشتركتا فى العدل وموافقة
الأمة واختلفتا فى الكيفية والهيئة وقد يكون النسخ تدريجياً كتحرير الحر فهكذا
كتب العلوم ونظام المدنية يجب على علماء المسلمين وحكامهم أن يأخذوا فى تغييرها

مع ملاحظة القديم والحديث ولتكن الهيئة الاجتماعية قسمين قسم يحافظ على القديم وآخر يوسع بالحديث فتنوازن القوتان وينمو الترقى وحفظ كيان الأمة كما حفظت أمم الأنبياء وترقت شعوبهم وكما ترى في دولة انكلترا من المحافظة تارة والحرية أخرى وما جاء الشرع الاسلامي بالنسخ إلا ليرشدنا الى كثرة التروى والتفكر وأن ننظر في القديم والحديث وقد أرشدنا القرآن الى ذلك فقال (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)

ولعمري أن الأمة التي تقلد الشريعة الاسلامية في ناسخها ومنسوخها وتجري على منوالها هي التي استمعت القول فاتبعت أحسنه وهم الذين هداهم الله وهم أولو الألباب سواء كان في نظام دينهم أم دنياهم ولا يظن غيري أنني أريد تغيير النظام مع مخالفة الدين كلا وإنما الدين قواعد كلية تحمها فروع كثيرة فهي كمسألة حسابية كثيرة الحل أو كحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ولذلك كثرت المذاهب وكانت كلها صحيحة عجب لجاهل يظن منافاة النسخ في الشريعة لها وهو في الحقيقة نظام لا يجوز أن يهمل بل لا بد منه لكل عمل وعليه فليتنظر علماء الاسلام وأحكام في علوم الأحكام اولياً أخذوا ملخصاً من المذاهب المشهورة وغير المشهورة ويجعلوها قانوناً تجري عليه الأحكام ويغيروها بقوانين أخرى مما يوافق مشارب علماء الاسلام إذا رأى أهل ناحية من نواحي الاسلام أنها أليق بهم وإذا لم يعرفوا هذا فليشروا بأن تضرب عليهم الذلة والمسكنة) واني أحمد الله إذ وجدت قضاة بلادنا فعلوا ذلك قريباً. أنظره في كتابنا الجواهر في تفسير القرآن في سورة الكهف مطولاً عند قصة الخضر وموسى عليه السلام) وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل له من ربه الوحي بالآية ثم يأتي وحى آخر بآية أخرى فينسخها كذلك وكلاهما من عند الله يوافق الأمة فهكذا يجب على علماء الاسلام وحكامهم أن ينظروا ما يصلح للأمة زماناً ومكاناً وأن يأخذوا من أقوال علماء الأمة التي لانهاية لها في الكثرة ما يليق بهم زماناً ومكاناً ليوافقوا مصالح بلادهم إذ الشريعة دواء وأحوال الأمم تعتبرها الامراض فان لم يوافق الدواء الدواء

هلك المريض وهكذا هلكت الأمة باستعمال ما لا ينطبق على حالها والدين الاسلامي فيه جميع العقاقير التي تنطبق على عامة امراض الامم وحاجاتهم ولقد جعل من مبنى اصوله أن المشقة تجلب التيسير وأن المضطر يأكل الميتة وغير ذلك مما هو مذكور مسطر في الكتب

ولعمرك لم يعطنا الله عقولنا إلا لنعمل بها ونتصرف على مقتضاها بشرط أن يكون لها رئيس وهو الدين فالعقل لقوى الانسان الشهوانية والغضبية كالدين لعقول أفراد الأمة ومتى تركت عقولها ولم تطبق أحكام دينها على مصالحها واتكل أهل مصر على كلام البغداديين وهم على الحجازيين وهم على الفرس ضاعت الأمة وماتت بمرض الجهل وكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون ما يصادفهم منه ولم يتبعوا أحسنه إذ لم يفرقوا بين الأحسن والحسن حتى يختاروا ما ينفعهم ولقد هلكت أمة خالفت سنة ربها في كتابها من النظر للمصالح وتطبيق العلم عليها من الناسخ والمنسوخ

(١) انها فرضت الصلاة بالتوجه لبيت المقدس ثم أمروا بالتوجه للكعبة
(٢) وقد أخرج النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الخندق حتى كفى الله المؤمنين القتال فدعا بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى الصلوات الأربع بهياتها كما كان يصلها في أوقاتها فتسخ ذلك التأخير بقوله فان ختم فرجالا أو ركباناً وصلاة الخوف مفصلة في السنة

(٣) وكان حد الزانيات الحبس والأذى بقوله . (واللآتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً) ونسخ بما ورد عن عبادة ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتعريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ثم جاء نسخ الجلد عمن زنى من الثيبين برجم ما غر بلا جلد له

(٤) ورد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما جعل الامام ليؤتم به فاذا صلى قائماً

غسلوا قياماً وإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا
 ولك الحمد وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعين فنسخ ذلك بما ورد أنه صلى الله عليه
 وسلم خرج في مرضه فأتى أبا بكر وهو قائم يصلي بالنس فاستأخر أبو بكر فأشرد إليه
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كما أنت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب
 أبي بكر فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الناس يصلون
 بصلاة أبي بكر قال الشافعي وبه نأخذ وورد التصريح في رواية عائشة بأن أبا بكر
 والناس قيام والنبي عليه الصلاة والسلام جالس في هذه الصلاة

(٥) وقضى الله على العشرين أن يقاوموا مائتين وعلى المائة أن يغلبوا ألفاً ونا
 علم ان في القوم ضعفاً جعل الواحد منهم باثنين فقال (خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ
 ضَعْفًا الْآيَةَ)

(٦) نزل يأيتها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل
 القرآن ترتيلاً فعلم فرض قيام النصف أو الزيادة عليه أو النقص عنه ثم نسخ بقوله في
 السورة بعينها (ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة
 من الذين معك والله يقدّر الليل والنهار علم أن أن تحضوه فتأب عليكم فاقروا
 ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض
 يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا
 الصلاة وآتوا الزكاة وأقروا الله قرضاً حسناً) فوجب بهذا النص ما تيسر من القرآن
 في الصلاة في الليل ثم نسخ هذا الوجوب أيضاً بقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة
 لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ويدل له حديث طلحة ابن عبيد الله قال
 جاء اعرابي من أهل نجد نثر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فإذا
 هو يسأل عن الاسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم خمس صلوات في اليوم والليلة فقال
 هل على غيرها فقال لا الا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا
 شيئاً ولا أنقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح ان صدق وروى عبادة

ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خمس صلوات كتبهن الله على خلقه فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة (٧) ورد وجوب الوصية للوالدين والأقربى بآية (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) وللزوجة بقوله (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مِنَ الْآيَةِ) فبهاتين الآيتين وجبت الوصية للوالدين والأقربى وللزوجة ثم نسخ هذا الحكم بآيات الميراث فبين فيها ميراث الوالدين والأقربى والزوج من الزوجة والزوجة من الزوج وامتنعت الوصية للوارث وبقيت سنة في الأقربى الوارثين فالأباعد واختصت بالثلث فلقد أعتق اعرابي في مرض موته ستة مماليك فأجاز صلى الله عليه وسلم عتق اثنين لأنهما الثلث ولم يحز الباقي وجعل التصرف في المرض كالوصية

(٨) ومن عجائب النسخ ولطائفه مسألة تحريم الخمر ولا ريب ان فيها نفعاً من وجه وضراً من وجه آخر فهي من وجه نعمة ومن وجه آخر نقمة فذكرت من الوجه الأول في مقام الامتنان جرياً على ما يعلمون وأخذاً لهم بما يفعلون ومجازاة لافهامهم واستدراجاً لقلوبهم فقال تعالى في تعداد النعم (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فجعله في مقام الامتنان

ولما كان كل شيء في العالم له نفع وضر وكان التحريم والتحليل يرجع إلى غلبة أحدهما على الآخر فمتى غلب الضر حرم ورد قوله تعالى بعد ذلك (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) فأبان هنا بالحجة الاجمالية ان الضر أكثر من النفع ومتى كان كذلك فالعقول السليمة تتركه ولذلك روى ان الصحابة اتقسموا بعدها قسمين فشر بها قوم لنفعها وغادرها آخرون لضرها فاستعدوا إذن لقبول التحريم نصاً فجاء قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) فحُرمت عليهم في وقت الصلاة فتركوها في الصلاة وشربوها خارجها ولما قبلوا ذلك وفهموه استعدوا للتحريم

فجاء قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَجْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ
 مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ
 الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَجْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ
 مُنْتَهُونَ) .

فتأمل كيف جعل التحريم تدريجياً ولم يذكره مرة إلا مقروناً بذكر سببه معه
 ذكر في التحريم المطلق سبب تحريمه من العداوة والبغضاء اللذين هما بعض خبائثه
 لظهورها بين الناس وشيوعهما في الشارعين حين الاسكار وفيما قبله ذكر العلم بما يقال
 في الصلاة وهكذا

(٩) ولما لاحظت هذا السيدة عائشة رضي الله عنها وعلمت ان كل شيء ينزل
 لمناسبة الأحوال قالت لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثه النساء بعده لمنعهن
 الخروج إلى المساجد فكأنها قارنت منفعة العبادة بمضرة الفتن فرأت المضرة زادت
 في زمان هذا القول وكانت أنقص في زمان النبوة اذن هي علمت ان الوحي كان ينزل
 لمقتضيات الأحوال والحكم

فهذه ثمانية النبذ من الناسخ والمنسوب عرفت بها صنع الله وشرعه المتطابقين وانه مطابق
 لقوله — ألا ترى ان هذا الكون كله جار على نواميس وضعها مبدعها وقد علمت
 ان أحوالها متغيرة في أمور جزئية تتغير دائماً مع حفظ النظام العمومي ولما كانت أفعال
 العباد جزءاً من ذلك الكون ومن فعل مبدعه (والله خالقكم وما تعملون) وكان لهم
 نوع اختيار خالق لهم عقولاً وأنزل لهم وحياً فتراهم يستحسنون بعقولهم كل نظام يوافق
 الحالات الموافقة لأزمانهم وهكذا الوحي جاء بهذا التغيير للتنبيه على انكم ملزمون
 بحسن الفهم والتبصر ووزن الضر والنفع بميزان العقل فتغيرون الجزئيات من زمن إلى
 زمن ومن مكان إلى مكان مع حفظ القواعد العمومية الشرعية كما تتغير النظميات
 الكونية الجزئية مع حفظ النظم العمومي والقواعد والنواميس العامة — ألا ترون
 ان البحر قد ينقلب برأً والبر بحراً والنظام ثابت فهكذا يجب أن تفعلوا كذلك فيما

لايخل بالنشر السماوى فياأيها المسلمون اخوانى هاهوذا فعل الله فى ملكه وكلامه فى تنزيهه وفعل نبيه صلى الله عليه وسلم ونظام الدول الحالىة جار على تلك النواميس بعينها كأنهم درسوا (يقلبُ الله الليلَ والنهارَ) وكأنهم فهموا (يحو الله مايشاء ويثبتُ وعندهُ أمُّ الكتاب) أتدرون ماالذى يفهمه الحكماء من هذه الحلال يقرأون على صفحات الوجود خطابا من مديره يقول هذه العبارة (أيها المسلمون ان لم تغيروا نظام مدنيتكم التى شب الدهر وقدهدمت فلا بدمن أن أسلط عليكم من يغيرها وأنتم ساهون لاهون فان لم تأتوا طوعا أخذناكم قهراً ولسنا نترك سنة التغيير وهى من أجل نواميس الكون لجهلكم (كلاً سوف تعلمون ثم كلاً سوف تعلمون) ألم تعلموا ان فعلنا كاه ونظامنا جميعه لايقى على حال واحد إلا فى العموم وتتغير الجزئيات فالى كم تنهبون فلا تزدجرون والى متى تقرأون ولا تفهمون ألم تقرأوا (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتيننا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) أعطيت صالحاً آية الناقة لتوم نمود فكذبوا وظلموا ثم أعطيت موسى آية العصا إذ انقلبت حية فآمنوا به ثم آمنوا بالعجل حين رأوا له خوارا إذ من آمن بالعصا حين انقلبت ثعباناً فهو أحرى أن يؤمن بعجل يحور وهو مصنوع من ذهب إذ هو أجمل من الحية وأرقى جبما ونفعاً وهذه الآيات المحسوسة لا نرسل بها إلا تخويفاً للأمة إذ لا تفيد اليقين وهذه الأمم التى أرسلت فيها تلك الرسل ليس عندهم استعداد لفهم الحقائق العقلية لغلظ طباعهم وبلادة عقولهم فأعطيناهم من الآيات ما يناسبها وان كانوا يرتدون بسرعة لضعف الايمان بالمشاهدات المحسوسة والمعجزات المشاهدة التى لا نرسل بها إلا تخويفاً والتخويف أدنى الدرجات فى الارشاد ويليه الترغيب فالحنجة ولذلك جعلناكم أمة وسطا معجزتكم هو القرآن تفهمون حججه فتكون هى المعجزة التى هى أرقى المعجزات المشاهدة بالبصر اذ هى انما هى بالبصيرة ولذلك لما طلب كفار مكة معجزات محسوسة (وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالهـ والملائكة قبيلاً أو يكون لك

بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا تقرأه
قلنا لنبيكم (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) لأن هذانبي وليس
كأولئك الانبياء الذين أتوا بمعجزات محسوسة لا تثبت فلذلك كانت تلك الأمم
تضل سريعا وأما نبيكم فإنه آخر الأنبياء فوجب أن تكون معجزته عقلية ثابتة مدى
الأزمان ولذلك قال في آية أخرى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون
وآتيناهم آياتنا مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات إلا تخويفا) هذا هو الذي يقوله
الحكماء في المحادثات في الوجود وإشارات الوحي وتتابع الديانات ويعلمون أن الله أرانا
التدرج في المعجزات والترقى فيها من المحسوس إلى المعقول شيئا فشيئا حسب ترقى
عقول الأمم المتتابعة فكل أمة جاء لها نبي تكون معجزاته على مقدار استعدادهم - ولا
جزم أن التعليم يكون بالحجة فالوعظ فالجدل فالتهديد والتخويف فالهلاك فمعجزات
الانبياء الأولين كانت للمرتبتين المتأخرتين ولذلك كان يعقب هذا هلاكهم كما في قوم
نوح والذين من قبلهم ومن بعدهم فقد جاءت شرائعهم ولم تدم أما نبينا صلى الله
عليه وسلم فجاء بالثلاثة الأولى غالبا لأن شريعته دائمة إلى آخر الزمان ولن تدوم إلا
بالحجة والبرهان الذي هو القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فهكذا فليكن
نظام المدنية الاسلامية لتطابق فعل الخالق في الكون والديانات ونفس ديننا القويم
ولعلك تقول ما الذي تريد بهذا التغيير - أتريد أن تحلل الحرام وتحرم الحلال أقول
كلأفأنه كفر ومناف للشريعة التي نتمدح بها وإنما أقول أعلم إن هذا الدين أصبح
محبوباً عن أهله بغواش غشيته وجهل طمس على القلوب إن هذا القرآن الذي هو
أساس الدين أصبح الناس في غطاء عن فهمه حتى انطبق علينا الآن معنى هذه الآية
(الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) وها هو
الآن والحق يقال أننا لا نستطيع سماع القرآن ولا فهمه لدواع تبدت وأمر حدثت
فأحدثت تقلب القلوب والأبصار فترى العالم إذا قرأ التفسير يجعل جل عنايته في
تطبيقه على النحو والصرف ولولفت ذهنه إلى المعنى لم يجد مساعدا من نفسه للتلاوة
لما ركز في نفسه من الصغر واعتاد عليه أن يقرأ ولا يفهم بقصد الثواب كما يقرأ العامة

وغوغاء الناس (كأنهم لا يعقلون) . وما زاد الأمة بلاء وجهلاً أنه ركز في عقولهم
تقليداً أن الأحكام الفقهية هي ثمرات القرآن مع أنها ثمرة نحو (١٥٠) آية لا غير
وبقية القرآن وهو ينوف عن ستة آلاف آية ما بين عظة واعتبار وأمثال وقصص
الأمم وسيلستها ومنتذرات هلاكها ونظام الكون وحكمه لينظروا فيه فيفقهوا
لم خلقوا وما هي نظام المدن ويعيشوا عيشة لأحرار فالاعتصار على جزء من ثلاثين من
الدين وترك الباقي إمامة للعقول وإضعاف للهمم وزاد الطين بلة ما تناقفه الأصاغر عن
الأكابر أن المدار على فهم تلك الشرح والحواشي المعماة نعم صدقوا فأنها تشخذ
الأذهان ولكن في أمور عرضية لاجوهرية وياحبذا لو كانت هذه القوى في نفس
القرآن والحديث والعلوم الكونية والصنائع البشرية والنظم والسياسات فتصبح
معالم المدنية واضحة وأعلامها منشورة على أرجاء الإسلام ولقد زادهم بهدعشقاً أحاديث
جاءت في فضائل السور موضوعة لجلب الرزق وصرف الضرر مما جعل المقوم يقرأون
غاضين الطرف عن المعنى مع أنه إنما جاء للذكر والايفاظ قال تعالى (كتاب أنزلناه
إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فتأمل كيف جعل نتائج
البركات هي تدبير العقلاء وتذكر خواصهم لمعانيه ولقد شغل كثير من القراء بأن يجعل
القراءة وسيلة إلى قضاء الحوائج وأما المعنى فإنه مهجور حتى يحق لنا أن يقول الرسول
نبينا عليه الصلاة والسلام ما قصه الله (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا
القرآن مهجوراً) إذ الألفاظ وحدها ليست مقصودة فتمى هجر المعنى فسيان الألفاظ
وعدمها عند التحقيق نعم نحن لا ننكر أن القراءة بلا معنى لها قوائد وثمرات وثواب
ولكن تكون كما قال الله تعالى (أتستبدنون الذي هو أدنى بالثدي هو خير) فمن ترك
الأعلى وهو المعاني هنا واستبدلها بالأدنى وهو مجرد التبرك مع الضباوة في الفهم
فقد استبدل الأدنى بالأعلى بل الجواد الذي يوضع عليه الاكاف ويحمل حمل الحمار
فيه نعم ولكن ساء مثلاً القوم الجاهلون ويكنى هذا مقتناً وغبياً وتقر يماً وذمما قول الله
تعالى (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل

القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

فتأمل هذا المثال لتعلم كيف جعل من قرأ الألفاظ بدون معنى كالحمار يحمل الكتب وهو لا يقرؤها لأنه غير عاقل ثم لم يقتصر على ذلك بل قال بس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله

ثم انظر كيف ذكر الحمار هنا وذكر الكلب في مسألة بلعام بن باعورا الذي علم ولم يعمل إذ الكلب أقرب إلى الفهم من الحمار ولكنه لا يرجع عن طبعه ويجرى على شهواته ولا ينفعه معاشرته للانسان وذوقه فضرب الحمار مثلاً للجاهل والكلب مثلاً للعالم غير العامل فما أرق هذا التعبير وما أظفه

ولقد سألتني شاب من ذوى الفهم قائلاً أهذه العتاقة التي يقرؤها الناس تنفع الميت فقلت له اعلم أن أحاديث كثيرة وضمت لمثل هذه الأمور وولع بها الناس وانظر كتاب الاتقان في علوم القرآن وما ذكره الشيخ السيوطى هناك من أولئك المتصوفين الذين وضعوا هذه الأحاديث قائلين نحن قصدنا بها صرف الناس عن الفقه الذى شغلهم الى القرآن

ولقد أرادوا خيراً لصلاحهم فوقعوا فى خطأ مجاهم إذ أصبح الناس يأخذون القرآن مجرد لفظه لأمعناه فيكررون سورة قل هو الله أحد مائة ألف مرة وهم لم يفهموا حكمة عالية ولا علماً نعم فى هذا ثواب كما قلنا ولكن أين الثرى وأين الثرى . فقال لى لقد تبطت همتى عن إكمال عتاقة بالصمدية فقلت له هل أدلك على عتاقة تنجيك من عذاب أليم فقال بسرور نعم فقلت امسك المصحف واقرا الجزء الأخير من القرآن أى من سورة النبأ إلى الفاتحة وافهم معناه بتفسير سهل وكرره مراراً مع استعمال المعنى حتى يرتسم فى ذهنك ثم هب ثواب ذلك الى الميت فذلك خير من القراءة بلا معنى ويكون نوراً لك وتقريبك فى الدارين فرأيتته سر بهذا سروراً ظاهراً وانشرح قلبه وشرع فى العمل . ولقد جاء بعض أهل العلم وقال ذكر القرآن وبركته فى مجلس فقال بعض العلماء الحاضرين كيف تذكر البركة والله تعالى يقول (كتاب أنزلناه إليك مبارك

وكان القائل أكبرهم مقاماً وأعظمهم قدراً فصنق له الحاضرون وطربوا
فقلت له بعدها ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب مع ظنهم أن البركة إنما
تكون بالتأمم والرقى وهذه العادة زادت رسوخاً بكتب الروحانيات فقد أدخلت
كثيراً من الآيات في علوم الطلاسم وحساب الجمل ونحو ذلك مما دخلها الصائبون
علينا وجعلوا يس تقرأ أربعين مرة مع شروط وأحوال ليست هي المقصودة بالذات
من إنزال القرآن

وكما اقتصر القراء على ألفاظ القرآن تراه كثيراً ما يقرأ على الأموات وفي الطرقات
كأنه قيل أن يقرأ على الأموات الذين لا يفهمون فنحن وهم سيان حتى أن العامة يحملون
قوله عليه الصلاة والسلام - اقرأوا على موتاكم يس على القراءة على القبور مع أن
مراده عليه الصلاة والسلام القراءة على المحتضر ليتذكر ما فيها من الحكم والعجائب
ويتفكر في خالقه فيموت موحداً . وعلى هذا صار القرآن حرفة للارتزاق ولما انطلق معناه
على الإفهام أصبح لا يسمع إلا بصوت حسن إذ هو المقصود لامعناه فانا لله

ولقد سرى الوقوف على الألفاظ والظواهر في كل شيء فترى قواعد العلوم
العربية معتنى بها وإذا قرأ متعلم قصيدة وطالبتة بفهمها أو حلماً مجز وإنما يأخذ في
الأعراب ويضع زمانه ويخرج صفر اليدين وبالجملة فالألفاظ هي التي لها السوق الرابع
حتى أنك ترى الحريري جعل مقاماته كأنها كتاب غريب اللغة لا يفيد الأمة كيف
تكون الأفكار

ومما يقرب من هذا أن الشعراء كان جل قصدهم مدح الملوك ولم يعولوا على القصائد
التي ترفع الهمم إلا قليلاً وما الانشاء والشعر إلا ما خرج من وجدان القلب فيؤثر على
القارىء والسامع كما كان مؤثراً على المتكلم كما ترى في تأليف الجاحظ في الأدب
والسكالكى في العلوم العربية والغزالي في الأحياء أما هذه الحواشى والشراح والمتون
فهي مغلقة صعبة يجب استبدالها بأخرى أسهل منها لفهم القواعد ثم يتعمق في البحث
لأسيما في العلوم العالية فهذا الذى ذكرته في الكتب وفهم القرآن من أجل ما يجب أن

يغير ومن ذلك الصنائع والعلوم المهجورة التي هي غذاء الأمة فلم تترك هذه ولا ريب أن علوم الدين دواء فلم تقتصر على قشر الدواء مع غفلتنا عن لبه (ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين)

ولما صعبت الكتب فيها وتعاصت العبارات أصبحنا نرى أهل العلم يظنون أن الانسان مني قدر على فهم العبارات فقد أضحي عالما مع أن القدرة على فهم العبارات شيء والفهم والتضلع من جميع العلوم النافعة شيء آخر حتى كان يتخيل الانسان أن العرب الجاهلية يفهمون العلوم أقرب من غيرهم بسرعة فائقة مع أن اللغة شيء والعلوم شيء آخر وما اللغات إلا طرق لتوصيل المعاني الى الأذهان وياليت شعري كيف تصبح الكتب التي هي معبرة عن أحكام القرآن والحديث أصعب منهما بكثير مع أن الأصعب لا يفسر الأسهل بل الأمر بالعكس والأعجب من هذا أن المؤلفين يتنافسون في تصعيب العبارات حتى استغلفت العلوم ولم يظهر من معاني القرآن وإشاراته في الكتب إلا كما ظهر من جرم الفلك على جسم السمك فاذا قرأت حديثا أو آية وجدتهما في غاية السهولة وإذا قرأت عبارات المؤلفين وجدتها على الضد من ذلك . ولما تبادى أهل العلوم على هذا الفكر وتوارثوه ظنوا أن صعوبة العبارة هي أعظم ما يقصده القاصدون فتراهم يتركون الحديث لسهولته ولا تلتفت أذهانهم الى ما فيه من حسن الأسلوب وذوق المعنى اذ ليس مما طبعوا عليه من جمود العبارات بل ربما ظنوا المؤلفين أكثر تدقيقا وأقدر وان كانوا يتحاشون النطق بذلك فهذا تراكم السد بين أهل العلم والقرآن والحديث وان حضروهما مرارا ولم يبحثوا إلا على العبارات المستصعبة ونبدوا كل سهل وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

ولما تبادوا في هذا أحبوا أن يعمموا الحكم في جميع أحوال الدين فقالوا ان القرآن لا يفهم ولا يفسر إلا بعد المشقة وعليه حرمت جميع الطبقات من فهمه مع أنه تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

وياليت شعري كيف تقرأ الجغرافية وتفهم باللغة الانكليزية والفرنساوية في المدارس

الأميرية ويصعب القرآن ويتعاضى عن الفهم أم كيف تكون اللغة الفرنسية والانجليزية أسهل من اللغة العربية التي جاء القرآن أسهل منهما حتى قال (ولقد يسرنا القرآن للذكر) بهذا وأمثاله ضاع الاسلام وتفرق أيدي سبا وذهبت الدولة يقوم رعاكم الله أليس النصارى يقرءون إنجيلهم ويفهمونه فيأخذون المعنى من العبارات بلغاتهم فتهدب الاخلاق وتنمو العقول أليس القرآن أحق بذلك .

نعم ان في القرآن اشارات لعلوم كثيرة مثلاً قوله تعالى (والشمس تجري لمستقرها) لا تفهم حق الفهم الا بعلم الفلك ولكن هل هذا يمنع فهمها على طريق الاجهال حتى تحث القارىء على تعلم هذا العلم ومن العجيب أن كثيراً من أهل العلم إلى الآن يظنون أن مثل هذا العلم لا لزوم له فان قيل له أن هذا يحث عليه القرآن تراه يتلعم في الجواب ولعمري أن القوم في أطوارهم جميعاً متناقضون متشاكسون أفمن هذا الحديث يعجبون ويضحكون ولا يبكون وهم ساجدون

ومما يزيد العين بكى والقلب حزناً ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يذكرون الا مقرونين بالتواضع المفروض وأما تلك الحروب والشهامة العربية فلا ذكر لها الا عند تدريسها بعد ان تتمكن صبغة الضعف في النفس ويذهب منها رونق الشجاعة وعلو النفس واحترامها واعتبار الحياة اعتباراً حقيقياً مع ان هذا الدين ما جاء الا بالتوسط في كل شيء (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) فإين نحن من هذه المعالي والاخلاق والحكم والنصائح وعلو النفس وليس لهذا دواء الا أن يذكر النبي صلى الله عليه وسلم دائماً هو وأصحابه بصفة الحاسة وعلو النفس والمحافظة على الأمة واننا نقتدى به في أعلامها وتشريفها

والأدهى من هذا كله والأمر أنه دخل على علمائها وثبت في أذهان كل متعلم أن النظر في شؤون الأمة من الفضول وأنه ليس على الانسان إلا شخصه مع أن شرف الانسان في الدنيا والآخرة موقوف على نفعه العام لقومه والذي أراه أن هذه الدسيسة بثت في الأمة أيام تفرقها بعد صدر الدولة العباسية. ورأى الملوك أن العلماء بنصحائهم

يفسدون عليهم ملكهم فتحاشى العلماء عن النصائح والنزوا في الزوايا والمساجد والتكايا وأضحوا لا ترى إلا أجسامهم وتركوا الامر في يد الحكام يديرونه كيف شاءوا ومن آثار هذا أنك ترى الخطب المؤلفة في تلك الأزمان التي لم تنزل معمولا بها إلى الآن مقتصرة على ذكر الجنة والنار ويتركون كل ما به اعلاء الامة واتحاد كلمتها فيقوم إلى متى هذا الانحطاط ألم يأن لنا أن نغير هذه الخطب وهؤلاء الخطباء ونستبدلهم بقوم عالين يعلمون ما يقولون انما الخطباء قوم لهم شعور يقولون ما به يشعرون أصل الخطب انما تكون للأمرء والملوك يسوقون الناس إلى ما به صلاحهم في الحياة الدنيا والدين فيسعدون في الدارين ويقولون (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

هذا اجمال ما يجب تغييره ونسخه من الامة على التدريج كما جاء النسخ في الآيات والاحاديث والشرائع السماوية مع بقاء العدل والتوحيد وهذه كلها تنسخ مع المحافظة على آداب الدين وحفظ نظامه

فصل الثامن

فما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

اعلم أيها الذكي أني أكتب هذا وأنا منشرح الصدر واسع الأمل واثق بالمستقبل القريب أكتب هذا اليوم بعد الظهر يوم السبت ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ أكتبه وأنا قرير العين بما قرؤه في الجرائد من تقارب أمرء العرب وأمرء الاسلام عموما هاهو ذلك الأمير فيصل يزور الأستانة ورئيس الجمهورية التركية يقابله خير مقابلة وهاهو ذا الامام يحيى إمام اليمن يقابل الود العربي بمثله والوفود ذاهبة اتية بين هؤلاء الأمرء وهكذا ملك الأفغان كل هؤلاء وشاه العجم جميعا يتبادلون المودات والتحيات هذه هي الحال التي طرأت على الاسلام لم تكن كما نراها اليوم بل الأمر

فوق ذلك هذه اليابان وأمم الصين والهند وجميع ممالك الشرق ساعية للاتحاد اللهم ان الأمم كلها أشبه بجسم واحد ولكنهم إلى الآن لا يعلمون ذلك بل الانسان اليوم أشبه بطفل بعد الفطام فهو حائر دائر لا يدري مصيره (وإلى الله عاقبة الأمور ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)

الفصل التاسع

في الكلام على سياسة أوروبا واستطلاع علومها

لم يبق أقل ريب في ان الأمم اليوم كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا وقد جمعهم البرق والبريد وسفن البحر وقطرات البر فلا مناص من التداخل والتزاحم
 لاجل حياة أمة جاهلة ليقرأ المسلمون علوم أوروبا كلها ففريق لعلوم الطبيعة وفريق للرياضيات وفريق للسياسة وهذه فروع كثيرة توزع على الأفراد ولا يتركون أمة إلا نقلوا علومها على شريطة أن يجعلوها مقبولة في أحوال الأمة وعوائدها لأن الجاهلة اليوم لاجل حياة لها .

الفصل العاشر

قصص القراءان وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى

عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية

وفيه خمس مقالات

المقالة الأولى

الانسان في حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فإما أن يكون مكبا على وجهه أو يكون سويا على صراط مستقيم
 كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبوان أو الأقربون أو الأخدان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربي مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير

قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام ٣٠٧

أو الشر . ويقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرفا للسعادة أو الشقاء والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان في سيره في نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الأصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولا جرم أنه يسد عوز الحكيم إذا عقل في سيرته الشخصية والمنزلية أما سيرة المدن وتقلبها فمرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهي توازيخ الأمم الغابرة فهي المنظار المعظم تدرس بها الاخلاق في شكل بهيج جميل

لعمرك ليس كل تاريخ يعنى (وما كل مصقول الحديد يمانى) فقد يستمن ذو الورم وينفخ في غير ضرم يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر الا في آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر الحوادث بروق بهيج ونواتجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارىء من بساطتها مقتطفا من رياضها أزهارا وجانيا من أشجارها أثمارا ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لا سيما المصريين وقد كان فرعون يقول (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون)

ذلك تذكرة للكاتب والقارىء . لأننا نعلم أنه لم يكن ليجمع حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارىء رواية أو يقتل به الزمن كلاء كيف وهو تعالى يقول (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارىء التاريخ حال غيره الى نفسه ويعبر به على سفين الألفاظ الى جلبلانه ويقول تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ويقول جل وعز (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام (ما تحت الشمس من جديد) ويقول علماء العصر (التاريخ يعيد نفسه)

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعاداً عن أسرار البلاغة

جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل مثل

مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازها ومراميتها وأحوال العرب عامة تنطق بها

فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها أو المعاني دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام (شيبنتي هود وأخواتها) وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصاً تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام وتشير في القلب حمية وإقداماً أو خيفة وإحجاماً فزال المرء ورفع الغطاء إن الخبر في مغزاه كالسهم في مرماه فلنبداً بعد هذا بما وعدنا ونذكر ثلاثي الأئم في قصص فرعون وموسى عليه السلام

المقالة الثانية

أشرنا في المقال السابق الى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنتفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم إلا أنهم كانوا في ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبي الله ادريس السمي بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طبيبياً ومهندساً وأهياً وورد أنه أول من خط القلم فاقبس المصريون الحكمة المطهورة الآن في النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا في ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثراً للجلاله ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخي الزمن وبقي التوحيد سراً مكتوماً عند حملة الدين وحرموا العامة منه فأرسل النبي موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فتجع في الخاصة وهم القليل وآمن بنوا إسرائيل وبقي المصريون في عمائتهم وجهلهم مع فرعونهم (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فأجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الآشوريين وأحاطت بهم سرادات الفارسيين فجاء قبيز فلعمرك ما سدد سهمه عليهم فاصابهم وأقصد بالقلب إلا بقوس من شعائر دينهم

قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه وسأ ٣٠٩

عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قبيز بين الجيشين فتخرج المصري عن قتلها فصاحبها وأصابه قبيز فملك وقتل وسبا وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورهم اسكندر المقدوني وبعده البطالسة فانرومان الذين استباحوا ما حرمة الظالمون قتلوا الأبرياء واتهكوا الخرمات وغالت الأمة غوهم وجاء عمر مهيمنا عليهم بمجنح الرحمة وأسدل ستاراً من العدل وحرسه بجنود من الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بتقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوصمه بما وصم أمام الصحابة رضى الله عنهم فى قضية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسى

كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينا ولكن جئت فى الزمن الأخير

وأكثرهم أئيد يد الفاتحين الظالمين وحققت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى

عن إدريس النبى عليه السلام

يا مصر يا مصر ستركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب

رجالك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحبارك

والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر

كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون

وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى

الكتاب لعلهم يهتدون)

العبرة فى هذا ان الأمم لها باب ترتقى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لا بد لها

من إصلاح فاما أن تنعظ الأمة بالمرشدين الناصحين وإلا فلا مناص لها من السير

على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصيبة المهينة الفاتكة وإن الأمة اذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهي دابة كل راكب خادمة كل سيد طفلة كل مرب زوجة كل بعل وكالم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والأشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم عدا عليهم جبار فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فمادمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكايين فريسة القابضين ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيين والألمان فليس لنا في ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله إنما ينزلها للمحسنين عملاً (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما سحقتهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض فانظر كيف كان عاقبة الجامدين أما أهل مصر الحاضرون فما غشيم ما غشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها وهم وان نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة في عرب البادية المصرية وتقل في الفلاحين وتضعف في أهل الأمصار والمدن الكبار إلا في أناس ارجعها لهم التعليم إن صح فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التي قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغايرين هذه أمة عربية ظهرت منذ قرون وتتابع في هذه الديار زمراً زمراً زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وإن ما في البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم فاذا قيل مصر بقيت في الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكماً علينا كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين اتقروا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقى في أقرب الأزمنة متى تعلموا وسندكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهي جنين وكيف تشب وهي طفلة لعبوب

المقالة الثالثة

في انشاء الأمم

(١) سبق القول انا سنسبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهي أجنة في البطون في مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لا يحصى عنها للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكأنسان طفل فشاب فشيخ فميت وكالسنة ربيع فصيف فخریف فشتاء فموت كسير القمر توليد فربيع فبدر فربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على شوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل باند مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات في الافلاك أو بالولادة في العناصر. ان الزوجين من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلا مناص منه لجمهور شأوا أم أبوا فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها بما تحت سيطرتها ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة في الوجود وتدمج سواها في جسمها فلا تلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدي الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهورون (وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وما كان من تمزق الرومان بأيدي الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دوة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذوقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم في عصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر (وتلك الأيام نداؤها بين الناس) هذا وليس رقى الأمم بلا موجب فارقي أسباب وللتدلى أسباب ولقد فصلنا القول في أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذ هما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا انها ذكرت في الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصا ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغاير والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة (هو الذي جعلكم

خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقد استخلصنا أسباب الرقي اذا هي عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ما عنده من الهبات والمنح العشرة اولها أن تمنح الأمة رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فاخلصوا في أعمالهم لأمتهم وجادوا بما لهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لاريا، ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام في سقي الفم اذا (قالنا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) فرفع الحجر عن البئر (فسقى لها ثم تولى الى الظل) وكان ما كان من زواجه باحدى الأبتين ورعيه الفم ١٠ سنين وكما أقام الخضر الجدار لليتمين بانظاكيه وقد أبى القوم أن يضيفوها وما كان ذلك إلا عملاً أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(٢) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما في الامكان واجتذابها اليها بما تحمل من العلم والمعرفة كما وقع للنبي موسى عليه الصلاة والسلام إذ حو طب (اذهب انت وأخوك بأيتى ولا تلبيا في ذكرى اذهبنا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) الى أن قال (فارسل معنا بنى اسرائيل رلا تعذبهم قد جئناك بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) فجمع بين الارشاد واللين في القول والشفاعة في قومه وهذا واجب شرعاً على كل من أوتى حكمة في القول وجاها وعلماً وقدرة أن يتذرع بها الى الامم المسيطرة على أمته ليربهم وجه الصواب والخطأ ويسعى في علو شأن أمته لهذا نزل القرآن لا تنفيا أو إعراباً فحسب أو تاريخاً ومن أعطاه الله حكمة أو جاها فانتبذ من أهله مكاناً قصياً عاكفاً على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفاً حكمة عامة الأديان

(٣) القوة العلمية واقتناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد يشير إلى الاولى قوله تعالى في موسى (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم

الارض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فهذه براهين تعقلها القلوب انواعية والانس الرقية وهي تشير إلى ما يعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء، وتم تلقت عصاه افك السحرة وأخرج يده فاذا هي بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٤) الانفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الدمار وخوف العار بأزالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى (فوكزه موسى فقتل عليه) وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذلق الخضر الغلام كأس لحام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فرامة بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان فهذه اشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح فهذه أشجار هذا زهرها وأثمار هذا طعمها وفا كفة هذا حلوها

(٥) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتي هي أحسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بحرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وهكذا أم موسى وضعت في التابوت لنجاته (فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

(٦) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر الم تركيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق (وجاوزنا بنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون الخ) هذا فى العلم وفى المحاربة قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال ربى إني لأتأسك إلا نفسى وأخى) وبهذه اعطى نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلهم ولو وحدى وليس قصدنا من هذا الا الثبات على المبادئ الشريفة وانتهاج خطة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعادل أو ناقم

(٧) اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وان لم اتصلا بمبدع العالم ولهم شرف.

وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بني اسرائيل في القرآن بهذه العبارة (واني فضلتكم على العالمين) تذكرة لهم في زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرأه وهي ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخذى كيف وهذه الأمة عموماً وجهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الارض مدنوا العالم منا الامويون والعباسيون والفاطميون وما الطولونيون والاششبدون إلا موالى أبائنا وما المالك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلا من موالى اسلافنا ولقد أدركت القوم في القرى ايان نعومة أظفاري وهم يفخرون بقرا الضيف وضرب السيف وينشدون الاشعار الحماسية وما عهدا كتساح التتار بملائى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون بعيد

ولعمري لأن تمتلىء النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقدا ما خير من أن تراها ذليلة منكسة الاعلام مرتاعة الافئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

(٨) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتريص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقضوا ويموتوا كما وقع ببني اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا في أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبارة (قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين)

(٩) الفرار بالأهل والعثيرة والأمة من حال تديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ألم ترالى موسى عليه السلام كيف مر ببني اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للأولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام هذه العشر متى ظهرت في أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهي عشرة سنذكرها في مقال آت ان شاء الله تعالى

المقالة الرابعة

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال اخلاص العمل لأمتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أمتهم ومن غلبوا على أمرهم وما من أمة من الأمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخاصوا بلادهم في العمل رغبة في حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا في العلم أو الثواب الجميل والشوق إلى مبدع الكون وتقليده في صنع الجميل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الدمار ودفع العار متى أمكن ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوه الموت الزؤام فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة في بني اسرائيل ومع هذا فلم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأدنون وأشعار النفوس بمكاتها وشرفها فلا ينبغي أن تصفى الأمة إلى من يصفرها في عينها ولقد قال ابن خلدون رحمه الله ان هؤلاء الذين يسكنون الخيام في البادية هم ملوك الأعصر الفائرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول أننا قبائل نرحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناتها وتغلبنا عليها من آمام وأجيال وهذه لا تقتضى أن يضرب علينا الذل والمسكنة ولا يقال في مصر (وهى لمن غلب) فانما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت (تلك أمة قد خات لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تستلون عما كانوا يعملون) وتربية النشء على المبادئ القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو أخلاقا أو ملكا الخ هذا ملخص ما ذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التي قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلا ترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الإلهام وذلك يكشف الغطاء عن العقول فتتنظر لهم وجوه المنافع ومساوى

المضار فان النفوس إذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة زوحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حلهم وما لهم واليه الاشارة بقوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وهذا وإن كان بلا كسب ففيه اشارة الى ما نحن فيه (٣) اجابة الدعاء والنصر (قال قد أحييت دعوتكما فاستقيا) (٣) شد الأزر وتقوية الأفتدة بالأخوان والأنصار قال (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطانا فلا يصلون اليكما آياتنا أتيا ومن تبعكنا الغالبون) (٤و٥) النصر وانجاة من الضر (واقدمنا على موسى وهرون ونجيناها وقومها من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) (٦) الهداية إلى الطريقة المثلى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناها الصراط المستقيم) (٧) حسن السمعة والذكر والصيت (وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزي المحسنين) (٨) القربى من الله تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) (٩) التمكن من الخلافة في الأرض (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ألم تر الى حديث رجل من آل فرعون (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أقتلون رجلا أن يقول ربي الله) الآيات فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على السعوة ان قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه واعمرك ان في هذا لبلاغاً للأمم المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أو جاهاً أو حكمة وعلماً وجب عليه وجوباً عيقياً أن يقوم فيناضل عن أمته بماله أو جاهه أو قلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادي مواليا وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورتقى أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ولما جاهد بنو اسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر في التلاشي إذ ذاك

ودوختهم الأمم الغيرة الفاتحة من فارس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة
(وتمت كفة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون
وقومه وما كانوا يعرشون)

المقالة الخامسة

في عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها

لما نظر المؤلف البحر الابيض وهو في بور سعيد

دع نبي اسرائيل وأخبارهم والمصريين وآثارهم وسر بنا رويداً الى ساحل البحر
والرياح عاصفة والأمواج مصطفة متتابعة كتائب ذات عجيج وزئير تسير جحافلها على
سطح الماء تستلج صم الحصى وتلتزم أركان الشاطئ، ذهبية الأصيل وما أمامنا الا الماء
والسما والهواء يزجي السحاب فيمور مورا ويشير الأمواج فتنبئ طودا وتحفر سر باوغور
قف بنا ننظر غروب الشمس في هذا البحر وكيف اقتنصها وهو ذرة صغيرة
بالنسبة لها . وأطلق نفسك سراحها لتجول في عالمها وعاطفها كئوس العلم في رياض
الفكر عليها تروى صداها وتشم شذاها فتسير في الأرض سيرة وتدور في الفلك دورة
قف وفكر فالعلم غذاء والتاريخ والعمران دواء . أيتها النفس فيم تفكرين وأى
مذهب تذهبين !! هذا البحر المحيط أمامك والشمس تنظر إليه باسمه وقد آذنت
بالرحيل مودعة تشير بطرف العين وراحة السحاب « السلام على العالم » « السلام على العالم »
نظر الشعراء . ماذا تنظرين أيتها النفس . أنتظرين نظرة الشعراء علماء الخيال
الناظرين للجمال يتخيلون تيجان ألماس مكللة جند الأمواج ويسمعون أنغام الموسيقى
الناجحة من هبوب الرياح فيناجون الأرواح العالية فتنزل عليهم وحى المعاني الجميلة
فيصوغون من صفاء الماء ولطافة الهواء وزرقة السماء وذهب الأصيل صوراً تنعكس في
خيالهم عن عالم المشاهدة فتسمها شعرا كالدر ونثرا كالجوهر . فان تصور صورة
الصبا قال :

يأبها الرشا المكحول ناظره بالسحر حسبك قد أحرقت أحشائي

ان انفاسك في التيار .حقق ان الشمس تغرب في عين من الماء
وان رجع وأناب وذكر الشيخوخة قال :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى
وظلوعها حراء صافية وغروبها صفراء كالورس

نظر الكيماوى :ماذا تنظرين أيتها النفس؟ أنتظرين الى ما أحاط بالكرة الأرضية
من الماء والملح ممتزجين فتجزئ ذراته وترجميه الى أصله وتحليله الى عناصره فلا يرى
هناك إلا مواد حارة هوائية طائفة وأخرى باردة تطاردها في الهواء والأولى هي
الاكسجين والثانية هي الادروجين . ومن عجب أن يكون هذا الماء من مادتين
هوائيتين لطيفتين لا يراها الراؤون ولا يتخيلهما الحادسون تضادًا وطباعًا واتفقًا لطافة
أولاهما محيية بحرارتها وثانيتهما مميتة ببرودتها فكونتا هذا الشكل البهيج للعالم . طالما
قرأنا في الحديث أن البحر نار في نار فلا نذوق له طعما ولا ندرك له فهما فظهر الأمر في
المكتشفات الحديثة أن الماء $\frac{1}{8}$ ثمانية اتساعه المادة المحرقة (الاكسجين) وذلك في الوزن
قطر . وفي حديث آخر تحت البحر نار فظهر أنها تلك الكرة النارية المخلوقة قبل
الأرض وقودها المعادن والكبريت والزئبق مداخلها جبال النار (البراكين) فأندتها
اعداد المعادن والآلات والصناعة والزينة لمن بعدنا من الأمم وباليات شعري كيف تكون
من الحار والبارد هذا الجوهر اللطيف وهو الماء فأخرج به جنات وأعشاب وفاكهة وحيوان
وانسان وسمع وبصر وعقل وحكمة

نظر المؤرخ : أم تنظرين الى سطح هذا البحر العظيم وما تحمله الجوارى
المنشآت فيه كالأعلام كأنها مدن بنيت أساسها العلم صنعا والماء وضعا طيرها البخار
في البحار وكلها البرق في أسلاكه والأثير في خفائه وغيابته كأنها وقد جالت في البحار
(إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) عجبا هذه السفن الذاهبة الآتية للتجارة
والربح والحرب والسلم . ارجعي أيتها النفس إلى القرون الماضية والأمم الفائرة والدول
البائدة فكم لهم من غدوات وروحوات هناك ترين سفن الفينيقيين وجوبهم هذا البحر

والفرس وقببزم الظلوم ، حمله هذا الموج فخذ الشوكات النافذة وقلم الأظفار الخادشة وأنزل الملوك والفراعنة عن عروشها . وكانك بالاسكندر المحب في رعاياه يحوب العباب ويقطع الصعاب وهو يهد شامخات الصروح ويبنى المدن ويشيدها . وترين البطالسة وترفهم والرومان وغلبهم والامويين وفتوحهم والعباسيين وعلومهم وأمم الترك وما وراء ذلك من دول وملوك وأساطيل وجنود الاسبان (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذرى للبشر) مروا سراعا ولولوا تبعاً وقلبوا وجه اليباسة كما قلب هذا الهواء لطيف الماء فهاج الناس وماجوا كما يموج هذا الموج ثم تولت دولهم وذهبت أيامهم كأن لم يغنوا بالأمس

أين الملوك التي كانت محجبة من دونها تضرب الأستار والكلل

نظر الطبيعي . أم تتأملين الاضواء وتركيبتها وجمالها وكيف كانت سبعة ألوان تمازجت واتحدت وصورت شكلاً بهجا نصر اللون في الأودية والجبال والبساتين والأشجار والماء وأظهرت محاسن الصور الانسانية . ولولا الضوء ما كان اللون وظل العالم سواداً في سواد ثم نكر كرة عليه فنقول . أعرض هذا الضوء كالألوان والطعوم والروائح تابع لغيره لا استقلال له كيبياض الأبيض وجمال الجميل أم هو جوهر كالأجسام يأخذ مقداراً من الفراغ وإذا اخترنا العرضية وبندنا الجوهرية فكيف ينتقل من الكواكب اليانا ولا استقلال للأعراض فكيف حركتها ونقلها وكيف جاءنا ضوء الشمس في نحو (٨) ثمان دقائق مع أنه كاليبياض لا حركة له إلا بحسبه وإذا رسمناه جوهرًا وقدرناه جسماً فما الذي أذهب من العالم إذا توارت الشمس بالحجاب وضربت عليها القباب وهل تذهب الثمرة بذهاب الشجرة أم الولد بموت أبيه ؟ كلا ! ! !

قفي أيتها النفس في حيرتك فاذا لم يكن عرضاً ولا جوهرًا فلا وجود له ! كيف هذا ونحن نشاهده بعيوننا بل لا حياة لنا إلا به . لا . إنما الضوء حركات في الأثير وموج كأموج الصوت في الهواء هذا آخر ما وصل اليه عقل الانسان أم تنظرين نظرة الفلكي للشمس وانها لا تزيد على مقدار دائرة صغيرة في نظر

العين ولكن العقل أكبرها فنظرها العرب واليونان فأوصلوها ببراينهم الى ٦٠ أو ٥٠ ضعفاً قدر الأرض وأوصلها علماء العصر الحاضر الى مليون و ٣٠٠ الف مرة مقدار الأرض .. ما أعجب الانسان وأبدعه أرى بعيني هذه الشمس صغيرة فكبرها العقل فتتضاءل علومها ومعارفها

نظر الحكيم : عجباً لك أيها الشمس . كيف صغرت أيها الكوكب العظيم في العيون وما الذي أنزلت من سماء عظمتك وأنت سيد الكواكب السيارة حولك عطارد والزهرة والمشتري وزحل وأنت أنت الملك العظيم أنت الهيكل الكبير عبدك الأولون وسجدت لك الفراعنة الأقدمون جلست على عرش عظمتك في سماء جلالتك بما منحك منشك ومبدعك من القوة والعظمة فياليت شعري كيف حركتك العيون وأنت في سكون وكيف صغرتك الظنون وأنت ذوى الشئون لا لأنا لا أعجب منك أنت إنما العجب من نفسى اذ النفوس الانسانية أعظم منك وأجمل وأبهى وأبهر فانها بما لها من السلطان عليك والقهر والعظمة بما أوحى اليها من سماء العرفان وما أودع فيها من الحكم والحواس استنزلتلك من سماء عظمتك وأغرقتك في البحر فتركتك كالدينار ملقى في الماء فوسعتك البحر وأنت عظيم وأدركتك العين وأنت كبير حتى وقف الاسكندر المقدوني على شاطئ بحر الظلمات وهو جزء صغير من المحيط ورأى الشمس تقرب فيه وما البحر وماؤه في جانب ما في العالم من الأجرام والكواكب الكبيرة الاجزاء حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ممزوجة بالطين أو حامية حارة . أنت أيها الشمس ذلك الذى يرسم الليل والنهار بمقدار ويكون الشهور والأيام أم أنت التى تدورين كالرحا على القطبين فتجعلين نصف السنة ليلة واحدة ونصفها الآخر يوماً واحداً ثم تتناقص الأيام والليالى الى شهور فشهرين فشهر فاسبوع فأيام معتادة على قرب المناطق وبعدها كما رسم في أيام المسيح الدجال وكان ذلك من أعجيب النبوة ومرموزاتها المستورة عن النفوس الضعيفة والعقول الخاملة ؟

ثمرة هذا النظر

أراك أيتها النفس تلمحين من خلال مسطور أنوار العالم نورا وتكتين على الخيال منه سطورا وقفت موقف الشاعر وأوقدت النار للتحليل السكجاري وأمررت الضوء في البلور والنشور مع الطبيعي وتاملت معه في سبعة الألوان في قوس قزح وقطرت الماء وكررت راجعة إلى غابر الدهور مع التاريخي ونظرت الشمس وما رسمه الأقدمون لها لاحارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة وإنما الضوء والحرارة بالانعكاس على الأرض وما قال به العصريون أنها حارة وتركبت من العناصر الأرضية

فيقول الأولون بأنها باقية أبد الأبدين ودهر الدهرين وكذبهم الآخرون من العرب والافرنج وأنها ستمحي من صحيفة الوجود كالانسان وهذا سيرك مع علماء الفلك ثم سبرت الحكمة في العقول والأبصار واختلاف مقادير الأشياء باختلاف درجاتها وعطفت على المفسرين في قصص الاسكندر واشنيت مع الفقهاء في تقدير الأيام إذا زادت عن المعتاد

وهل حظ عقولنا من هذا المجال البديع إلا ان نتعالى بنفوسنا عن الدنيا ونخطو إلى جلائل الأعمال مع عظام الرجال فلتكن النفوس الكبيرة شمس الأمم وبحار الحكم يصدر عنها سحب الطلاب والسائلين ويرد إليها جداول المدح وأنهار الثناء من الشاكرين . لعمرك ما العلوم على تباين أشكالها وتمايز أوضاعها وتكثر فروعها إلا كمال العقول تستعد بها إلى العروج إلى سماء المدنية وترقى الأمة . عقل يحلل الماء ويطيره في الهواء ويحلل الضوء ويحكم ويتصرف أولى بالاحاطة والشمول وانارة السبل والعقول

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

الفصل الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر

في ذكر علو همة الأفراد وتشويقهم وفي ذكر كيفية

التوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفي ذكر

ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه

اعلم ان علو الهمة لن يكون لامرئ إلا بما يرد على سمعه من تمجيد الأعمال التي
توافيه فلا تزال السير والقصص تترى على سمعه شهراً فشهراً وسنة فسنة حتى تتربى في
نفسه الملكة التي استعد لها

ان الله أنزل في القرآن قصص الأنبياء ومن عجيب أمرها انها كلها ترمى لأمر
واحد وهو جهاد فنصر

جميع قصص الأنبياء تبدأ بالدعوة ثم يكون العناء والقتال والعداوة واحتمال
المشاق ثم يتم نصرهم في آخر الأمر وهل بعد هذا زيادة لاستزيد فليسر الناس على هذا
النمط ويسمع المجاهدون آيات الجهاد أحاديث وقصص الأبطال الحقيقية والروائية ويسمع
المعدون للعلوم الرياضية الآيات الدالة على الحساب والفلك والنظام وما أشبهها وسير
العلماء الذين نبغوا في ذلك

وليسمع علماء العلوم الطبيعية ما يسمو بالنفوس اليها والقرآن مشحون بها وهكذا

الاقتصار على علم الفقه

واذا رأينا أمم الاسلام نبفت في علم الفقه لما رأى علماءها من المشجعات عليه
فجهلوا سواه في ألف السنة التي انقضت فأحربهم وقد حدثت لهم مشوقات ومرغبات
في جميع العلوم اليوم وفتح لهم أبواب العلم على مصراعيه اليوم وعلّموا علما يقينيا ليس
بالظن انهم مثابون على كل علم وعلى كل صناعة أكثر من ثواب الذين كانوا قائلين
بعلم الفقه الذين لم يسموا ما يشوقهم لغيره من العلوم وأنا أحمد الله إذ كتب

هذا وأنا مطلع على أحوال المسلمين اليوم وانهم قفوا غبار الكسل والنوم وهبوا من رقدتهم واستيقظوا فأنا أحمد الله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده أنا اليوم أيقنت اني نلت مرادى وهو ان أمم الاسلام حل عقالها وقامت من سباتها وهبت غفلتها وأقبل عزها فأنا أقابل الموت وأقابل الله بعد ذلك وأنا فرح لأن هذه كانت كل أميتى وقد نلتها كما نالها الكتاب الذين يكتبون في زماننا لانقاذ أمم الاسلام

الفصل الرابع عشر

في ذكر حكمة التكليف بالايان بما غاب عنا مما ليس بجرم
وفي توحيد العلوم وان الوحدة فيها نظام كل شىء

اعلم أيها الذكى ان الناس إذا عاشوا بحواسهم الخمس الظاهرة فانه لافرق بينهم وبين العجاوات ولقد وجدنا المتوحشين والمتمدنين كلهم يجدون في نفوسهم اعتقاداً بما هو غائب عنهم فتسمع المتوحش يخاف من العفريت وهو لم يره ويخاف من السحر وهو أمر معنوى وأكثر الأمم مجمعات على الاعتقاد بخالق للعالم قادر وهذه العقيدة عامة وشذ قليل من الناس عنها وعمومها أشبه بعموم الطعام والشراب واللباس فهي ملحقة بالفطرة والحكمة فيها انها نقلت الناس من المحسوسات الى المقولات فأيقظت عقولهم وذهبت بها في حياتهم كل مذهب ان المقولات نتائج المحسوسات لا يعمل الانسان عملاً إلا بعد فكره فيه فالفكر أصل والعمل تبع وأدق الفكر ما بحث في موجود ليس بجسم هو مبدأ كل موجود والله من ورائهم محيط ، واعلم ان العلوم كلها ترجع للوحدة ألا ترى ان علم ما وراء الطبيعة يبحث عن الوحدة وكل موجود يسمى واحداً فالعشرة والمائة والألف وما لانهايته كانه يسمى واحداً فكل موجود نسيه واحداً من جهة ونسيه كثيراً من جهة أخرى فالعالم واحد ولكن عند التفصيل تقسمه إلى أقسام كل قسم نسيه مقولة والمقولات عشر مثل الكيف والكم والمقولات العشر التي قسمت اليها الوحدة تدخل فيها جميع العلوم ولقد وضحتها في كتابي النظام والاسلام فلا تطيل

بها هنا ، واذا كان الله واحداً والعلوم كلها ترجع الى الوحدة العامة في العوالم فكيف لاتكون للمسلمين وحدة تجمعهم . نعم فرقمهم الجهل ولكن اليوم أرسل الله لهم العلم واليوم عرفوا ان كل العلوم يشتمل عليها ديننا فما الذي يفرقهم اذن ؟ العلوم جميعها يطلبها القرآن ومن شك في ذلك فليقرأ كتي لاسيما كتابي الجواهر في تفسير القرآن فاذا قرأه وقرأ غيره أو قرأ هذا الكتاب فلا يسمعه إلا أن يقر ويؤمن بأن العلوم جميعها فروع لدين الاسلام وهذه هي الوحدة الاسلامية فما فرق المسلمين الا الجهل وهذا هو العلم والاتحاد فيه فكيف يتفرقون

الفصل الخامس عشر

في ذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا

اعلم ان هذا الفصل كالتمم لجميع الفصول السابقة

إن السفر على قسمين سفر جسمي وسفر عقلي والانسان اذا سافر بجسمه فرأى بعينه وشاهد بحواسه الحس ما في تلك الأقطار من العجائب فانه لا يتم له النفع إلا بالبحث والتنقيب عما رأى وما شاهد . وذلك لا يكون إلا بالعلوم فالسياحات الجسميه كالتممة للسياحات العقلية

فالعالم الذي نبع في علم يزيد فهما بالسفر والاطلاع والمسافر الجاهل يزيد علماً اذا قرأ العلوم التي تبحث فيما شاهده

والله يقول في السفرين معاً (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعي الأَبصار ولكن تعي القلوب التي في الصدور فقوله أفلم يسيروا للسفر الجسمي وقوله فتكون لهم قلوب الخ للسفر العلمي اشارة أي أن السفر الأول بغير الثاني لا قيمة له والمسلمون اليوم عليهم أن يدرسوا أحوال الأمم شرقا وغربا

وهذا من فروض الكفاية بحيث يكون فى الأمة الواحدة جموع لكل مطلوب لها كافيات لما طلبوا والحمد لله رب العالمين

الفصل السادس عشر

المقالات الأصعبية^(١)

المقالة الأولى

الترقى فى الأزهر

الارتقاء سنة طبيعية فى الكائنات من أدناها إلى أعلاها حتى يشمل الامكنة والازمنة والجادات والناميات والنواميس نفسها . ترى الأمم فى ارتقائها وتعديتها تكون آخرتها خيراً من أولها وشبابها خيراً من طفوليتها فاذا ذهبت وخلفتها أخرى ارتقت عنها فى ظواهر الأحوال

عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبيها فهل تجد هناك إلا أدنى الحيوان إذ لاتصلح للسكنى فان ارتقيت إلى أواسط المعمورة حيث لا تفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والانسان على تمام النوفها هنا ارتقاء فى المكان واذا نظرت إلى العناصر وجدت بعضها أرقى من بعض وتدخل فى تركيب النبات وبعضه أرقى من بعض وهكذا علم الحى الذى ينتهى بالإنسان وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

وكما خدمت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدأت فى الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها فان هبت للعمل ارتقت والافتنذرها بالزوال من الوجود

هاهى الأمم ارتقت حولنا فى جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وهام أغلب المسلمين فى بقاع الارض ليس لهم نصيب من الترقى الا كسراب بقية فياليت شعرى ما الذى أصاب جسم هذه الأمة وأنى مكروب من مكروبات الاجماع

(١) هذه المقالات كانت أدرجت فى جريدة المؤيد قبل دخولها فى هذا الكتاب

فتك بجسمها وما الذي دهي الاسلام ؟ لعمري أن الاسباب لكثيرة ومن اهمها وأعمها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفنا الآن في حيرة لا يدري عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين فكان هذا هو العائق الأعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقى فيها حتى انك ترى الجامع الازهر أكبر كلية اسلامية يعتقد كثير من كبار الأمة وعقلائها ان أهله لو عرفوا غير العلوم الأحد عشر لاضمحل الدين وتقلص ظله وها هنا يحسن السؤال أهؤلاء العقلاء معذورون وإذا اتبعوا خطوات كثير من أولئك الزعماء في ذلك فهل ينجيهم عند الله تقول أن هذا الداء عضال تمكن من جسم الأمة فلن يخرج إلا بقوة علمية وتأثير صحيح فوجب على من نظر بعين ارتسم على شبكتها علم تخطيط البلدان وما سطره أ كابر علماء الاسلام أن يشرحه لعقلاء الامة ويظهر ما في بطون الدفاتر مما سطره الاقدمون ليطلع عليه عقلاؤنا وكبراؤنا ليحكموا بين عقل قديم راجح وجهل حادث فاضح ولينظروا في أمتهم وشؤونهم وسنين لعقلائنا ما نعلمه من آراء أ كابر علماء الاسلام ولا تقصر فيما يجب علينا فان هذا الزمان هو الذي يجب فيه نشر العلم ولتكن ابحاثنا هكذا

كليات الاسلام وطريقة التعليم في الأزهر

نظام الأزهر

الغزالي والعلوم في الأزهر

الكليات والترقى وهذا الفصل متمم لما قبله

الواقفون والعلماء

ونحو ذلك من المباحث ولنبين ما يجب علينا تلقاء أمتنا حتى نكون قد أرضينا ضميرنا وديننا ولكي يحاسب كل إنسان نفسه وينظر بعقله بين أقوال السادة الكبراء من علماء الاسلام فيما يجب على رجال الدين من العلوم ولا يخضع لبسيط حرم لذيذ العلم ووقف عند طرف قصير من الدين واتع خطوات الخبط في طرق التعليم وليتبين ذلك كله في مقالاتنا وهذا إن شاء الله تشرح به صدور الكبراء وأهل الذكاء ومحبوا الاصلاح

الفصل السابع عشر

في المقالة الثانية الملقبة بالأصمعية

كليات الاسلام وطريقة التعليم في الأزهر

يا قوم أرى الأمم تنظر في شئون الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها وقد ذهلت عما يصيب الأزهر الشريف فما أدري أفي جسم الأمة شلل أصاب أعضائها فلا تحس أم وقر في آذانها فلا تسمع أم تحبب خطب عشواء في ليل بهم وجود الحياة عدم وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانا طويلة وأعصرأ وحقا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والأندار بانويل والثبور

يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالأنوار وابتهجت والطرق في كليتنا العظمى في هرمها خالفت المقول والمنقول والأوائل والأخرو ترى الناس سكارى وما هم بسكارى حيارى وما هم بحيارى ولكن عذاب التقليد والجهل شديد . يا قوم أيجمل في دين الرومة أن يتربع الطالب في الأزهر عشرين سنة مثلا في كتب طالت فقصرت وضخمت فاعتلت فيقرأ المتن والشرح والحاشية والتقارير ثم شرحا آخر وحاشيته وتقريرا وهلم جرا . وربما كان على الكتاب عشرون كتابا وعلى القاعدة عشرون قولا وهناك تكون الدهشة والحيرة في حفظ المشاغبات والمناقضات والسباب والشتائم والقذف بلغة انحطت درجتها وضاعت بلاغتها وذهبت ثمرتها ففي النحو يحفظ قول « ابن جنى وابن عصفور والكسائي وسيبويه والفراء وغيرهم من الأئمة » والسجاعي والرضي ويس والصبان وغيرهم من المؤلفين وهكذا في كل فن حتى اذا وصل الى تفسير القرآن فانما يقرؤه للبركة لا للفهم واليقين مكثفيا بما رزى به الفواد من تلك المشاغبات مقتنعا بما عنده من العلم بل « فرحوا بما عندهم من العلم وحق

بهم ما كانوا به يستهزئون « نعم هذا داء أعيان العلامة ابن خلدون دواؤه كما قدمنا وقال ان المرض استحکم والشلل عم الأَعْصاب فهيات هيات أن ينجع الدواء . أحيل القارىء على المقالة التي ذكرناها عن ابن خلدون كيف أبان القول وحذر وأنذر وأوجب نسخ هذه الطرق بأقرب منها ووضع التعلم على ثلاث درجات لا غير في كافة الفنون مبتدئ، ومتوسط ومنته مع مراعاة أحوال الزمان والمكان

ومن العجيب ان الفزالي رحمه الله قال كقوليه (وبين الرجلين أربع قرون وقد مضى الثاني وله نحو خمسة قرون)

يا قوم قد حق القول علينا قد مضى اسلافنا وذهلوا عما أنذر به هذان المصلحان وجهلوا أو تجاهلوا حفظا للمراكز وصونا للمقامات وسترا على الجهل فاستحكمت العادة بدهم وتأصلت فينا فأصبح رجالنا وعقلأؤنا ونوابنا لا يدرون ما يقولون ثم هم بعد ذلك يرجعون الى سلالة تعلمت من أخرى صموا آذانهم عن النداء يا قوم رعاكم الله هلا قرأتم ففهمتم ما سطره ابن خلدون مما ذكرناه آتفا فان الرجل أسمى نظرا ممن تعظمون وأرق عقلا وأحكم رأيا ممن تعتقدون ألم يقع ما أنذر به من خمسة قرون ألم تكلكل المدافع رؤس جبالنا وتتوج قلاعنا بأكاليل من نار ونحن صاغرون صامتون صابرون « إنا لله وإنا اليه راجعون » هل صواعق المدافع ونيران بارودها ورعد مقذوفاتها إلا أثر من آثار العلم وهل تفريق الجامعة والتصديق بالخزافات والتواكل والتخاذل إلا أثر من آثار الجهل حتى قبضت هولندا الغربية الصغيرة على جاوة الشرقية الكبيرة وأذاقتهم العذاب الهون بما كانوا يكسبون . يا قوم هذاكم الله ان أبيتم إلا التقليد فاقروا ما كتبناه عن ابن خلدون وإن حكتم العقل فما لكم لا تنظرون . وإياكم والرضا لقول أقوام عيونهم في غطاء عن الذكرى فهم لا يبصرون (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وإن رأيتم أن الأمر ضاع والداء استحکم وعز استئصاله فلم لا تنشؤون كلية تحيون بها مجدا هدم وديننا عفا وديننا مضت أنحن أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة أيكون ديننا أشرف الأديان ونحن أكسل الأمم حتى ترقى الياباني

والأوروبي والأمريكي وارتقى المثلث وعابد الشمس وبقى الموحد يرسف في قيود الذل والنكال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ها هي صواعق نيران المدافع وكسف القتل النازلة من سماء المدينة الى أرض الجهالة (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين)

الفصل الثامن عشر

في المقالة الثالثة الأصمعية

نظام الأزهر

الأزهر أجل مدرسة اسلامية منها نبغ كثير من الفضلاء والعلماء على ممر الدهور والأجيال وقد سار على شاكمتها مدارس أخرى في مساجد أمهات القرى كرشيد ودمياط وغيرها فوجب علينا النظر فيها ومن أعجب العجب أن تتعاقب النذر ويتوالى الإرشاد والناس صامتون لا يبدون حرا كما . هذا النظام قد ندد عليه ابن خلدون وأكابر حكماء الاسلام بقى الى الآن . أول حركة للطالب أن يحفظ القرآن حفظاً بلا فهم فاذا أتته وهو في الغالب ابن ١٥ سنة انتظم في سلك تلك المدرسة الجامعة وهو لا يعرف من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ناشدتكم الله يا قوم أليس يضيع زمنه بلا علم ولا تعلم أليس التلميذ في المدارس قد يأخذ البكالوريا وسنه ١٥ فيكون حفظ القرآن وحده بلا معنى كالاتدائية والتجهازية أليس من الصواب الرجوع الى ما قاله ابن خلدون ولا ريب أن طريقته تشبه طريقة مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرسة القبة لخدوي مصر عباس

رأى الكاتب الأصمعي

الذي أراه أن يجعل^(١) له مدرسة ابتدائية تحت نظر الأزهر وتدار بإدارته وتلك

(١) بعد ظهور هذه المقالة قام بهذا العمل العلامة الشيخ محمد شاكر فحمد الله ونشكره

المدرسة يدخلها من عرفوا مبادئ القراءة والكتابة في الكتابات ثم يقرؤون النحو والانشاء والحساب وعلوم الأشياء ممزوجة بمبادئ التوحيد وعلوم الأخلاق ، وبالجملة تكون على مقتضى نظام المدارس الخيرية مع حفظ القرآن وفهم معناه بوجه بسيط كما هو الحال في مدرسة القبة التي هي حسنة كبرى من حسنات الخديوى عباس حتى إذا أتم الطالب سنين معدودة امتحن فإذا نال الشهادة انتظم في سلك الطلبة الذين يخوضون في غايات العلوم ولعلك يا أخى تقول أن الأزهر ليس عنده استعداد لانشاء مدرسة قلنا لم لا يجعل قسم خاص يكون فيه الدرس على هذا النمط حتى يكون القرآن معروفاً لفظاً ومعنى ، فان قلت أن القديم يبقى على قدمه أقول هذا هو الانحطاط بعينه وإذا كانت الأمة تشكو من القضاء الشرعى وانحطاطه وتدعو بالويل والثبور مع انتشار الخرافات بين الخاصة والعامة .

ألم يكن ذلك من تلك التربية الضعيفة ، وكيف يبقى الطالب ١٥ سنة أو نحوها وهو لم يدر في الدنيا شيئاً ثم يتعلم بعد ذلك .

أليست الملكات قد رسخت عنده وتفسر اقتلاعها ، أليس ابقاؤه تلك المدة بين يدي معلم جاهل كافياً لذهاب الفطنة من رأسه وخروجه من الحياة صفر اليدين أليست العلوم تبقى بعد ذلك سطحية إذ المؤثر على المرء ما يسمعه في أول حياته ويتلقاه في مبدأ صباه وهل أتاك نأ التدريس بعد ذلك وهو لمعرك نبأ عظيم لا يدخل العلم في الأذهان إلا من وراء حجب الجدال العنيف

يبتدىء الطالب وهو لا يحسن قراءة سطرين ولا فهم جملتين ولا إعراب كلمتين وأول ما يبدأ إذ ذاك بالبسملة وإعرابها وإن لها تسعة أوجه ويقال بسم الله الرحمن الرحمن الرحمن وإن هذه الأوجه الثلاثة مع أوجه الرحيم الثلاثة بضرها في بعضها تبلغ تسعة ثم يقال له هذا هو النعت المقطوع ففي حال النصب يكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره أمدح الرحمن أمدح فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة ظاهرة في آخره والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا والرحمن منصوب وعلامة نصبه فتحة

ظاهرة في آخره وهذا بعض اعراب وجه من الأوجه التسعة ويجرى الباقي على مقتضاه
فيكون إعراب الأوجه التسعة شاغلا كراسة بتمامها ثم يحفظ هذا النظم ليعلم أن وجهين
منها ممنوعان وليكون ضابطا وقانونا

أن ينصب الرحمن أو يرتفعا فالجرى الرحيم قطعاً منعا
وأن يجر فاجز في الثاني ثلاثة الأوجه خذ بياني
فهذه تضمنت تسعا منع وجهان منها فادر هذا واستمع

ومن المدهشات أن علم الفقه تقرأ عباداته ومعاملاته من البيع والشراء والقرض
وغيرها تعبداً ، ويبقى الطالب ما بين العشرة إلى الخمس عشرة سنة وهو يتعلمها ثم
يجلس على منصة الأحكام فيفضل فيها بعد أن ضاع الزمان ومات شطو من عمره وهذا
التلميذ يدخل مدرسة الحقوق ويقرأ لغتين فيها ويلم بأطراف القوانين والأحكام ، ثم
يكر كرة على اللاتينية فيتعلمها ليعرف كيف يفهم القانون الروماني كل ذلك في أربع
سنين وكيف يرى ذلك القاضي الأهلئ نفسه أرفع مقاما من ذلك العالم الديني أليس
هذا كله من جراء طريقة التعليم ورداءتها

أقول هذا وأنا أعلم أنه لن يقدر هذا القول حق قدره إلا علماء الأمة وأكابرها
والمأمول من أولياء الأمور أن ينظروا في هذه المدرسة ويتقنوا طلبتها وطلبة مدارس
أخرى ربما بلغت ١٥ ألفاً من الضياع .

وإذا كان نظام التعليم يبقى على ما هو عليه الآن ، فلا غرابة إذا كان القاضي
والمفتى المتخرجان يقضيان ويفتيان بما نرى ونسمع كل يوم وكيف يجوز السكوت على
هذه الوصمة وقد أحاطت بنا الأفرنج من كل جانب وأحدثت بنا الأعين تزلزنا
بأبصارها فمها سهونا أو هونا فدوسنا بالقدم وسوقنا إلى العدم أسرع من ملح البصر
سنة لله في خلقه ولن تجد لسنة تبديلا

الفصل التاسع عشر

في المقالة الرابعة الأصمعية

الغزالي والعلوم في الأزهر

ذكرنا فيما سبق ما قاله علماءنا رحمهم الله تعالى وما يوجب العقل والنقل في طريقة التعليم وتغييرها واتباع أحسنها ، والآن نبحث في العلوم الواجب على الأمة معرفتها والاستبصار بها فاني علمت أن كثيراً من عقلائنا يخذعونهم قول القائلين إن علوم الدين إذا صحبت غيرها أضر ذلك بها موهبين الناس أن علوم الدين الاسلامي قاصرة على ما يقولون ولا شاهد على ما يقولون

من لي بأن يقرأ العقلاء ما سطره الغزالي في الجزء الأول من الاحيا من الحط على العلماء وذمه الاقتصار على فنون محدودة وترك الطب الذي يعتبره علماء الشريعة حجة في الفتاوى و بين الأسباب الداعية للتوغل في الفقه وأبان أن ذلك للدنيا وحدها لا للدين وقال ما نصه (أعلم أن الغرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه كالحساب والتجربة مثل الطب والسمع مثل اللغة .

فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفرضه

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها .

وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروع الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروع الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة، بل الحياكة والحياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وعرضوا أنفسهم إلى الهلاك فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج، وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبة والتلبيسات. وأما المباح فالعلم بالأشعار التي لا تخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه (ثم قال بعد كلام طويل ما نصه) فإن قلت لم ألقت الفقه بعلم الدنيا وألقت الفقهاء بعلم الدنيا — فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فأخرجهم من الأضلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زاداً للعباد ليتناول منها ما يصلح للتزود

فلو تناولوها بالعدل لا تقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطها لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ولعمري أنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة فإن الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة

الأولى بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم ان الحج لا يتم إلا بيدرقة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء ثان والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ومعرفة طرق الحراسة وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة) ثم قال رحمه الله (ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وان احتيج لم تحل البلد ممن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً في حفظه ودرسه ويفعل عما هو مهم نفسه في الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه والقطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء الأمر في فرض الكفاية لتقديم عليه فرض العين بل لتقديم عليه كثيراً من فروض الكفايات، وكم من بلدة ليس فيها طبيب من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به ويتهافتون على علم الفقه لاسيما الخلافات والجدييات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال ما لا قائم به هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر للوصول به إلى تولى الاوقاف والوصايا وحياسة مال الأيتام وتقليد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء هيئات هيئات قد اندرس علم الدين بتليبس علماء السوء فأنه المستعان واليه الملاذ في أن يعيدنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان

الفصل العشرون

في المقالة الخامسة الاصلية

الكليات والترقى

قال رحمه الله (لا ينبغي للطالب أن يدع فنا من فنونه المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم أن ساعده العمر طلب التبصر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فإن العلوم كثيرة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الأنفكك من عداوة ذلك العلم بسبب جهله فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم) قال الشاعر

ومن يك ذا قم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعاً من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد والمقصود والقوام بها حفظة كحفاظ الرباط والثبور ولكل واحد مرتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة) انتهى كلامه بالحرف الواحد ثم يقول عجباً كيف يدعى قوم أنهم عرفوا التوحيد وهم يجهلون ما ذرا الله في الكائنات أم كيف يقرأون القرآن وهم عن آيات الله في السموات والأرض معرضون (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) من لى بأن يقف عقلاء الأمة على ما بين أيدي القوم الآن من عبارات مشوشة مشؤومة وما سطره المتقدمون هذا اعظم كتاب بين ظهرانينا (جمع الجوامع) وكم يطنطنون بقولهم « شكر المنعم واجب » وكثيراً ما جعلت هذه العبارة امتحاناً للطالب في علم الأصول حتى يقرر علماً فيا ليت شعري ما الذي يستفيدة القارىء من تلك العبارات والمجادلات والمناقضات والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة وبعد هذا وذاك تقول احدى الحواشي لم يرد في علم الفقه ان شكر المنعم واجب ..

دعنا من هذا الخطب الجلل المدهم العظيم وانظر الشكر في الجزء الرابع من

الاحياء وكيف فصله وقسمه وتأمل كيف ذكر سعادة الانسان في دينه ودينه وكيف فصل السعادات تقسيماً عجز عنه فطاحل علماء الغرب وهاهو العلامة جون لباك الانجليزى أحد أعظم الانجليز الآن الذى يشار اليه بالبنان بين أمته وجميع علماء أوربا قد ألف كتاباً فى سعادة الحياة وترجم الى اكثر اللغات وإذا قارناه مع ضخامته وحسن تركيبه وترصيعه وما حوى من حكم وأمثال وجمال لانجده قسم السعاده وفصلها ورتب أقسامها واستوفها كما فعل الغزالي فى باب الشكر مع الوجازة فليراجعه من أراد ولينظر ويقارن بين عالم شرقى مضى له تسعة قرون وعالم غربى ولينأمل فلسفة الفريقيين وحكمة الرجلين فى باب السعادة (الذى جعله الغزالي استطراداً فى باب الشكر كما قدمنا) وكيف أدخل رحمه الله جميع أقسام العلوم والمعارف وأحوال الدنيا والآخرة فيها ثم لنكر كرة على جمع الجوامع ونقرأ شكر المنعم فيه فيماذا يا قوم تحكون قال علماءنا علوم العربية كلها من علوم الدنيا يقرؤها المسلم واليهودى والنصرانى والمجوسى وعابد الشمس وكل صاحب دين ونحلة ولكن يتوقف عايتها معرفة الكتاب والسنة وعلم الطبيعة ومعرفة ما خلق الله فى الارض والسماء مما يتوقف عليها معرفة الله وجماله وحكمته فى خلقه وأن آيات ياصح الا الافصاح فاقراً باب التفكير فى الأحياء فهل ترى الا نظرة فى علم الطبيعيات التى حرم منها طلبة العلم وتعلمها أصغر تلميذ فى مدارس أوروبا هاهم يا قوم أهل الغرب قاطبة وتبعهم يابان الشرق يدرسون من كل علم طرفاً أولاً حتى إذا نالوه وصلوا غايته الوسطى (الشهادة الثانوية) رأيت كل واحد اختار فنا للتضلع فيه وصار ركنا فى الأمة لهذا الفن يا قوم أليس هذا ما قاله الغزالي من نحو تسع قرون. يا قوم كنا ملوكاً على الأسرة فأصبحنا أذنانا للتقليد والجهل فهل أنتم منتهون... أحيل القارىء على تفسير الرازى لينظر كيف ذكر فيه من كل فن من الطبيعيات والرياضيات والاهيات أتقول بعد هذا أن هذه العلوم ليست من الدين يا قوم مالنا أصبحنا ننكر الضروريات وعميت علينا السبل يا قوم ان فتواى لينفطر الآن على ما أصاب جسم الأمة ومادهى رجالها وهذا مقدورى وغاية وسعى به أخرج من حد الكتمان وهل يجوز بعد هذا أن ينكر من تربوا تربية ناقصة حتى اذا مروا على حكمة من حكم الله أو عجيبة من عجائبه

قالوا هذا ليس من الدين . العلوم شجرة أصلها ثابت في الأفئدة فروعها كل علم ثمرتها الأعمال وأصل العلوم معرفة الله تعالى وجماله ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلوم الطبيعية التي جعلها الله أول واجب على الإنسان لمعرفة كما في مئات الآيات وأقوال أكابر العلماء وسنين ذلك في المقال الآتي من كلام ابن رشد صيحاً . أليس الصبح بقريب

الفصل الحادي والعشرون

في المقالة السادسة الأصعبية

الأزهر وابن رشد

ذكرنا في سابق قوننا طرفاً من كلام ابن خلدون والغزالي في رداة التعليم والقصور في العلوم وهاهو ذا ابن رشد رحمه الله قال (إن فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعني من جهة ماهي مصنوعاته فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعها وانه كما كانت المعرفة بصنعها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فبين ان ما يدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب إليه فإما ان الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله (فاعتبروا يا أولي الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي أو العقلي والشرعي معاً ومثل قوله تعالى (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) وهذا حث على النظر في جميع الموجودات واعلم انه ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه إبراهيم عليه السلام فقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وقال (ويتفكرون في خلق السموات والأرض)

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة اه ثم قال في موضع آخر (اعلم ان الذي قصده الشرع من معرفة العالم هو انه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق من نفسه فالطريق التي سلك الشرع بالناس في تقرير هذا الأصل ليس هو طريق الأشعرية فانا قد بينا ان تلك الطرق ليست من الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ولا هي من الطرق العامة المشتركة بالجميع وهي الطرق البسيطة أعنى بالبسيطة القليلة المقدمات التي نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها وأما البيّنات التي تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التي تنبئ على أصول متفنتة فليس يستعملها الشرع في تعليم الجمهور ومن سلك بالجمهور غير هذا النوع من الطرق أعنى البسيطة وتأن ذلك على الشرع فقد جهل مقصده وزاغ عن الطريقة وكذلك أيضاً لا يعرف الشرع بأمثال هذه المقاييس من الأمور إلا ما كان له مثال في الشاهد وما كانت الحاجة إلى تعريف الجمهور به وكيدة مثل ذلك بأقرب الأشياء شها به كالحال في أحوال المعاد وما لم تكن لهم به حاجة إلى معرفته في هذا الجنس عرفوا انه ليس من علمهم كما قال تعالى في الروح واد قد تقرر لنا في هذا الأصل فواجب ان تكون الطريقة التي سلكها الشرع في تعليم الجمهور حدوث العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع وواجب ان كان حدوثه ليس له مثال في الشاهد أن يكون الشرع استعمل في تمثيل ذلك حدوث الأشياء المشاهدة فاما الطريق التي سلكها الشرع في تعليم الجمهور ان العالم مصنوع لله تبارك وتعالى ، فانه اذا تؤملت الآيات التي تضمنت هذا وجدت تلك الطرق هي طريق العناية وهي احدى الطرق التي قلنا انها الدالة على وجود الخالق تعالى وذلك انه كما ان الانسان إذا نظر إلى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل وبغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم على القطع ان لذلك الشيء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله ووضع وقدره تلك المنفعة وانه ليس يمكن أن يكون اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق مثال

ذلك انه إذا رأى انسان حجرا موجودا على الأرض ووجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ووجد أيضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك الحجر إنما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدره فى ذلك المكان وامامتى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه يقطع ان وقوعه فى ذلك المكان ووجوده بصفة ماهى بالاتفاق ومن غير أن يجعله هكذا فاعلم . كذلك الأمر فى العالم كله فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الأزمنة الأربعة وسبب الليل والنهار وسبب الأمطار والمياه والرياح وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الناس وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية والهواء للحيوانات الطائرة ولو انه اختلف شئ من هذه الخلقه والبنية لاختلف وجود المخلوقات التى ههنا علم بالقطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع اجزاء العالم للإنسان والحيوانات والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده هو الله عز وجل وعلم على القطع ان العالم مصنوع وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده عن غير صانع بل عن الاتفاق فاما ان هذا النوع من الدليل قطعى وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك إن مبناه على أصليين معترف بهما عند الجميع أحدهما ان العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى ههنا والأصل الثانى ان كل ما يوجد موافقا فى كل جميع أجزائه لفعل واحد ومسدد نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة فينتج عن هذين الأصلين بالطبع ان العالم مصنوع وانه له صانع وذلك إن دلالة العناية تدل على الأمرين معا ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع وإما ان هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق فمنها قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا للجبال أوتادا) الى قوله (وجنات ألفافا) فان هذه الآية اذا تؤملت وجد فيها التشبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان وذلك انه ابتداء فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الأبيض والأسود وهو أن الأرض خلقت يأتى لنا المقام عليها

وانها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو في موضع آخر غير هذا الذي هي فيه أو بقدر غير هذا القدر ما أمكن ان توجد فيها ولا أن نخلق عليها وهذا كله محصور في قوله تعالى « ألم نجعل الأرض مهادا » وذلك ان المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثارة واللين فما أعجب هذا الاعجاز وأفضل هذه السعادة وأعرب هذا الجمع وذلك انه قد جمع في لفظ مهاد جميع ما في الأرض من موافقتها لسكون الانسان عليها وذلك شيء قد تبين على التمام للعلماء في ترتيب من الكلام طويل وقدر من الزمان غير يسير والله يختص برحمته من يشاء وأما قوله تعالى « والجبال أوتادا » فانه نبه بذلك على المنفعة الموجودة في سكون الأرض من قبل الجبال فانه لو قدرت الأرض أصغر مما هي كأن كانت دون الجبال لتزعزعت من حركات باقى الاسطوانات أعنى الماء والهواء ولتزلزلت وخرجت من موضعها ولو كان ذلك كذلك هلك الحيوان ضرورة فاذن موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفاق وإنما عرضت عن قصد قاصد وإرادة مرید فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التي قدرها لوجود ما عليها من الموجودات ثم نبه أيضاً على موافقة وجود الليل والنهار للحيوان فقال تعالى « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » يريد ان الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات ههنا من حرارة الشمس وذلك انه لولا غيبة الشمس بالليل هلكت الموجودات التي جعل الله حياتها بالشمس وهو الحيوان والنبات فلما كان اللباس قد يقي من الحر مع انه سترة وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان سماه الله لباساً وهذا من أبداع الاستعارة وفي الليل أيضاً منفعة أخرى للحيوان وهو أن نومه يكون فيه مستغرقا لما كان ذهاب الضوء الذي يحرك الحواس الى البدن الذي هو اليقظة ولذلك قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أى مستغرقا من قبل ظلمة الليل ثم قال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شديدا وجعلنا سراجا وهاجا » فعبّر بلفظ البنيان عن معنى الاتقان الموجود فيها والنظام والترتيب وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة التي لا تنفر عنها ولا يلحقها من قبلها ملال ولا تخاف ان تنخر كما تنخر

السقوف والمباني العالية الى هذه الاشارة بقوله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) وهذا كله تنبيه منه على موافقتها في أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها حتى انه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة لفسد ما على وجه الأرض فضلا عن أن تنفق كلها وقد زعم قوم أن النفخ في الصور الذي هو سبب الصعقة وقوف الفلك ثم نبيه على منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض فقال تعالى « وجعلنا سراجا وهاجاء وإنا سماها سراجا لأن الأصل هو الظلمة والضوء طارىء على ظلمة الليل ولولا السراج لم ينتفع الانسان بحاسة بصره بالليل وكذلك لولا الشمس لم ينتفع الحيوان بحاسة بصره أصلا وإنما نبيه على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها لأنها أشرف منافعها وأظهرها ثم نبيه تعالى على العناية المذكورة في نزول المطر وأنه إنما ينزل بمكان النبات والحيوان وأن نزول المطر بقدر محدود وفي أوقات محدودة لنبات الزرع ليس يمكن يعرض عن الاتفاق بل سبب ذلك العناية بما هنا فقال تعالى (وأنزلنا من المعصرات ماءا متجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) والآيات التي في القرآن في التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الارض نباتا) ومثل قوله تعالى (الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ونفصل ما نبهت عليه من العناية التي تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس ذلك قصدنا في هذا الكتاب ولعلنا أن مد الله في الأجل ووقع لنا فراغ أن نكتب في العناية التي نبيه عليها الكتاب العزيز وينبغي أن تعلم أن هذا النوع من الاستدلال في غاية المضادة للاستدلال الذي زعمت الأشعرية أنه الطريق الى معرفة الله سبحانه وذلك أنهم زعموا أن دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من اجل حكمة فيها تقتضى العناية ولكن من قبل الجواز أى من قبل ما يظهر في جميع الموجودات أنه جائز في العقل أن يكون بهذه الصفة أوضدها فإنه ان كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا حكمة ولا توجد ههنا موافقة أصلا بين

الانسان وبين أجزاء العالم وذلك انه ان كان يمكن على زعمهم أن تكون الموجودات على غير ما هي عليه كوجودها على ما هي عليه فليس ههنا موافقة بين الانسان وبين الموجودات التي امن عليه الله بخلقها وأمره بشكره عليها فان هذا الرأي الذي يلزمه أن يكون أمكان خلق الانسان جزء من هذا العالم كما كان خلقه في الخلاء مثلا الذي يرون أنه موجود بل والانسان عنده يمكن أن يكون بشكل آخر وخلقة أخرى ويوجد عنه فعل لانسان وقد يمكن عندهم أن يكون جزء من عالم آخر يخالف بالحد والشرح لهذا العالم فلا تكون نعمة ههنا يمن بها على الانسان لأن ما ليس بضروري ولا من جهة الافضل في وجود الانسان فالانسان مستغن عنه وما هو مستغن عنه فليس وجوده بانعام عليه وهذا كله خلاف ما في فطر الناس وبالجملة فكأن من أنكر وجود المسببات مرتبة على الاسباب في الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الاسباب في هذا العالم فقد جحد الحكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولهم أن الله أجرى العادة بهذه الاسباب وأنه ليس لها تأثير في المسببات باذنه قول بعيد جدا عن مقتضى الحكمة بل هو معطل لما لان المسببات ان كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب على حد ما يمكن أن توجد بهذه الاسباب فأى حكمة في وجودها عن هذه الاسباب وذلك أن وجود المسببات عن الأسباب لا يغلو من ثلاثة أوجه اما أن يكون وجود الاسباب لمكان المسببات من الاضطرار مثل كون الانسان متغنيا وإما أن يكون من أجل الافضل أعنى لتكون المسببات لذلك أفضل وأتم مثل كون الانسان له عينان واما أن يكون ذلك لا من جهة الافضل ولا من الاضطرار فيكون وجود المسببات عن الاسباب بالاتفاق وبغير قصد فلا تكون هنالك حكمة أصلا ولا تدل على صانع أصلا بل انما تدل على اتفاق وذلك انه ان كان مثلا ليس شكل يد الانسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضروريا ولا من جهة الافضل في الامساك الذي هو فعلها وفي احتوائها على جميع الأشياء المختلفة الشكل وموافقها لامساك آلات جميع الصنائع فوجود أفعال اليد الذي هو

عن شكلها وعدد أجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ولو كان ذلك كذلك لكان لافرق بين أن يخص الانسان باليد أو الحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله وباجته متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن ههنا شيء يرد به على القائلين بالاتفاق أعني الذين يقولون لاصانع ههنا وان جميع ما حدث في هذا العالم إنما هو عن الاسباب المادية لأن أحد الجائزين هو أحق أن يقع عن الاتفاق منه أن يقع على فاعل مختار وذلك انه إذا قال الاشعري أن وجود أحد الجائزين أو الجائزات هو دال على أن ههنا مخصصا فاعلا كان لأولئك أن يقولوا ان وجود الموجودات على أحد الجائزين أو الجائزات هو عن الاتفاق لأن الارادة إنما تفعل لمكان سبب من الاسباب والذي يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق إذ كنا نرى أشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة مثل ما يعرض للاستسقاط أن تخرج امتزاجا بالاتفاق فيحدث عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر فتكون على هذه جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق أما نحن فلما كنا نقول أنه واجب أن يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه وأن الامتزاجات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة وأن هذا دائما لا يخلل لم يمكن أن يوجد ذلك عن الاتقان لأن ما يوجد عن الاتقان هو أقل ضرورة والى هذا الاشارة بقوله تعالى (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وأى إتقان يكون ليت شعري في الموجودات ان كانت على الجواز لأن الجائز ليس هو أولى بالشئ من ضده والى هذا الاشارة بقوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) وأى تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه ولعل تلك الصفة المدومة أفضل من الموجودة فمن زعم مثلا أن الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن في ذلك فرق في صنعة العالم فقد أبطال الحكمة وهو كمن زعم أنه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يميناً لم يكن في ذلك فرق في صنعة الحيوان فان أحد الجائزين كما يمكن أن يقال فيه إنما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار كذلك يمكن أن

يقال أنه إنما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق إذ كنا نرى كثيرا من الجائزات توجد على أحد الجائزين بالاتفاق وأنت لتبين أن الناس بأجمعهم يرون أن المصنوعات الخسيسة هي التي يرى الناس فيها أنه كان يمكن أن تكون على غير ما صنعت عليه حتى أنه ربما أدت الخساسة الواقعة في كثير من المصنوعات التي بهذه الصفة أن يظن أنها حدثت عن الاتفاق وأنهم يرون أن المصنوعات الشريفة هي التي يرون فيها أنه ليس يمكن أن تكون على هيئة أتم وأفضل من الهيئة التي جعلها عليها صانعا فاذن هذا الرأي من آراء المتكلمين هو مضاد للحكمة والشريعة ومعنى ما قلناه من أن القول بالجواز هو أقرب إلى نفي الصانع عن أن يدل على وجوده مع أنه ينفي الحكمة عنه وأنه متى لم يعقل أن ههنا أواسط بين المبادئ والغايات في المصنوعات تترتب عليها وحدها وجود الغايات لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب واذالم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة أن لهذه الموجودات فاعلا مريداً عالماً لأن الترتيب والنظام وبناء المسببات على الأسباب هو الذي يدل على أنها صدرت عن علم وحكمة وأما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل أن يقع حجر على الأرض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه وعلى موضع دون موضع أو على وضع دون وضع فإن هذا القول يلزم عنه ضرورة إما ابطال وجود الفاعل على الإطلاق وإما ابطال وجود فاعل حكيم عالم تعالى الله وتقدس أسأؤه عن ذلك وأما الذي قاد المتكلمين من الأشعرية إلى هذا القول فالهروب من القول بفعل القوى الطبيعية التي ركبها الله في الموجودات التي ههنا كما ركب فيها النفوس وغير ذلك من الأسباب المؤثرة فهربوا من القول بالأسباب لثلا يدخل عليهم القول بأن ههنا أسبابا فاعلة غير الله وهيئات لفاعل ههنا إلا الله إذا كان مختراع الأسباب وكونها أسبابا مؤثرة هو باذنه وحفظه لوجودها وسنين هذا المعنى بيانا أكثر في مسألة القضاء والقدر وأيضا فانهم خافوا أن يدخل عليهم من القول بالأسباب الطبيعية أن يكون العالم صادرا عن سبب طينعي ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة وأنه لا شيء، أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة في الأحكام

لعلموا أن القائل بنفى الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيماً من موجودات الاستدلال على وجود الصانع العالم بمجده جزءاً من موجودات الله وذلك أن من جحد جنساً من المخلوقات الموجودات فقد جحد فعلاً من أفعال الخالق سبحانه ويقرب هذا ممن جحد صفة من صفاته فإما كان نظره هؤلاء القوم مأخوذاً من بادئ الرأي وهو الطنون التي تخطر للإنسان من أول نظرة وكان يظهر في بادئ الرأي أن اسم الإرادة إنما يطابق على من يقدر أن يفعل الشيء وضده رأوا أنهم إن لم يصلوا إلى أن الموجودات جائزة لم يقدر أن يقولوا بوجود فاعل مرید فقالوا إن الموجودات كلها جائزة ليثبتوا من ذلك أن المبدأ للفاعل مرید كما أنهم لم يروا الترتيب الذي في الأمور الصناعية ضرور يا وهو مع ذلك صادر عن فاعل مرید وهو الصانع وهؤلاء القوم غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفي الحكمة عن الصانع أو دخول السبب الاتفاقي في الموجودات فإن الأشياء التي تفعلها الإرادة لا يمكن شيء من الأشياء أعنى لمكان غاية من الغايات فهي عبث ومنسوبة إلى الاتفاق ولو علموا كما قلنا أنه يجب من جهة النظام الموجود في أفعال الطبيعة أن تكون موجودة عن صانع عالم وإلا كان النظام بالاتفاق لما احتاجوا أن ينكروا أفعال الطبيعة فينكروا^(١) جنداً من جنود الله التي سخرها الله تعالى لايجاد كثير من موجودات بآذنه ولحفظها وذلك أن الله تبارك وتعالى أوجد موجودات بأسباب سخرها لها من خارج وهي الأجسام السماوية وبأسباب أوجدها في ذرات تلك الموجودات وهي النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة فن أظلم من أبطل الحكمة واقترى على الله الكذب فهذا مقدار ما عرض من التغيير في هذه الشريعة في هذا المعنى وفي غيره من المعاني التي يبتاعها قبل ونبينها فيما يأتي إن شاء الله تعالى فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التي نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق له ومصنوع هي ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيها وبخاصة

(١) إن آراء العلامة ابن رشد في هذا المقام كنت اطلعت عليها بعد أن ألفت كتابي جواهر العلوم وميزان الجواهر فسرني هذا القول الذي واقفتي فيما أكتبه وهما ذا كتابي نظام العالم والأمم على النمط الذي اختاره ابن رشد وهكذا كتابي الجواهر في تفسير القرآن اه المؤلف

بالانسان وهى طريقة نسبتها فى الظهور إلى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس
واما الطريق التى سلك بالجمهور تصور هذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد وان كان ليس له
مثال فى الشاهد اذ ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا كنهه ما ليس له مثال فى الشاهد
فأخبر تعالى ان العالم وقع خلقه اياه فى زمان وان خلقه من شىء إذا كان لايعرف فى
الشاهد مكون إلا بهذه الصفة فقال سبحانه مخبراً عن حالته قبل كون العالم وكان عرشه
على الماء وقال تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وقال
(ثم استوى إلى السماء وهى دخان) إلى سائر الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا
المعنى فيجب أن لا يتأول شىء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيهه على غير هذا التمثيل
فانه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية فالما أن يقال لهم ان عقيدة الشرع فى العالم
هى انه محدث وانه خلق من غير شىء وفى غير زمان فذلك شىء لا يمكن أن يتصوره
العلماء فضلاً عن الجمهور فينبغى كما قلنا أن لا يعدل فى الشرع عن التصور الذى وضعه
للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك فان هذا النوع من التمثيل فى خلق العالم هو الموجود
فى القرآن وفى التوراة وفى سائر الكتب المنزلة ومن العجب الذى فى هذا المعنى أن
التمثيل الذى جاء فى الشرع فى خلق العالم يطابق معنى الحدوث الذى فى الشاهد أطلق
ولكن الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ وذلك تنبيه منه للعلماء على ان حدوث العالم
ليس هو مثل الحدوث الذى فى الشاهد .

وأما أطلق عليه لفظ الخلق ولفظ الفطور وهذه الألفاظ تصلح لتصور المعنيين
أعنى لتصور الحدوث الذى فى الشاهد وتصور الحدوث الذى أدى إليه البرهان عند
العلماء فى الغائب فاذن استعمال لفظ الحدوث أو القدم بدعة فى الشرع وموقع فى شبهة
عظيمة تفسد عقائد الجمهور وبخاصة الجدليين منهم ولذلك عرضت أشد حيرة تكون
وأعظم شبهة للمتكلمين من أهل ملتنا أعنى الأشعرية وذلك انهم لما صرحوا ان الله
مريد بارادة قديمة وهذا بدعة كما قلنا ووصفوا ان العالم محدث قيل لهم كيف يكون
مراد حادث عن ارادة قديمة فقالوا ان الارادة القديمة تعلقت بإيجاده فى وقت مخصوص
وهو الوقت الذى وجد فيه فقيل لهم ان كانت نسبة الفاعل المريد إلى المحدث فى وقت

عدمه هي بعينها نسبتة اليه في وقت ايجاده فالمحدث لم يكن وجوده في وقت وجوده أولى منه في غيره إذا لم يعلق به في وقت الوجود فعل انتفى عنه في وقت العدم وان كانت مختلفة فهناك ارادة حادثة ضرورة والاوجب أن يكون مفعول محدث عن فعل قديم فان ما يلزم من ذلك في الفعل يلزم في الارادة وذلك انه يقال لهم اذا حضر الوقت وقت وجوده فوجد هل وجد بفعل قديم أو بفعل محدث فان قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود المحدث بفعل قديم وان قالوا بفعل محدث لزمهم أن يكون هنالك ارادة محدثة فان قالوا الارادة هي نفس الفعل فقد قالوا محالاً فان الارادة هي سبب الفعل في المراد ولو كان المريد اذا أراد شيئاً في وقت ما وجد ذلك الشيء عند حضور وقته من غير فعل منه بالارادة المتقدمة لكان ذلك الشيء موجوداً من غير فاعل وأيضاً فقد يظن انه ان كان واجباً أن يكون عن الارادة الحادثة مراد حادث فقد يجب أن يكون عن الارادة القديمة مراد قديم والا كان مراد الارادة القديمة والحادثة واحداً وذلك مستحيل فهذه الشبه كلها إنما أثارها في الاسلام أهل الكلام بتصریحهم في الشرع بما لم يأذن به الله فانه ليس في الشرع انه سبحانه وتعالى مريد بإرادة حادثة ولا قديمة فلا هم في هذه الاشياء اتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته في علوم اليقين ولذلك ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين المصدقين وإنما هم من الذين في قلوبهم زيغ وفي قلوبهم مرض فانهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم وسبب ذلك العصبية والمحبة وقد يكون الاعتياد لأمثال هذه الأقاويل سبباً للانحلاع عن المعقولات كما نرى يعرض للذين مهروا بطريق الأشعرية وارتاضوا بها من الصبا فمؤلاً لا شك محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فهذا الذي ذكرناه من أمر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا) اه كلام ابن رشد فترى بهذا أنه قد أنحى على رداءة تعليم التوحيد وفصل ما يدرس الآن في الأزهر منه تفصيلاً وأخذ يشرح العقائد واحدة واحدة وقال ان هذا غير ما شرحة القرآن وما طلبه الرسول واقتضاه الدين وأشار بتغيير هذه الطرائق بطرق أخرى تطابق كتاب الله الذي طلب النظر في العوالم ومعرفة

الحكمة والإفكل ما بيننا الآن إنما هي فضلات من حثالات اليونان القديمة المحشوة في الكتب المنافية لشريعتنا ومن العجب انك ترى الكتب تحارب أعداء ماتوا ليس لهم وجود وما مثل هذه في محاربتهم لليونان وجذاهم في الكتب وضمهم على الألسنة إلا كمثل قوم من الخوارج الآن يحاربون معاوية واليزيد وغيرهما ويتكلمون كل ما أحاط بنا من كل جانب كأنه كتب علينا أن نذر مصالحنا ونندب ما مضى وليت شعري هذه أوروبا وأمريكا أخذ أهلوهما يحظ وافر من العلم واهتدوا بهدى علماءهم وحكائهم وهذه الأمة مضى لها قرون طويلة وأعمار وهي تنبذ الحكماء وتبغض المصلحين . هاهم نبدوا ما أشار به الغزالي وما فسره ابن رشد وما أنذر به ابن خلدون وكل أمة هذا شأنها حق عليها ما ذكر الله عن اليهود (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففرقا كذبتم وفرقا يقتلون) نادى ابن رشد بالإصلاح فطرده الأندلسيون فأزال الخرافات والضلالات من أنفس امتلأت من ترهات الأخبار والرهبان وأطلقها من أغلال الأوهام فرعت في أرض جنة الحكمة وشربت سلسيلها فانظر كيف تدلت الأندلس إلى حضيض الجهالة فزقت كل ممزق وتفرق أهلها أيدي سب وكيف ثم كيف سارت أوروبا من يومئذ في سبيل الرقي المادي والأدبي وكان ما كان من انتشار العلم والتعليم واكتشاف الأرض الجديدة كأمریکا والأقيانوسية كما يشهد بذلك كريستوف كولمب نفسه إذ قال انى علمت إن في الأرض قسما آخر من تعليمات ابن رشد ثم تغلب الاسبانيون على المسلمين وأجلوهم وأوسعوهم قتلا وسبياً وأسراً أليس ذلك عبرة للباقيين من الأمم الاسلامية أيظن قوم انهم علماء وهم لم يدرسوا ما سطرته يد القدرة في أكناف البسيطة من سطور الحكمة وآثار العظمة ومن سمع قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) عرف ان العلماء هم الذين يعرفون علوم الطبيعيات من النبات والحيوان والانسان واختلاف الألوان إذ أعقبه بقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) هل ضل الرازى في تفسيره واهتدى

السطاء ها هو الرازي شرح عند كل آية ما يناسبها من الحكم المودعة في الطبيعة وجمال الألوهية اللهم انا نضرع اليك أن ينظر عقلاء الأمة وحكماؤها في مستقبل بلادهم وأمتهم . هل من العقل والحكمة أن ينفذ الرازي وابن خلدون وابن رشد والغزالي وأحزابهم ونصي إلى قوم أسفل منهم بدرجات باعترافهم أنفسهم وقولهم هؤلاء أرقى منا عقلا وأرفع شأننا وأعلى كعباً ونحن قوم ضعفاء فيالله وبالجهل والعار وباضيعه الاسلام والمسلمين وياحسرتنا على هذه الأمة ذهبت ريحها

معاشر الاغنياء والعقلاء ها أنا ذاقصت عليكم ما يخرجني من التبعة والاثم والكتمان إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله فهل أنتم مستمعون وان عجزتم عن اصلاح الازهر وظل سائرا نابذا سنة الترقى فلماذا لا تتشؤون الكليات والا تبقى التعليم منحطاً أبداً الآبدين ودهر الداهرين (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلقهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) وهامى ذه كسف المدافع لم تبق ولم تذر في أقطار البلاد وما هي الا نتيجة العقول المثقفة والآراء المهذبة والعلوم المدونة فما الماديات الا نتائج للعقلية فغلبة المدافع والبنادق ترجمان عن عقول منيرة وحكم صافية فاذا لم تستقر العقول بالحكم احترقت الاجسام بالكسف والقلل اذ العالم في ترقى مستمر فمن حاد عنه كان نصيبه الذهاب من الوجود وسندكر في المقال بعد هذا ناموس الترقى من القرآن ونقابله بأعمالنا الآن عبرة لمن اعتبر

الفصل الثاني والعشرون

في المقالة السابعة الاصلية

كليات الاسلام وناموس الترقى

هل درى أولئك الذين ينيذون معرفة ما فطره الله في الكائنات وما سطره على صفحات الطبائع في الارض والسماء أن الترقى سنة في الحياة وأن القرآن هو أول مقرر

لمبادئه حيث عليه قد بينه على طرق شتى تارة بتعاقب الأديان وطوراً بالطبيعيات وآونة
بالأقوال وكثيراً بالقصص وسنة الماضين

(١) الأديان : تعاقبت الأديان وناسب كل زمانه ومكانه فندسخ ما قبله فكأنها
سلسلة يتبع بعضها بعضاً وكان آخرها نزولاً هذا الدين الذي سمح بالترقى لكل فرد
وعمل وندد على من وقفوا على ما خطه رهبانهم وحرره أخبارهم وتحكمت به قسيسوم
وأفهم أن ذلك داع للأخطا والتدلى والدهول عن الترقى فقال (اتخذوا أخبارهم
ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الله واحداً) ثم
قال يريدون ليطنوا نور الله المنبعث الى لعقول بفطرتها وبوحى آخر ما أنزل وأظناؤه
بالاقتراء من الأخبار والرهبان الداعى إلى انعكس انرجاء والوقوف أمام ترقىها
(والله متم نوره ولو كره الكافرون) فالترقى محتم على العالم ومن وقف أو رجع خسر
الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

الناس فى الدنيا مسافرون إلى الكمال متوجهون إلى العلاكوكب سائر فى طريق
فيه الدهمات مشعلات والخاوف محيطات من كل جانب فأى راكب توقف وسط
الطريق عن المسير أو قفل راجعاً تناوشته السباع وانتاشته الذئاب وهلك من الجوع والعرى
وظمأ الهواجر ونار السعير ولكن الركبان مأمورون أن يسيروا مسوقون بقوة قاهرة
وسلطة قوية مضروبون يد من حديد مكسوة بألبن من الحرير وإذا كان الترقى هو
سنة الله وهو الفطرة فمن خالفها فقد ضل وغوى وأهلك نفسه بوادى الخسران وهلاك
الفرد أحرى من هلاك الجماعة ومن العيب أن تقف الجماعة لواحد أو يبننوا مقرهم
ويتبعوا هذا الكاسل

ولما لم يعلم الناس ذلك بعقولهم أنزلت الكتب السماوية لا يقاظهم فلما غفلوا أرسل
الصواعق النارية عليهم ليعظهم بالعمل بعد العظة بالقول (والله يؤتى ملكه من يشاء)
رأينا رقى الأمم حولنا ووقفنا نحن وتر كنا مدارسنا الكليات فى أمهات مدن
القطار وبقي القديم على قدمه وبيننا العقلاء والأذكيا فما لهم لا يقرؤن وما بالهم

لا يتكلمون وما للعامه لا يسألون أخرج التلميذ من مدارس الأجانب بعد الخامسة عشر عارفاً أربع لغات مع نحو عشرة علوم ونحن في تلك السن لا يعلم متعمداً إلا كلمات لا يعقل معناها ثم يقضى حياته في لغة لا يقدر أن يحزر بها خطاباً هان على الأملس ملاقى الدبر . يقف التلميذ في أول أمره على أقوال العلماء في أوجه البسملة وإعرابها وكون الباء حرف جر زائد أو أصلي والنعمة مقطوع أو غير مقطوع رموز لا يفهمها إلا بعد سنين فأين سنة الترقى

(٢) الطبيعيات . وتارة ترى ناموس الترقى في الكتاب بضرب أمثال طبيعية مما يشاهده الناس من الماء والمعادن يعلوها عند نزول الأول وجريانه وسبك الثاني وغليانه زيد فاذا تمايزا ذهب الزبد جفاء وبقى الماء والحلى نافعاً للناس هذا هو المثل المضروب في الكتاب (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زيد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)

(٣) القول . هل قوله (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الا نفثة من نفثات ناموس الترقى وهل حسن القول إلا بمعناه وهل هو إلا انتخاب الأحسن واختيار الأجل فيتبع وها هو مشاهد محسوس أن البشرى تابعة لمن سلك مسلكاً راجحاً (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(٤) وهل ذكر عاد وثمود وقصص نوح وغيره الامذكرات لناموس الترقى وهل قوم نوح لما طغوا وبدوا ما وعظوا به فأغرقوا إلا عبرة للأمم ان يهلكوا كما هلك أولئك لما تتبابع الانذار فيهم حيناً بعد حين قرونا وعلم أنهم لن ينجعوا وليس فيهم قابلية ذهبوا من الوجود حتى قيل (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) وملخصه ألا يبقى إلا الأصلاح للوجود وهو عينه ناموس الترقى

(٥) علم الله أن ستنام أعيننا وقلوبنا ونحبط خبط عشواء فنسخ آيات وأحاديث

بغيرها كما هو رأى كثير من العلماء كأنه يقول النسخ في كل شيء على شريطة أن يكون الثاني أصلح وهنا أنا نسخت آية بآية وحديثاً بحديث فوجب عليكم أن تتبعوني وتنظروا ما يصلح من المنافع والعلوم في كل زمان ومكان وما كان هذا إلا كالا وشرفاً فياقوم هاهو ذا القرآن وقصصه والأمم وأخبارها والطبائع والشرائع كلها داعية للتغير والنسخ ومناسبة الزمان والمكان فلماذا يدعاه الانسانية ورجال الأمة يبقى القديم في الكليات على قدمه ولا تنظرون في أمرها ولئن نسيت من الأزهر إصلاحه وعجزتم وتركتموه هكذا فناشدتكم الله لماذا لا تنشئون الكليات لتعوضكم ما فقدتموه يا قوم لم تضنوا بالأموال وها نحن أولاً نرى الياباني يجود بروحه ^(١) لسد مدخل بوراثرو والانجليزى بالاتفاق على مدرسة غوردون في السودان والروسي يخرج من ماله لوطنه وماله والأمم القاصية هاهم أولاً إخواننا القبط بين ظهرانينا نحو نصف مليون وهم نصف عشرينا كيف يجمعون في جلسة واحدة لمدرسة صنائعهم أربعين ألفاً من الأصفى الرنان وهل أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة نبذنا الأقربون والأبعدون حولوا نظركم عن المشرق والمغرب وولوها شطر أسلافكم الماضين وآبائكم الأقدمين ماذا فعلوا جادوا بالمال والرجال فبقى ذكركم وإن غابت أشخاصهم خرج أبو بكر يوماً من ماله كله وعمر من نصفه فوققابين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا القول فقال عليه الصلاة والسلام « بينكما في الفضل ما بين كلمتيكما » فماذا يجيبون وعلى ماذا تقدمون . لقد رأيت سلطاناً من سلاطين الاسلام في جزائر المحيط قد أخرج من دياره وأمواله وأولاده وبساتينه لا يملك شروى تغير أخرجهم الفرنسيون فإذا أفادت هذه الأموال يا قوم لئن لم تنفقوا طوعاً وتنشئوا الكليات لحفظ جامعتكم لبث الصنائع والعلوم الافرنجية ليذهبن ما بقي من آثار مجدنا ولا تظنوا ان الاحتلال شيء مذكور في جانب احتلال الصناعة وانتشار مدارس الأجانب وتهدم تجارتهم ولئن تركنا الأمور على هذا لتقلن دور وتذهب أموال وثورات ولا تعرفنكم النداء . (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم

(١) بعد هذا النداء في الجرائد أنشئت الجامعة والكليات بعد الطبعة الأولى

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره)

الفصل الثالث والعشرون

في المقالة الثامنة الاصلية

الواقفون والعلماء

الناس في الدنيا درجات بعضها فوق بعض فمن كان علمه أدام نفعاً وأتقن صنعاً وأرقى للمدينة كان أقرب زلفى لله وأكثر ثناء من الناس فيقدر ما تدوم المنافع والثمرات تبقى الذكري والشكران ويتجدد الأجر والثواب والأعمال هي الميزان المعنوي تقاس بها فضائل العمال وهذه هي المضاعفة (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أُنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) أعلى الاتفاق نشر الحكمة بين الناس وأرفع الناشرين لها مقاماً الأنبياء فعلى قدر أهمهم والتابعين لهم تكون منزلتهم في القرب من ربهم وارتفاع شأنهم في الدنيا والآخرة يليهم الحكماء فالعلماء ومعيارهم في التفضيل ظهور الثمرات في تابعيهم كثرة وفرة وبالجملة ففضل الرجل على مقدار ظهور أمره في الناس كفضل الشمس على القمر والقمر على السيارات فكما أن مقادير تلك الكواكب متفاوتة بتفاوت أضواؤها فكذا العلماء يتفاوتون بتفاوت هدايتهم في الأمم ولذلك يفضل النبي الحكيم والحكيم العالم والعالم العابد قال عليه الصلاة والسلام (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمي) ثم التفاوت بين الملوك يجري على هذه النسبة فمن أراد المقايسة بين عالم وملك فلينظر لمقدار أثرهما في إصلاح العالم فهما كان الملك أكثر تأثيراً في سياسة الأمة من العالم فهو أفضل منه بتلك النسبة ومهما كان العالم أكثر هداية في الحال والاستقبال فهو أرقى من الملك بنسبة ذلك من الملك وبالجملة فالأعمال زرع والمنافع العامة في الأمة

ثمراتها والعمال زارعون وعلى هذه القاعدة يجرى الواقفون والمصلحون فمن وقف لأرباب التكايا والمساجد والكتاتيب الصغيرة والأضرحة فلتنفس نتائج أفعاله بهؤلاء ومن غزر علمه وعقله وفهم حكمة الله في خلقه علم ان ثمرة العلماء أرقى فان العالم يهتدى بعلمه خلق كثير ويتسلسل الأمر فيكونون كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة فالواحد على الأقل يهتدى سبعة والسبعة قد يهتدى كل واحد مائة وكل واحد من المائة قد يهتدى آلاف وتزكو الأمة ويتضاعف عدد الهداة والمهتدين وتعم الحضارة والعمران وترتقى الأمة فهذه نسب درجاتهم عند ربهم يوم القيامة (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) فالمضاعفة قد رأيتها والأجر العظيم يكون على وفقها (جزاء وفاقاً) وقال الغزالي (الأفضل أن يكون المتصدق عليه من أهل العلم خاصة فان ذلك اعانة له على العلم) والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النيات وكان ابن المبارك يخصص بمعرفة أهل العلم فقليل له لو عممت فقال اني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فاذا اشتغل أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقدر على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل ومن أراد أن يظهر له ذلك رأى العيان فليتأمل الأمم الراقية كيف يبذل الأغنياء أموالهم في سبيل المنافع العامة وكيف أثمرت ذكراحياسهم في الدنيا وورق أممهم فيها والجزء للمؤمن يكون على هذه النسبة فوا أسفاً على أغنياء الاسلام نبذوا المرشدين فضلوا في طريق الانفاق والوقف فترى همهم على قدر عقولهم وتعليمهم فأغلب الأوقاف للأموال القاصر نفعها ولعمري ان بين العالم والعابد كما بين النبي وأدنى رجل فهكذا فلتكن النسبة بين الواقف للأول والواقف للثاني هذه أموال المسلمين تهال جزافاً على التكايا فما الذي أفاد المسلمين منها إلا ضحك الأفرنج على أمور تنكي وتبكي وتؤلم العقلاء.

من ذا الذي كان يظن أن تصل هذه الجامعة لدرجة تحت الصفر يملوها تلج ركام فيموت علماءها ويحجي جهالها حتى ذلك شامخ مجدها وبأذخ سعداها
ياقوم رعا كم الله هل أصبحنا أقل الأمم ادراكاً وفهماً هل فقدنا رشدنا حتى احتجنا

لقيم علينا أيدرك الهداء اليونان والطلدیان والانكليز والألمان والفرنساويون والأمريكان واليابان والهند فيتبرعون بالمال للكلية ونبقى نحن في حضيض الجهل . مات رجل ألماني وترك سبعة ملايين جنيه فأوقفت ابنته نصف هذا المبلغ لعلوم الطبيعة التي يظن المسلم أنها تنافي دينه الآن . هذا القول فهل من سميع هذا الارشاد فهل من مجيب قام سسل رودس الانكليزي فأوقف ماله كله على المنافع العامة لأمته خاصة بل لها وللأمم كلها والسلام العام

انفقوا ياقوم أموالكم الآن وأحيوا كليات القطر في الأزهر والمساجد لتحملوهم على قراءة العلوم كلها وان أبي العلماء ووقفوا في منار واحد وعلى نمط مخصوص فدعواهم وشأنهم وأوقفوا لمدارس كليات بشروط تناسب الزمان والمكان الأفلتفقوا فقد سبقكم الأمم . أنفقوا وأوقفوا قبل أن تذهب ربحكم وتزول البقية الباقية من الأمة فقد غلبتم على الزراعة والصناعة والتجارة (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا بما رزقكم الله من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) ان لم تتحدوا على الكليات وتعميم التعليم الآن فما تمضي سنون قلائل إلا ويقفل باب الإصلاح وينادي من قبل السماء فيقال (أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين) . (الصيف ضيقت اللب) . (سبق السيف العذل) ياقوم أيجمل أن يتخطى الانجليز جزائرهم التي هي في بحر الظلمات بعيداً عن العمورة تكتنفها الأمواج في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ووراءها الحج لا آخر لها ولا منتهى إلا في الشرق تسعى لإنشاء مدرسة غوردون في البلاد السودانية وتدفع مائة ألف جنيه ونحن نأبى أن نصرف بمثل هذا المبلغ على أبنائنا فتباً لقوم لا يفهمون وتعمساً لنا إذا تمادينا في الضلال . هذه ثمرات الأعمال ظهرت في الأمم حولكم مصداقاً لكتابكم فياقوم لم قصرت همم الواقفين ولأى شيء قصرت إرادتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . هل كتب علينا الشقاء فمن ذا الذي يضع الحجر الثاني بعد الأول الذي وضعه (المحسن الكبير الذي علمنا انه سعى في انشاء كلية) ومن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ويفقه الحكمة العامة

في الأمم ورقبها فيضع الحجر الثاني (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) وليس الصالح هو ذلك المنتكس على الرأس في أعماله وأقواله في التكايا كلاتم كلاتم كلا انما الصالح هو ذلك الذي يصلح لعمارة الأرض ويعرف حكمة ربه فيضعها في موضعها . الانتكاس في الفهم جر الى نوم الغفلة والجهالة حتى انك لترى الأوقاف القديمة كلها راجعة إلى أمور قاصرة على ثمرات طفيفة فكانت النتيجة ما نحن فيه الآن . فهل لنا من رجل يقول ها أنا ليشجع غيره وينبوا الكليات ويعمموا العلم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما)

الفصل الرابع والعشرون

في المقالة التاسعة الأصمعية

خطاب لوجهاء الأمة

أدعو بقولي الآن وجوه الأمة وعقلاءها وأغنياءها دعوة مخلص في قوله ناظر لمستقبل أمته كيف وجهتم التفاتكم إلى شؤون الحياة صغيرها وكبيرها وعظيمها وحقيقتها وقديمتها وحديثها حتى شملت العناية المراجيض وبيوت الخلاء وتركتم كليتكم العظمى وهي الجامع الأزهر تندب حظها وتشكو زمانها وتنادى بالويل والثبور مدبوا أيديكم رعاكم الله إلى اصلاحها فان أبي القائمون بها وغلبوكم على أمركم فإلستم لاتسعون في انشاء كلية اسلامية تكون ملجأ لبني العظماء يتعلمون فيها ويتخرجون وقد درسوا أنواع العلوم يا قوم مالي أرى الحركة بطيئة والنوم طويل والنفس في حجاب والعقول في غفلة وهل أنا كم نبأ اليابان وقد قامت من غفلتها في سنين معدودة وهل يسبقنا الهنديون ونحن لا نبدي ولا نعيد اللهم إنا نضرع اليك أن تهدي سراتنا وأغنياءنا سواء السبيل من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط

ألا تخوس أبيات لها هم الأكريم على الخيرات معوان

هل من عظيم من العطاء يقوم فيمد يده بما يدونه له التاريخ في الإصلاح ومستقبل الزمن فيقتدى به الباقون والأمل عظيم في الأسرة الخديوية وعباسها العظيم وكمن سامع هذا القول يناجى نفسه ومن أنا حتى أجدد مجداعفا وريحاً ذهبت فينام نومة لاقامة بعدها

ولو درى ذلك ما توميء اليه قطرتان في السحاب تناجتا بلسان يفهمه العلماء المتبصرون ويجهله المقلدون الغافلون

قالت إحداها للأخرى (وقد رأيت زراعا في حقله واضعا رأسه على كفه نادما حزينا كئيبا) انى أرى لهذا الفلاح ولقد احترق فؤادى وانضى جسمى حتى أحسبني استمت دمة باك بعد قطر ساق فقالت الثانية ما أنت أيتها المسكينة ومثلك لا يملك للرجل نقعا ولا ضرا ولو قطرت من السماء ونزلت لم تكن عودا من القمح فضلا عن الحقل كله وماهى إلا لحظة تبقيين فيها على ورقة ثم تنشفك الرياح أطرق كرى ان النعام فى القرى

فقالت الأولى ان الوجود خير من العدم ووجودى فى الحقل ينعش فؤاد صاحبه فقهيته الثانية ضحكا وقالت ما أقبح الحزن بعد الفرح والبكاء بعد الضحك فقالت لأولى ان لى فى ذلك ثلاث خصال الأولى ان أدخل السرور على قلب صاحب الحقل الثانية أن أودى ما على من الخدمة الصادقة وأظهر ما كمن فى من الفضل الثالثة أن تقتدى القطرات الأخرى وبها يسقى الحقل ويتم الأمر وما كادت تم قولها حتى سقطت على ساق من نبات القمح فتبعها الثانية وغيرها وهلم جرا فروى الحقل ونما القمح وما مثل القطرتين المتناظرتين إلا كرجلين أحدهما يطلب الإصلاح والآخر ييأس منه وهذه فى الحقيقة طريقة الأنبياء والحكماء ألم تركيف يقول الله لرسوله (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) على إنه لا يأس من روح الله فقد دلت الحوادث على ان من سعى فى أمر باخلاص ناله كله أو بعضه وهذا

سر التوكل على الله وهو الاعتماد على النفس في العمل مع توجيه المهمة لمدير العالم كله
وبه يصرح (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والمراد
بالإيمان إيقان النفس بأن ما تعمل حق وعسى أن نسمع مجيباً لندائنا يرفع صوته لتحي
لأمة ليحي الوطن لترتق الصناعة والزراعة والتجارة

من ذا الذي يضع الحجر الثاني في بناء هيكل مستقبل الاسلام فأما الحجر الأول
فقد وضعه المحسن الكبير وإني أحذركم ذهاب الأمر من أيدينا في كافة شئون الحياة
أو نذل إلى الأبد

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذنان غير الحى والوتد
فدا على الحسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

فإن سمعتم النداء فهذه الحياة الطيبة وإلا فالذل أولاً والدمار آخراً (قل ما أسئلكم
عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل الخامس والعشرون

في المقالة العاشرة الأصمعية

العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون

انتبذت من القاهرة مكاناً قصياً يوماً مع أخ من أصدقائي وتزهنا في فلاة ذات
أشجار وأهار ومزارع وحقول وقد ضربت السماء علينا قبة زرقاء تحجبها أخرى من
السحاب الملون بالسواد في موضع والبياض في آخر والنسيم يلعب بالأغصان وهو عليل
فأخذنا نحوب أطراف الفيضة ونتمشى في جوانبها وقد خلانا فسيح الجو وعرفنا نعمة
سكون الضوضاء والجلية خارج القاهرة وتذكرنا حال الجنة وإنها لا لغو فيها ولا تأثيم
لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً فاهتاجت نفوسنا لمحاسن جمال الطبيعة وتأملنا فيما حولنا
اذ بمجمعات من النحل وأخرى من النمل وغيرها من الطيور فصفا الفكر الى تذكر

ما عرفنا وما كاد قلبي يذكر إلا وقد فاجأني صاحبي بقوله نحن عرفنا في المدرسة اتقان هذه الحيوانات في غدوها ورواحها ومستقرها ومستودعها واني لأذكر ما قرأته آنفاً عن النمل وأنها تهندس مساكنها بأعمدة منتظمة وترضع أولادها وتغسلها لتنظيفها وتأخذ الأسرى تحت سيطرتها وتقتنى حشرات كالأنعام عندنا لتقتن لبنها بخراطيمها وترزع الأرز بهندسة عجيبة في حقولها وهكذا النحل يشاهد لبعضه أسفاط (مقاطف) على مؤخر أرجله ليضع فيها مادة الشمع وينجز منها لأولاده وغير ذلك وإني أشعر بلذة عند تذكر هذه المعلومات ويأليت شعري ما فائدة هذه اللذة وهل دراستها ترقى المدنية أم هي من المسليات للإنسان كآلات الملاهي فقلت إن الشيء كلما كان نفعه أعظم كانت اللذة به أكبر فبمقدار اللذة به يكون نفعه وهذه السماء ذات نجوم بأقدار متباينة وأحجام وأضواء وحساب مختلفات يتكون منها علم الفلك وهذا العالم الطبيعي ذو صنائع متقنة مما ذكرت وما لم تذكر كل هذه من علويات وسفليات تذكرة للناس وميزان لهم فأى أمة أخذت حظها من العلوم واقتدت بملك الملوك في معرفة مخلوقاته كانوا هم خلفاءه في الأرض وسيطروا على الأمم وكل قوم ضلوا فهم هذه وفرحوا بما عندهم من العلم حاق بهم ما كانوا يستهزئون قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فما العالم إلا مدرسة وما الناس إلا متعلمون والله بيده الميزان يرفع ويخفض فمن رآهم تأملوا صنغته وقلدوها في الأحكام والأتقان وسابقوا كل حيوان في عمله والفلك في حسابه فازوا بالسبق في الدنيا ومن نكصوا على أعقابهم عوقبوا بالحرمان والخذلان (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب)

ولعمري كيف تكون الأمة خليفة في الأرض إذا لم يقم كل جماعة منها بصناعة أو علم كما أن كل أمة من الحيوان اختصت بصناعة أو علم وكيف يمكن التوغل في ذلك لا بالمدارس الكلية الكبرى وهل يمكن في بلادنا إلا ببذل المال من ذوى الثروة الواسعة وقد أصبحت بلادنا مزدحم الأمم جميعاً في التجارة والصناعة والزراعة وتلك

لعمرك يتضائل في جانبها المزاحمة الإدارية فاذا لم يقم الوطنيون بمدارس كلية فلا بد من تغلب العناصر الأجنبية على الثروة وينقرض العنصر الوطنى على تمانى الزمان كالأمريكان الأصليين واليه الإشارة بقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) وقد خربت كثير من بلاد الاسلام وغيرها قديماً وحديثاً كاسبانيا وأهل أمريكا الأصليين (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجون)

دعوة عامة للناشئين الى جمالى العالم والعلوم

أيها الناشئون هلموا الى كمال النفس الناطقة بالعلوم والعرفان وزينوها بالنظر والفكر وحلواها بمقود راق منظرها وحسن نظمها من مناظر الافلاك البديعة والطبائع المتقنة وعجائبها البهجة وغرائبها المدهشة قف في الفضاء والليل ساكن الحركات هادىء الانفاس وحدق بصرك الى قبة تراها أينما حلتت أو ارتحلت مرصعة بالدرارى اللامعة المشرقة فى جوانبها كأنها سممرت فيها رقشها مبدعها بما لا يصل اليه أمكان الانسان فى كل زمان ولو أن صانعا سقف منزله بقبة مزرقة اللون وزينها بالمصايح الجميلة وراعى بينها مسافات بالنسب الهندسية والابعاد الحكيمة التى بين الكواكب فى ما يوازيناها من قبة السماء ثم وضع هذا أملس خاليا من الفطور بريثا من الشقوق ناهجا نهج ملك الملوك لكان سقفه أعجوبة الاعاجيب وخلابة الفطن اللبيب ولو خطر هذا الخاطر لأحد المهندسين لهرعت اليه الناس أفواجا من كل حدب يسفلون ولتنافسوا فى سقوفه

ولو تأملت النجوم لرأيت أشكالا هندسية ما بين مثلث ومربع ودائرة وخط مستقيم وآخر منكسر وأخرى حيوانية فهذا كأسد وهذا عقرب وهذا حمل النخ .. ونراها ما بين أحمر وأبيض وصغير وكبير وان عددها تجدها ثلاثة آلاف بالعين العادية

وان أخذت صورتها (بالآلة المصورة) الفوتوغرافية بلغت مائة مليون^(١) وهناك ما أعجز الناس بإبصارهم وآلاتهم واختراعهم عن معرفته مصداقا لقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون والله واسع عليم) فإذا راقك هذا المنظر ترى النفس قد أشرفت وابتهجت وفرحت بما لاحظت من جمال هي به أخرى وتقرأ في سطور تلك النجوم كلمات العبر وآيات الحكم تعبر عن صنائع قادر وحكيم عظيم وتدخل إذ ذاك في عداد من ذكر الله بقوله (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا)

فإذا شأقتك نفسك إلى مرتبة العلماء والسادة الحكماء ولم تتمتع بأول مراتب الجمال ولم تستطع صبرا على مبدأ الكمال فخرج على علم القلك وشاهد ذلك الجمال بالبصيرة بعد البصر وادخل جنة العلوم والعرافان في هذه الدنيا فقدت إلى الجنة الأخرى (جنة عرضها السموات والأرض) فانظر نتيجة التقويم وقرأ ما سطره علماء حسابها من تلك الرقوم الدالة على سير الشمس والقمر والكواكب سنة فسنة فاعلم أن منظرها الجميل وراءه ما هو أجل منه وأبهى وأن الظاهر عنوان الباطن فكما جعل منظرها بالعيون حازت في حسابها الدقيق العقول وترى نظاما متقنا غفل عنه الجهلون ووصل إليه العارفون فإن رغبت مع هذا أن تعرف براهينها وإبادهما ونسب بعضها إلى بعض فهناك البهاء وتخرج من زمرة من عبرهم الله بقوله (ما شهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وتدخل في عداد من مدحهم وأثنى عليهم فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

العالم السفلي

وليس العالم السفلي كما يراه العامة مبثرا مشوش التركيب بل هو محكم منظم عجيب وإذا اتبعت ما رسمناه في هذا الكتاب وقرأت ما سطرناه في كتابنا (العقد

(١) كان هذا المقال في هذا الكتاب منذ نحو ٢٥ سنة ولكن الآن عرفوا أن النجوم التي تمكن معرفتها تبلغ ٢ مليون مليون مليون نظره في كتابنا الجواهر في تفسير القرآن المؤلف

الثمين في آراء العرب ومذهب (دروين) الذي مضى في هذا الكتاب لعجبت كيف اتسق خلق الجاد والمعدن والنبات والحيوان والانسان وصارت هذه كلها سلسلة واحدة أخذ بعضها بحجز بعض فترى الجاد تتلوه المعادن من تصدير وورصاص ونحاس وحديد وفضة وذهب يرتقى عنها النبات أصغر فصغيراً فكبيراً فأكبر حتى تصل النخل ثم الصلة التي بينه وبين الحيوان وتدخل في عالم منظم من هوام في البحر والبر فحشرات فحيوان بحري فطيور فجوارح فبهائم فأنعام فوحوش فسباع وهكذا حتى يصل إلى الانسان نازل الترييه فأخر فاصل حتى يصل إلى الأنبياء فلئلا تكتة الكرام وأريد أن تلاحظ جمال العالم ملاحظة دقيقة وتقف على ما سطره علماء الافرنج وتلاحظ الترتيب العجيب وتقرأ قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) ومن ذا الذي يعد نفسه في مصاف العلماء وهو لم يشهد الابداع ببصيرته وكيف يظن أنه من أولى العلم ما لم ير هذا الترتيب العجيب والخلق الجميل الذي يعرب إبداعه عن القسط والعدل ولعمري من ذا يدعى أن بينه وبين رب العزة في العطف مرتبة واحدة في قوله (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط) وهو لم يشهد بنفسه قيام الله بالقسط والعدل في إبداعه ولم يلاحظ هذا الاتقان البديع وياسبحان الله كأن مبدع الكون ألهم النوع البشري من آدم فمن دونه أن يبحث أولهم وآخرهم عن ترتيب الكائنات كأنه نقش على ألواح بصائرهم وكتب في مكنون نفوسهم إن ربكم حكيم في صنعه مبدع في نقشه فترى العرب وضعوا له الجدول الدال على أبعاد الكواكب الذي رأيته في العلويات ولاحظوا السعود والنحوس والافرنج وضعوا آخر وحسبوه من واحد الى مائة فيها وهكذا ترتيب الكائنات العضوية والعنصرية سائر بنسق واحد كنسق الكواكب وهو عند العرب أمر شائع في كتبهم أما الافرنج فلم يوظفهم له إلا (دروين) مع ما في سيره من النتائج المخالفة واعلم أنك إذا لاحظت هذا العالم السفلي ونقشه وإبداعه وصوره وأشكاله وعجائبه وغرائبه من النبات والحيوان ولاحظت ما حط على جلودها وصورها دخلت في عداد من أتني

عليهم الله فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) فانظر كيف خص خشية الله بمن عرف هذه العلوم بدليل ذكرهم بعد هذه العجائب وأعلم أن هذا الفكر كان شائعاً في العصر الأول زمن دولة العباسيين وفي قرون أخرى قليلة ولما انقطع سند كثير من العلوم ظن الناس أن الفقه والآلات كافية في هذا الوصف مع أن أدنى التفاتة إلى تاريخ أسلافنا رحمهم الله تعالى وإلى معنى هذه الآية وغيرها يريك أن خشية الله مختصة بمن عرف هذه العلوم التي رسمناها لك في كتبنا وأمثالها من عجائب صنعه عز وجل وهذه المرتبة لا تنال إلا بعد العمل بالشريعة والتخلق بها بقدر الامكان ومقدمته الفقه فلما ضعفت مدنيتنا وقفنا في مبدأ الطريق هذا وكيف تخشى النفوس الانسانية من لا تعرف إبداعه ولا أعماله ولا آثاره . الرقى في الحياة الدنيا مداره على هذه العلوم وكيف ترتقى أمة وهي تجهل ما حولها وما يحيط بها ولقد أنذر الله أمة هذا شأنها وهددها وأوعدها فقال (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فيا حصرة على بلاد الاسلام وشبان الشرق وأبناء العرب جاء القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم ينادى في آلاف من الآيات بالعلوم الطبيعية والفلكية والنظر في الأمم وفي كل شيء وأوعدهم وهددهم فجاء من صدم عنها من ذوى القصور فأصبحوا وقد صدق عليهم (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اللهم إني دعوتهم بما أودعته فيما كتبت إجابة لدعوتك وحباً فيك ورغبة إليك وشوقاً لذاتك وأنذرت وحذرت معذرة اليك وان عسى أن يعلموا فضل الأمم الراقية في الحياة الدنيا ونكون في الآخرة مع الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله

الفصل السادس والعشرون

في المقالة الاولى الملقبة بالرازية

هذه العلوم فأين الرقي

تساءل الاصحاب فيما بينهم آسفين حزنا وأنا بينهم صامت لأسمع ما يقولون
قالوا يا ويشتنا مالنا لا نرى رجالا نعدم من الأختيار الانزرا ولا حكاما نابضين ولا مرشدين
ولا مصلحين إلا ركزا . بلادنا والحمد لله غنية . مصر محط رجال الشرق والغرب
فيما جم غفير ادمقتهم ملامى باللغات العربية والفرنسية والانجليزية والالمانية من
مقتصد وسابق وأيديهم ملامى بالكتب وشوارعهم بالمدارس يتناولون الفنون أنواعا
ويزاولون الصناعات تباعاً

هل نالنا ما نال القدماء من يونان ورومان ومصريين من اختصاص طائفة
بشرف التعليم ! أم انقضت علينا ضاعقة محكمة التفتيش تنقب على القلوب الواعية
والانفس الراقية (كما كانت) في أوديا حكمة حار فيها الفطن . خلت المثالات وتعاقت.
التدر واعتاص الجواب نهل من مجيب

قال قائل . حوادث الايام وصروف الدهر وكوارث الزمان وأرزاء الهون والهوان
واستبداد الملوك السالفين وظلم الظالمين من صناجة المالك البرية والبحرية من التركان
وتأله الفاطميين وغيرهم من الفاتحين المستبدين . فقال الآخر لكل من الامم نصيب
وافر من انظلم وهذه أوروبا خفقوا عبيدا للاشراف غنا لم طعمة هنيئة بلا ثمن ومع
ذلك لم يعفهم عن الاشراف على المدينة والرقي فيها ولم نسمع قط أن أحدا من آباؤنا
الأولين سيم خسف الاستعباد ولا ضرب عليهم الرق ولا بيع مع الارض والماشية كما
بيع الافرنسي والسكسوني والجرماني وغيرهم ثم التفت إلى وقال ماذا ترى ؟ فقلت
لالتعليم اليوم ولو صح ما عاقبتنا شبا الطيأة ولا زحزحتنا قتل المدافع وما مثل العلوم في
الامم إلا كمثل النار تنقد فاذا غشيتها الوقود راد لهيبها والتهب سعيرها وتطايير شررها

وأرعد زفيرها فتشخص لها الابصار وتحديق بها الاظفار
أو مثله كمثل الماء يسيل فيجول في كل واد إذ لا يصدده سد العرم ولا الحجر
الصلد ولا التراب ولا الطين وكل شيء .

نعم عندنا تعليم مبدؤه جثماني . أسه الالفاظ بناؤه الاعراب سقفه التفهيق
والثروة زخرفة النكت الادبية غايته خبز سميد وعجل حنيد وثراب النبيذ وثوب
من ياريز

فويل لأمة كانت علومهم قشورا ودارهم يورا وأمرهم مأمورا . وبعبارة أجلى
وأوضح . العلم غايتان عليا وسفلى جسمية وعقلية كما أن للانسان جزءين جسما وروحا
يحمل الاول الثاني ويسيطر الثاني على الاول فهكذا العلم له غايتان تحمل الاولى الثانية
وتسيطر الثانية على الاولى

فاذا أردت بالعلم اكمال عقلك وشغل فؤادك بما حمل وحلا فلا ريب تنال بالاولى
ما يقيم جسمك فاما أن أردت حظ الجسم نابذا حظ العقل والفهم نبذ النواه فلن تصل
اليه أمد الدهر (وأن نيس للانسان الا ماسعى . من كان يريد حرث الآخرة تزده
في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب)

وسأتلو على مسامعك قصصا يوضح المقام ويزيل الابهام فيما سترى ان شاء

الله تعالى

الفصل السابع والعشرون

في المقالة الثانية الرازية

هل لك أن تتوضح ما قررته لك أمس من أن الامم اذا كانت وجهة علومها
جثمانية محضة - زالت الصلة بينها وبين مبدعها وتدهورت في مهاوى الخسران وباءت
بالنكال ولا أقص لك قصصا يوضح ما انبهم ويحل ما استعقد
كان في الامم الغابرة عالم يسمى بلعام نبغ بين اخدانه فاستظهر العلوم العقلية

والنقلية وصار يشار اليه باطراف البنان وسارت بذكره الركبان وإذا دعا ربه أجاب
 وكان النبي موسى عليه الصلاة والسلام مرسلًا إذ ذاك فسار في جيش من بني
 اسرائيل إلى أرض بلعام فأجمع القوم أمرهم أن يستظهروا ببلعام فأبى لعلمه أن النبي من
 عند الله فاحتالوا على زوجته بالمال فغروها فأضلته فاتبع هواهم فانقلب علمه جهلاً فاتبعه
 الشيطان فأخذ يفكر في الحيل والدهاء والمكر وأساليب الخبيث السياسي فانسلخ من
 الكمال فكان من الغاوين . والخلاصة أنه حول العلم الذي ضاء به قلبه إلى دهاء ومكر
 لينال به أشباع بطنه وسد عوز شهواته فكان من الخاسرين وكان قبل ذلك محاب
 الدعوة فأقبل بابه بعدها وحرم بهجة العلم وروقه وأنذر بالحرمان والطرود وذلك مثال
 لكل عالم في الارض لا يريد بالعلم إلا أن يكون آلة

والمثل الأوضح أنك إذا حضرت كلباً لدى ملك عظيم وألبسته بزة نصرقة وتاجاً
 مرصعاً وأجلسته في تحت الوزراء وأوقفت الجند حرساً والأشراف خدماً والحكام حشماً
 ثم رأي عظماً معروفاً أو لحماً متروكاً على سدة باب جرى مسرعاً إليها شرهاتاركا ما كان
 معظماً حاملاً موقراً لابساً مجملًا نائله

فهذا هو حال الكاب إن حملت عليه بالعصا لهت فأخرج لسانه مندلعاً وإن
 تركته لم يزل على حاله جشعاً لا يعرف المشقة من الراحة ولا الجحيم من النعيم
 بل ذلك مثل كل متعلم نال أمنيته من العلم ثم سولت له نفسه أن ذلك لشهوة
 النفوس فحسب وصد النفس عن جنّتها ونعيمها من الارتواء من أنهاره وورود حياضه
 وسلسبيله وأشجاره واقتطفاف أزهاره وجنى ثماره ذلك هو العائق عن الوصول الى
 المدنية كما وصلت الأمم المحيطة بنا من كل جانب فاذا شئت أن تقرأ هذه المعاني
 والقصص وتناجحه في القرآن فاقراً قوله تعالى في سورة الأعراف

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) إشارة إلى بلعام وكل من تعلم علماً ما حتى
 الجغرافيا والأشياء (فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) إشارة الى
 اتخاذ العلم آلة فحسب مع نبذ رقى النفس والعقل به ثم أوضحه فقال (ولو شئنا لرفعناه)

بها ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه) ثم أوضحه بمثل الكاب فقال فمثل كمثل الكاب إن تحمل عليه يلهت أو تتركه يلهت) وأبان أن تلك المثالات إنما هي غواش من الحجب التورية أو سرادقات من العلم تضم فيها أسراراً من الحكمة فلم يدعها عند حد التمثيل بل صرح وأوضح فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وجهلوا نفوسهم وغرّبهم الأمانى فبأوا بفضب الكسل على غضب الجهل - ثم أبان أن الغرض من القصص آثارها ومن المثالات علومها وفهمها ومن النار نورها ومن القصص مغزاهها ومقصودها وأن الجامدين على أحاديثها والمتكبين على إعرابها وبيانها والغافلين عنها ساء مثلهم ففسرت إليهم التعاسة والشقاء فقال (فاقصص القصص لعلمهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) ثم أخذ يشرح صفات رجال الأمم المنحطة وعقلاؤها وذوى النفوذ فيها وأنهم يقنعون بحسوم العلوم دون أرواحها أو المبادئ دون المعانى أو يسمعون القصص فيتخذونها سلوة وإذا رأوا حكمة رددوها للشهوات فقلوبهم غلغف وآذانهم صم وأعينهم فى غطاء فقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

ميزان وبرهان

إذا شئت أن تسبر أمتك بهذا المسبار فانظر خواصها فان ألفتهم متكالبين على الرسوم لذاتها والوظائف رابضين قانعين بما أوتوا من الرزق متكالبين عليه وشغلوا القوة العاقلة بهذا وحده فبشرها بالحياة الحيوانية والاستعباد الأدنى وبضدها تسمير الأشياء

كيف السبيل

إنما السبيل لذلك أن تؤلف الرسائل المشوقة للعلم الحائثة عليه كالأحاديث الحبية فيه حتى يرغب لذاته كقوله عليه الصلاة والسلام (أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

العالم رضاء بما يطلب) وقوله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة) اهـ

الفصل الثامن والعشرون

في حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى

يا قوم ألم يأن لنا أن ننظر فيما حولنا من الكائنات (أفلم ينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) يا قوم نرى كل يوم خيراً جديداً ساراً بانشاء مدرسة كذا وتبرع بكذا ووقف فلان مائة فدان على المدارس وثلاثمائة وهكذا ثم نبحت فلا نجد الا أموراً تافهة لا ترضى أى دولة في المدينة عجباً وأف عجب قامت النهضة في بلادنا وظهر لأغنيائها أن الفضل والفخر في البذل وانتشار الصيت ولكن قصرت تبرعاتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة

عاب على أمة يبلغ أهلها نحو عشرة الملايين ولا يكون فيهم مدرسة جامعة للعلوم مازجة لمصالح الدين والدنيا منخللة في غضون ذلك ان هذه العلوم لأبائنا الأولين حاث عليها القرآن الشريف بكثير من الآيات وكذا الأحاديث ونذكر أيضاً تلك الآيات ولا تقتصر على نحو (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فالقرآن مملوء بذلك بل أكثره فيه

أليس من المحزن أن يظهر فينا محسن كبير ومحسن صغير وسيظهر (أظن) محسنون على تهادى الأزمان ولا يجدون من يفهمهم ان مدرسة عليا (بشرايط مخصوصة) تجعل مصر فتاة في ريعان شبابها الا يجعل بنا وقد عجز مصلحو الأزهر عن القاء ما يفرض الدين علينا من الخلال الجميلة والاستعداد للطوارئ ان تنشئ مدرسة جامعة تكون ملجأ للسوري والبغدادى والتركي والهندي والجاوى والمراكشى والجزائري

والتونسي مع شرائط مخصوصة كما فعل سيسل رودس الإنجليزي ، زار العلامة المستر دوارد براون الإنجليزي مصر وتحادث مع عقلاء المصريين في أمور شتى ، وتكلم في مسألة مدرسة يراد انشاؤها مهمة أحد الأغنياء ، وما الذي يجب بالنسبة لها فقال لكاتب هذه الأسطر أن فلاناً أوجب أن تدرس فيها لغة أجنبية فما تقول ؟ فقلت أما أنا فان اهتمامي راجع الى الكليات لا الجزئيات والذي أعتقده ان مؤسسى هذه المدارس جهلاء لا يعرفون من العلوم الا مبادئها ولا تجمعهم جامعة الامة من لم يدرسوا من أحوال المدنية شيئاً ولا تاريخ أسلافنا الأولين كيف لا وهم لم يزيدوا شيئاً على ما هو حاصل فالأزهر والمدارس الاسلامية في المساجد وكتاتيب نظارة المعارف ومدرسة دار العلوم تغنى عن مثل هذا وانما أقول كان يجب أن تجعل مدرسة تعلم فيها العلوم العالية ويجعل هؤلاء صلة بين المسلمين عامة ان أمكن

يا قوم انى ليحزنتى أن يكثر عددنا ولا نجد من رجال العلم من يحدثهم بشأن مدرسة جامعة هل قل المحققون من العلماء نعم نعم والنفر القليل منهم محسودون . هل تخطى العلم الشرق وذهب الى الغرب ، هل كانت ثمرة القرآن محرمة علينا . هل ختم على قلوبنا وسمعنا وأبصارنا ، هل رفع القرآن فنعذر في الجهل . نحن أمة حق عليها القول (وقال الرسول ياربَّ إِنَّا قَوْمٌ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) جهلنا الأشياء ولم نحط علماً بما بين أيدينا فضلاً عما عداه فحق علينا القول (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) والآية شاملة لكل مالم يحط بعلمه ثم هدد بقوله (كذلك كذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) الحوادث متشابهة والأيام متتالية والأدوار متتامة كان الأمر في دولة الجراكسة لبساطتهم وعدم اهتمامهم بالاسلام عموماً يقتضون أنظارهم على وقف تكية ومسجد وكتاب ، والآن ترقى العمل الى مدرسة صغيرة . ألم يأن لنا أن نصل الى الدور الثالث فنقلد المعز الفاطمي في بناء أزهره

انى يا قوم ليسرنى أن تبني مدرسة يجعل فيها على الأقل قسم تعلم فيه العلوم العالية

لا كالتورمال ومدرسة دار العلوم بل يوسع فيها أكثر من ذلك ، ولنا في همة الواقفين وجهم للخير وغيرتهم الوطنية وصدقاتهم الدينية وحميتهم المليية خير نصير وهنا نذكر شيئاً لا يجوز لنا إغفاله وهو أن نذكر أفاضل رؤساء الجمعيات الاسلامية أن يلفتوا أنظارهم لموضوع مهم إلا وهو أن يدرس في السنين الأولى نباتات وحيوانات البلاد درساً طبياً زراعياً توحيدياً فيذكر أن الفجل مثلاً يدر البول ويطرد حصة الكبد ورمالها ويسكن آلامها وأنه يشير شهوة الطعام وأنه يحدث انتفاخات غازية وإن البقدونس يدر البول نافع لأمراض الكلى وأن الشعير مأوه ملطف مبرد مغذ مدر للبول وإن البصل يصدع الرأس ورائحته تورث عداوة الأصدقاء ولذلك كان أكله مكروهاً في الشرع ولكنه يصلح السائل المنوى ويقتل بعض المكروبات ويصلح الهضم ونحو ذلك مما هو مشهور عند الأطباء

ثم يقال لهم تأملوا حكمة الخالق وصنعه وكيف صور وخلق وقدر وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى (وفي الأرض آيات للموقنين . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وأنبئتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين) وهكذا مما لا يحصى . ويدكرون مثلاً النحل وكيف يبني بيوته ويشرب من الأزهار وكيف يأتي لنا بالعسل وكيف سخر الله هذا الحيوان الضعيف نافعا للإنسان وكيف نفع الإنسان بالعسل الناتج منه وما منفعه الطبية وهكذا وأنه ذكر في القرآن الشريف ويعلمون حسن الملاحظة كما في العنكبوت وكيف هندس وبنى بيتاً محكماً أقفله من الداخل واحترس من الأعداء . لعمري إن هذا الشكل يشوق التلاميذ لفهم جميع العلوم ولا يخرجون من سنتهم الأولى إلا وقد درسوا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فانتفعوا ونفعوا . وإني أكرر القول إن رؤساء الجمعيات مسؤولون بين يدي الله تعالى وبين يدي النوع الانساني عن هذا الأمر وهل يليق أن يعلم الانكليز والفرنساويون أبناءهم في الكتب الصغيرة تلك العجائب الكونية ونحرم نحن منها . نعم نحن نحالفهم في شكل التعليم فيجب علينا أن نجعل للأحاديث والقرآن وكلام علمائنا الحظ

الأمر عند الكلام على كل علة والإضاع شكل هذه الأمة ومزقت كل ممزق كأهل سبا مزقوا تمزيقا جسمانيا فهكذا نحن ممزق تمزيقا عقليا فيصبح هذا درويشاً وذاك أبه وهكذا . وكان تذكرة دودة القطن وكيف وضع الله أبا دقيق ملونا بلون جميل وكيف يموت الذكر بعد اللقاح وكيف تموت الأنثى عقب ترتيب البيض ووضعه وضمه متقنا هندسيا وكيف علمت هذه الهندسة وكيف تكون الشرقة معرضة للتقنيات الجوية وهي سلة منها بحيث تقاوم مالا تقاومه كثير من الحصون والبيوت العظيمة الانسانية أليس ذلك لحكمة باهرة وعظة ظاهرة (ان ربك هو اخلاق العليم) ويذكر كيف يعرف الورق الذي عليه الدود وكيف يحترس منه فينزع وهكذا . فيخرج التلميذ من المدرسة وهو رجل المستقل وقد عرف ربه ووحدته وعرف دينه ودنياه . ودرس قطنه وخلصه من الخلاك وعرف الصحة والمرض والنداء والمساء وقد صار رجلا عظيما كبيرا وقد أنترت وحذرت وكررت مرارا واثن سألت خاصة المسلمين وعامتهم وعلماءهم وجهلائهم عن سبب انحطاط هذه الأمة لأجابوك بلسان واحد هي المعاصي هي المعاصي ثم تسألهم عن تعدادها فلا يجيبونك إلا بالغبية والتميمة والأزبكية وما شاكل ذلك ويقروا (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا) فترى هذا الجواب منطبقا تماما على الآيات القرآنية وهذا حق وصدق يطابق القرآن والوجدان ولكن هل تفسير المعصية بما ذكر كاف كلاثم كلا . هذه المعاصي المذكورة هي الظاهرة وهناك أخرى باطنة تربو على هذه في العقاب آلاف مرة كالأمراض القلبية والأخلاق السيئة والجهل العظيم بل أكبر معاصي المسلمين الآن الجهل قبح الله الجهل قبحه . نادى القرآن على الجاهلين وغيرهم ووبخهم وأنذرهم بخراب مدتهم فقصرناها على أمور قليلة وقائنا العلم بما حولنا من الكائنات والمواليد الثلاثة حتى جهلنا النبات المحيط بنا والحيوان والانسان فلم نتفهم بالأولين ولم نتفهم من خطر الأخير (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الجهل بالنبات والحيوان أورت الأمراض وهلاك الزرع . لكل ذنب عقاب يخصه . فليس عقاب أعضاء الجسم الانساني

أكل الدودة لآقطن كلا . وإنما هو عقاب الجهل والتفريط وعدم البحث من أهلها بالعلوم والمعارف (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) العلوم كلها والصنائع فرض كفاية على المسلمين عامة اقرأ كتب الأئمة الأربعة تر صدق هذه القضية . يعذب المسلمون أميرهم وصلوكهم وكبيرهم وصغيرهم على تفريطهم في العلوم والصناعات من القدوم والمسار إلى الكهرباء والبخار ومن السكين والسيف إلى المكسيم والدم دم وأكبر صواعق العذاب تنزل على أغنيائها إذا لم ينفقوا وعلمائها إذا لم يندروا فيحق العذاب على الأمة في الدنيا فيجعل عاليها سافلها وأعزة أهلها أذلة ويحتم على الأفواه فلا تنطق إلا بما يوافق أهواء القابضين على الأئمة ويسامون في الآخرة عذاب النار (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل التاسع والعشرون

محاورات لطيفة في الاسلام

ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتقاؤه^(١)

اجتمع رجال من ذوى الفضل يوماً في عالم العجائب وكنت أسمع ما يقولون فنقلت ما دار بينهم وكان فيهم الحكيم والشجاع والمجتهد والواعظ والمحتسب والمقتصد والعالم والصوفي والمتبحر في العلوم والصانع والتاجر والفنى والاخلاقى والصانع والسائح والرياضى اذ الامة كالجسم فلتمثل الأمة الاسلامية به والحكيم رأسه (١) والشجاع بأسه (٢) والمجتهد فكره (٣) والواعظ لسانه (٤) والمحتسب سمعه وبصره (٥) والمقتصد

(١) تنبيه هذا الكتاب ألف من نحو سبعة سنين أى سنة ١٩٠١ ولقد كنا أزمعنا إذ ذاك أن نلخص أم القرى ونضمها هذه المحاورات التى نراها الآن وبعد أن لخصنا شذرات منها رأينا العدول عنها لاسباب لا محل لذكرها وقصدنا الى مباحث أخرى هى أهم وأولى فأثبتنا ذلك النزر اليسير منها والكثير الذى وضعناه ليكون تذكرة لأولى الالباب اه مؤلف

اعتداله (٦) والعالم عظمه (٧) والعامه لجه (٨) والصوفية ذهنه (٩) والأديب المتبحر في العوم والصنائع قلبه (١٠) والتاجر عروقه (١١) والفقى معدته (١٢) والاخلاقى جماله (١٣) والصانع يده (١٤) والسائح (١٥) رجلاه وبعضهم قرأ مقالات في الجرائد والكتب الحديثة .

ولما رأيتهم جالسين وقد أخذ كل مكانه خيل لى هيئة الأمة الاسلامية مجتمعة وقلت فى نفسى ياليت شعرى ما الذى يتفاوضون فيه وجمال فكرى قبل أن يتكلموا فى حال الأمة الاسلامية وقلت انى أخاف أن يقبل بعضهم على بعض يتلاومون وذلك انه جرت عادة الله فى خلقه ان كل أسرة أو أمة ذلك شامخ مجدها وذهب عزها تلاوم أعضاؤها وتقاطع رؤساؤها وكل منهم يحمل الآخر تبعته وهذه سنة الله فى الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا وذلك عام فى حال الحياة وبعد الموت ومنه ما نص الله بقوله (حتى اذا ادركوا فيها جميعاً قالت أورايم لأولايم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون) وقالت اولاهم لأورايم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ولما تلوت هذه الآية فى ضميرى قلت وهذه وان كانت فى الآخرة فهى حاصل نظيرها فى الدنيا عند كل اجتماع على غير كمال ونظام اذ للأمة موتتان أدبية عند الانحطاط فى الدنيا وموتة جسمانية عند انتقالهم الى الدار الآخرة فاذا ذهب مجدها فى الدنيا فهذا هو المسمى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا واذا ماتوا ردوا الى عذاب أليم وفى كل من الموتين يتلاومون كأصحاب الجنة الذين أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون الا بدخلنها اليوم عليكم مسكينٌ وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا ان كنا طاغين وهكذا الرؤساء والمرءوسون وهكذا آيات كثيرات فى الجدل والملاومة بين

الرؤساء والمرءوسين والذين اتبعوا وان كلا يبرأ من الآخر ويود عذابه حتى رد عليهم بقوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون) وهكذا نرى كثيراً من الآيات ذاكرة هذه المحاورات بين الفريقين ولقد علمت علم اليقين أن الكون متشابه وأن أحوال الدارين متشابهة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً وما الأخرى الا نتيجة الدنيا أو ثمرتها والثمرة تكون على حسب الشجرة

ولذلك ترى هذه المجادلات والمحاورات جارية بين علماء الاسلام وحكامهم وعامتهم ان لم يكن علانية فهو سرى مجرى على القلوب ولا يظهر على الشفاه وهكذا أفراد كل أمة وكل جيل من الناس عند وقوعهم في عذاب ناشئ عن تقصير منهم يلوم بعضهم بعضاً مع أنهم في الحقيقة متضامنون فلذلك يشتركون في العذاب في الدارين

ومن العجب أن الله تعالى ذكر أن أعضاء الانسان تشهد عليه يوم القيامة وقد قلنا أن الأمة كالجسم فانظر كيف ترى انها تشبهه في ذلك فترى كلام من رجال الامة بعد انحلالها يحمل التبعة على سواه مع أن الجميع مسؤول فيختم على فم الرؤساء اذ لا وجود لهم بعد انحلالها وينطق أعضاؤها بما فعلوا من الشرور التي أوجبت الهلاك فمن العجيب أن هذا مع ذكره لأعضاء الجسم الواحد يوم القيامة تراه بعينه حاصلًا للأمة حين انحطاطها ليتحقق معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) وقد علمت أن النفس الواحدة تشهد عليها أعضاؤها اذا ماتت فهكذا الأمة اذا خمدت أنفاس حياتها نطقت أعضاؤها المتفرقون المتشاكسون المتنافرون فتأمل في التشابه بين هذا العالم وموافقته لحسن النظام العام في السموات والأرض وسيره على أحسن نظام ونسق بديع

وبينا أنا تائه في بحر عميق من هذه السوانح العجيبة وقد طننت أن هؤلاء الأعضاء سيجرون على هذه القاعدة اذ رأيت منهم أمراً عجيباً وأروني ما لم أر وعلمت منهم أننا أمة لم تزل حية ولم يميت والحمد لله جسمها نعم رأيت منهم بعض التلاوم ولكن

لتلافي ما فرط وظهر لى من كلامهم أن في المستقبل أملا وطيذا وان من أصولهم التي بتوا عليها (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) * (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) فانسخت شمس أممهم ظلام يأبى وهناك ما سمعته منهم ونقلته عنهم لما انعقد المجلس قام الحكيم وقال مقتطفاً بعض أقواله من أم القرى يجب على كل منا أن يصرح برأيه ولا يخاف في الحق لومة لائم ولا يخاف انتقاداً وليس من يبدى رأياً ملزماً به بل قد يبديه من لا يعتمده لينظر الجماعة هل يستحسنون وله أن يرجع عنه إذا شاء لأنها خطرات وآراء تعرض للبحث والانتقاد والاستدلال

كلكم تعلمون أيها الاخوان أن مسألة انحطاط الاسلام بنت ألف سنة أو تزيد وإذا استحكمت وطال عليه الأمد استحق مزيد عناية في البحث عن الدواء ووصف العلاج الوافي واعلموا أن هذه المسئلة أجل من أن يقوم بها إنسان واحد وكيف يقوم الواحد بما بناه ألوف الملايين إذن لا بد من رجال وجمعيات ينظرون ويتفكرون وقد جرت سنة الكون أن العمل يحتاج الى زمان مناسب له إذ كل شيء بمقدار فالنخل لكثرة منافعها وجزيل خيراتها لا تثمر إلا إذا مرت عليها سنون بخلاف الحشائش والنباتات المعروشات والمتمدات كالبطيخ والقماء فانها تمتد سريعاً وتنفى سريعاً على هذه القاعدة ليس ينفع هذه الأمة مجرد عصبية تقور فتفور سريعاً أو جمعيات غير ثابتة تقوم فتسقط أو ثورات حضرية حمقاء لانلبث أن ينقلب بها الزمان ويحطها الحدئان وانما لا بد من التناسب بين الشيء ومقدماته

وهذا الاسلام تفرق شيعاً وذائق بعض المسلمين بأس بعض من قرون فقاموا آمنين مطمئنين وكانت الأمم المجاورة لهم أحط منهم فأخذوا يحارونهم حتى ساووه في القرن التاسع من الهجرة ثم ازدادوا عليهم في هذه الأربعة القرون بمراحل وأخذوا المسلمين من كل جانب فهب من كل جهة جماعة واستيقظوا لما حل بهم وحق بهم من المكروه فأخذوا يصفون الحال الحاضرة واعراضها بوجه عام وصفاً بديعاً يفيد التأثير ثم سبب الخلل النازل والجهل الشامل مع الاجال والتلميح مع أن المقام يأبى إلا التشریح والتفصيل

ثم أخذوا يندرون قومهم ويصفون هول المطلاع وسوء المنقلب في هذه النوازل ثم يلتقون التبعة على الأمراء والعلماء والعقلاء والكافة لتقاعد الجميع عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ومع كل هذا لم يحصل نتيجة معهم الى الآن وقد آن استثمار تلك الأقوال ولا يئسناكم ما ترون من انحلال جمعياتنا الشرقية سريرا فان هذه الجمعيات الصغيرة مقدمات للجمعيات الكبيرة الثابتة والشرق مشرق العظام ولا تيأسوا من روح الله فانه ما أضر هذه الأمة في هذه الأيام إلا اليأس إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

وما مثل الجمعيات المنحلة في الشرق إلا كمثل الإرهاب للنسبة فترى الإرهابيين الانبياء منبثات عما سيجرى على أيديهم فتستعد النفوس للتلقي عنهم ولا يفرنكم الكلمة المشهورة أن الأمة اذا سقطت وكسرت لا ترجع شابة فهذه القاعدة لا ثبات لها

وها نحن أولاء نرى الطليان واليونان والأمريكان واليابان كل هؤلاء استرجعوا مجدهم بعد أن فقدوا معدات الحياة وسقطوا في الهوة فاستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وليس بيننا وبين غيرنا فرق إلا في العلم والأخلاق وأمد العلم عشرون عاما والأخلاق أربعون

وهؤلاء قوم موسى لم يرجعوا لمجدهم بعد خروجهم من مصر إلا بعد الأربعين استعملوا فيها الأخلاق وعلا شأنهم

فهلما للبحث عن داء هذه الأمة ودوائها ولا يفرنكم اختلاف المذاهب فاننا كلنا تابعون للسنة والقرآن والمجتهد المصيب له أجران والخطيء له أجر واحد ولم تنقطع هذه الأمة إلا بتفرقها مذاهب وشيعة كل حزب بما لديهم فرحون مع تركهم مقاصد ذلك الأصل وهو الدين الجامع لجميع المذاهب الموجب لاتحادهم وتصلحهم ضد كل من ناداهم وعاداهم

ولتعلموا أن ظواهر الأسباب تبشر بنيل المأمول وحسن المستقبل فإن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء النبى ونزل جبريل بالقرآن ونجم فى هذه الآية رجال فى أقطار متعددة يعد الواحد منهم بألف

ثم قال أنى حبت البلاد شرقا وغربا وعرفت أهل المثل وجبت الهند والصين وبلاد أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقيا فوجدت أن المسلمين أينما كانوا أحط من غيرهم صناعة ونشاطا وانتظاما فى أمورهم الخاصة والعامة والدينية والسياسية حتى أنك لترى بيتين متجاورين أحدهما فيه مسلمون والآخر فيه غيرهم فيظهر لك الفرق بينهما فى ملح البصر فياليت شعرى ما السبب الذى دعا لذلك حتى قال بعض السواس أن الاسلام والتدين لا يجتمعان ومع هذا ترى المسلمين فى كل بلدة محافظين كل المحافظة على أمهات الأخلاق من الشيم والرفعة والكرم وحسن الأخلاق والعفة والأمانة وليس ينحط عنهم فى النشاط وجميع الأعمال إلا أهل الديانات المتشددة المغالية فى التشديد كالصابئين حول دجلة الذين يضعون أوقاتهم منغمسين فى الماء تعبداً وكالكنفوس من الزنوج وكالبيودية من الهنود المعتقدين ان كل مصائبهم حتى الموت الطبيعى من السحر فهؤلاء أكثر فتورا من المسلمين ويلحق بهؤلاء الدهريون والطبيعيون الذين يدينون فى نفوسهم الى قوة عظيمة وسموها الدهر والطبيعة ويقولون نحن أشقى الناس لما يرون من مستقبل مظلم وحياة رديئة

فالناس كما قال علماء الأخلاق لهم نوع دين ولا يصح أن نسمى إنسانا لادين له بالمره وهذه أوضحت معنى (وائى سألهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وهذا آثار أخذ العهود على البشر بالتوحيد والإيمان فالفطرة عليه اشترك فيها الناس ثم إن الدين الصحيح إن عمل به ساق الى نظام ونجاح فى الدارين وقد يدخل الفساد على عقول أهله فلا يفهمون معناه كما هو فينقصون أو يزدون عليه شيئا أو يجمعون بينهما فإن كان الأول فقد ينجحون فى الدنيا ويكونون ناقصى الدين وإن كان الآخرا فسدت المدنية وخسروا الدنيا والآخرة

وكل دين باطل قد ينشأ عنه فاسد بزيادة أو بها مع نقص عنه وهاتان توجيان خسران الحياتين أما اذا نشأ فاسد مع النقص فقد يرون مدنية زاهرة اذا هم نظروا بالعقل في أحوالهم المعاشية وبنوا على أساس علم العمران في الأعمال وهكذا اذا بقى كما هو باطلا فتلخص أن الصحيح يقود الى العمران بنفسه والباطل لا يعطل عن المدنية وهكذا الفاسدان منها ينقص إذ لا تعطيل في أعمال الحياة أما الفاسدان بزيادة أو بها مع نقص فانه بهما تتشوش أعمال الحياة فلا دنيا ولا دين

وهذه الاسلامية محجة بيضاء قامت بها هذه الأمة ألفا وثلاثمائة سنة مع ما طرأ من النقص في الفهم تارة والزيادة في الخرافات أخرى ومع ذلك حفظت إلى هذا الزمان وما ذلك إلا لقوة المتانة في أصولها

فالمسلمون ليسوا الآن أحط أهل الديانات جميعاً ولا أرفعهم وإنما هم أرفع من كثير منهم ولقد عرفنا ان دينهم صحيح فيا ليت شعري ما الذي طرأ على الأفكار حتى شوشها وعلى القلوب حتى فرقها فهذا هو الذي يجب البحث عنه

فقال العالم الذي أراه أنه طرأ عليه بعض قواعد اعتقادية وأخرى أخلاقية كمسئلة الجبر والتزهيد في الدنيا والحث على اماتة المطالب وترك المفاخر والزينة وعظام الأمور ولعمري ان الأولى بعد كل تحوير وتهذيب جعلت الأمة قدرية باطناً مختارة ظاهراً والثانية منافية لما كان عليه الصدر والسلف الصالح من اعتلائهم قم المجد والشرف في المطالب ولهذا نرى سيدنا عثمان أبا ذر الغفاري الى الرتبة

فقال السياسي ما نزل دين من السماء إلا وجاء مضاداً للطبيعة البشرية فاذا رآها مالت لجهة عدل هو إلى الأخرى ليقف الانسان في الوسط ويكون على الصراط المستقيم وهاك مسئلتى القضاء والتزهيد لم يختص بهما الاسلام بل هما في كل دين ليتسلى العاجز ولا يئأس الطالب بالأولى ويقف شره الطبيعة حينئذ في الوسط بالثانية لأن الديانات أدوية بها يرجع إلى الصحة ولا صحة إلا بالتوسط وهاتين العقيدتين تكون الأعمال من الانسان بنشاط وتتقدم المدنية والحضارة اذ كل يسعى بلا قنوط فيوجه

هتته إلى نفع أمته. أولاي يرى ان كل الأديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله أو خيره منه وشره من الشيطان أو من النفس ولكن قتل الانسان ما أ كفره فانه لا يلبث أن يعكس القضية فان جاء له خير افتخر وشخج بأفقه وقال هو من عندي وان جاء له الشر نسبته لله ولذلك لا ينسب البشر أمراً إلى القدر الا عند الجهل بسببه سترأً لجهلهم أو عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر سترأً للعجز . ولما غلب أخيراً على المسلمين جهل أسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا إلى القدر والتزهد تمويهاً لاتديننا . والشاق والعظام التي اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم لنيل الغنى والرئاسة فضلاً عن الثواب كفاية بوهان مع ان الأمة كانت زاهدة فعلاً لا كالزهد الذي تدعيه الآن كذبا ورياء.

فليس القصد من التزهد التعطيل والفقر بل توجيه الهمم إلى النفع العام الذي عليه ينشأ الاسلام اما اذا تعطلت الأعمال فلا اسلام ولا ايمان . والسعى في النفع العام هو المعبر عنه بالجهاد الذي يشمل جميع الأعمال العامة لا خصوص جهاد الكفار كما تظنه العامة والجهاد يكون لاعزاز الجامعة الاسلامية أولاً والجامعة البشرية ثانياً إذ الأمة الراقية ديناً وعلماً ومدنية يجب عليها رعاية الأمم المنحطة كالأب يربي أولاده ومثل الأمم المنحطة كالطفل يربي بين أبنائه حتى يصير مثابها لها . ثم قال والذي أراه أن سبب هذا القصور العام تحول مجرى السياسة العام فانها كانت بعد زمن الوحي نياية اشتراكية أي (ديمقراطية) تماماً في زمن الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية بعدم سبب الحروب والانقسامات بين أ كابر الأمة ثم صارت أشبه بالملطقة وذلك ان الأحكام لم تكن مدونة في زمن الخلفاء بل كانوا مجتهدين بما وقر في صدورهم ولما تفرق الصحابة في البلاد قيدوا الأحكام في زمن الأمويين ومن بعدهم فتشعب الخلاف ونشأ على تشعب السياسات فأصبح بأس الأمة بينها شديداً وقلوبهم شتى وأصبحت الأمة جندياً محضة وسارت في تيار المحاربات الداخلية والخارجية وآل الأمر إلى أن صارت أمة حندية صفة وأخلاقاً بعيدة عن انكسب بالوجوه الطبيعية

نعم قد كانت تصادف في سيرها فترات قليلة يقف فيها دولاب الحرب فتترقى العلوم والمعارف ثم تذهب في تيار حرب آخر ولا زالت تعثر تارة وتقوم أخرى إلى أن سبقنا الأمم من حولنا بأن صارت الجندية عندهم صناعة ذات قواعد مقررة مفقودة عندنا وذلك من نحو قرنين تقريبا فكانت أولا داخلية وخارجية للمدافعة تارة والفتوحات أخرى ثم صارت للمدافعة فحسب ثم صارت في القرنين الأخيرين داخلية لا غير وتركت المدافعة لجهلنا بالصناعة الحربية وأصبح بأسنا بيننا شديداً نعيش بالتعاقب على الكسب من وجوهه الطبيعية وهذا أجل ما يميث النشاط ويولد التحول

فقال الأديب : ان غيرنا من الأمم قد وجدوا في انقسامات سياسية وتباينات مذهبية وحكومات مطلقة وفي حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام كجرمانيا ثم قال والذي أراه ان هذا الفتور العام انما جاء من تأصل الجهل في غالب الحكام المترفين الأخرسين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا حتى بلغ جهل هؤلاء إلى منزلة أخط من منزلة العجاوات التي لها طبائع ونواميس فمنها ما تحمي ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون ومنهم البعض ضالون على علم وهم الذين يشتكون ويكون حتى يظن أنهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسي مع أنهم وأيم الحق يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم يظهرون رغبة الاصلاح وهم يبطنون الاصرار على ما هم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مباني مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يقر صاحبه لفاضل بفضل له لأنه داء الغرور ولا يجارى حازما في مضمار وقد سرى من الأمراء إلى العلماء إلى الكافة فلا يرجى معه شفاء فأجابه الشجاع الحر وقال :

من هم الحكام أليسوا منا ونحن منهم فما الحاكم الا فرد من القوم ترأس عليهم وطبعه من طباعهم ولذلك ورد كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى فمن أين يأتي المرض لأمرائنا والحكام أبناء الأمة تسربوا في حجرها والابن يرث غالباً

صفات أليه فتحميل التبعة على الأمراء وحدهم غير سديد
ثم قال والذي أراه ان سبب هذا الفتور العام هو فقدنا الحرية وما أدرانا ما الحرية
هي ما حرمتنا معناه حتى نسيناه وحرمت علينا لفظه حتى استوحشناه
والحرية هي أن يكون الانسان مختاراً في قوله وفعله ومن فروع الحرية تساوى
الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة
ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والطبوعات والمباحثات العلمية . ومنها العدالة بأسرها
حتى لا ينحشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار معتال
ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض والأمن على
العلم واستثماره فالحرية هي روح الدين ولا يمكن أن يقوم بدونها وكيف يقوم الدين
بدون النصيحة المتوقفة على الحرية وقد روى البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وروى البخارى أيضاً ان
صحابيا قال :

أنت النبي صلى الله عليه وسلم قلت أبايعك على الاسلام فشرط على والنصح
لكل مؤمن مسلم فالنصيحة مما تجب المبايعه عليه وانها من أصول الدين العليا الكلية
وهذا النصح لا يتم الا بالحرية ومما يحسن ذكره في فروع الحرية قول سيدنا حسان بن
ثابت الشاعر الصحابي

وما الدين الا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب
فانظر كيف حصر الدين في اقامة الشرائع وتأمين الناس ولعمرك أن الحرية
بفقدتها يعم السكل أفراد الأمة ويتمادى فيهم ويرثه عنهم أبناؤهم لما يرون من ذهاب
آراء سديدة وأموال وأعراض ونفوس وشرف ومقتنيات فتقبض الأيدي عن العمل
والأرجل عن السعى والقلوب عن الأمل والافكار عن التفكير والاستنباط وعليه
تدهور الأمم تدهوراً في أسفل سافلين . أجابه الفاضل المحتسب ان هذا الداء وهو
نزع الحرية من الافراد غير عام مع عموم الفتور وكيف ينتج العام عما ليس بعام هذا
مما لا يمكن

والذى أراه فى سبب عدم التنوير اننا كنا خير أمة أخرجت للناس بأمر بالمعروف
ونهى عن المنكر ونعبد الله وحده أى نتدلل ونخضع له أمرنا شورى بيننا نتعاون
على البر والتقوى ولا نتعاون على الأثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه
وما هان .

وقد يظن أن أصعب هذه الأمور النهى عن المنكر مع ان ازالة المنكر فى شرعنا
تكون بالفعل فان لم يكن فباللسان فان لم يكن فبالقلب وهذه المرتبة الثالثة متيسرة
وذلك بالأعراض عن الخائن والفاسق والفاجر وتجنب مجاملته ومعاملته ولا شك
أن ايتاء هذا الواجب الدينى كاف للردع . ولا يتصور العجز عنه مع انه أعظم ما يقوم
الممالك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وقال (ولتكن
منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم
المفلحون) وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليستعملن
الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب

وبالجملة فترك هذه الخصلة منذر بأفراض الأُمم التاركة له من الوجود ، ولقد
كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمن الصحابة والخلفاء الراشدين صادرين
من كل مسلم ومسلمة وكانت معيشتهم بسيطة فخلف من بعدهم خلف توسعوا فى الحاجيات
والكاليات فشغلوا بنفوسهم فأقاموا محتسبين ثم زاد تفرق الدولة تفرقا عظيما فبطل
الاتساب كما بطل التناصح العلم فأصبح بأسنا بيننا شديدا وأصبح الاتساب مقام
الاحتساب وصارت الأمة أشبه بالجنديّة المحضة

فقال الحكيم أن هذا يصلح أن يكون سببا من جملة الأسباب ولكنه لا يكفي
وحده لا يراى ما نحن فيه من الفتور والذى أراه ان أعظم مآلها هذه الأمة وأوقعتها
فى فتورها اعتقادها ان الساعة على وشك القيام كأنهم ظنوا انها تقوم علينا وحدنا
وتترك الأُمم مع ان علم الساعة عند الله

فقاطع الغنى الحكيم قائلا : هذه المسئلة تجول فى أذهان عامة الناس وخاصتهم

ولم يوضحها لنا أحد ولم يكشف عنها حجاب الحفاء ولذلك أصبح كثير من مریدی الاصلاح يثنون غراتهم عما قصدوا لاسيما اننا نسمع كثيراً من أهل العلم يقول فيها قولاً اجمالياً وان هذه علامات صفرى وهناك علامات كبرى قد آن وقتها مع ان هذا شىء مضى عليه ألف سنة ونيف وثلثمائة وهذا أورث القوم فتوراً عظيماً مع اننا نرى نشاط الأمم وتسابقهم إلى الخيرات ونظام المدنية فأرجوك بلسان الاخوان أن توضح لنا هذا الاشكال فقد غمض معناه وأبهم على الجميع فانا نراك من المحسنين المحققين

فقال الحكيم : من الحكم العجيبة هذه العقيدة عقيدة قرب قيام الساعة مع الجهل وهكذا القضاء والقدر وزمان الموت فكل هذه انبهمت على الناس مع علمهم بها ليدوم الخوف والرجاء وجميع أعمال الانسان في الحياة دائرة على محورين هما الخوف والرجاء كالأكل والتزوج فألم الجوع سائق ولذة الطعام قائدة وهكذا ألم الشهوة للتزوج سائق ولذة التزوج قائدة وهكذا جميع أعمال الانسان لا بد لها من لذة مطلوبة وألم منفور عنه حتى يعمل الأعمال بنظام فلولا خوف الفقر ورجاء الغنى ما باع التاجر ولا اشترى وهكذا الملوك والأمراء كل يخاف الزوال ويرجو المزيد وهذه سياسة لا بد منها

ولما علم مدير الكون أن لنا ارواحاً ستبقى بعد خلاصها من الأبدان وبعد خروج الأمم من أسر الطبيعة أراد أن يعلمنا بلذة الجنان وخوف النيران لنعمل للرجاء ونتقى للخوف ومع هذا العلم أبهم الوقت ليتمكن الرجاء والخوف ولو علمنا الوقت بعينه لعلب اليأس على الناس فلم يكن هناك رجاء البتة ولو ترك أعلامنا بالمرّة لم يبق هناك خوف قط فهذه هي الطريقة الوسطى التي تدعو إلى قيام الأمم وأفرادها وترقيها إلى أوج الفلاح والعلا والسعادة

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمر على حقيقته هو وأصحابه والصدر الأول من الأمة فأسس دولة وشيد ملكاً عظيماً وبنى عليه من بعده من الخلفاء الراشدين وبنو أمية وصدر العباسيين ثم خلف من بعدهم خلف وملوك ودول صغيرة استبدوا

بالملك وعزلوا العلماء جانباً عن تنبيه الأمة لما ينفعها وتدهورت الأفهام كلما تدهورت الأمة (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً) فلم يكن ظهور البرق في السماء ليعتقد الانسان أنه سيحرقه وأن المطر سيملاً القضاء بدون رجاء نفع وإلا كان البرق عذاباً واجباً وإنما جاء للخوف مع رجاء أن ينزل المطر فيحيي الأرض بعد موتها فجاء البرق للخوف والرجاء معا ومما مثل يوم القيامة إلا كمثل البرق فاذا قصر على الخوف دون الرجاء أحدث اليأس والقنوط فاذا تغير ما في النفوس من الأمل ولم يبق إلا القنوط انحطت الأمة (أنا عند ظن عبدي بي)

ونرى أن أمتنا غلب على عامتها وكثير من خاصتها هذا اليأس لاعتقادهم ان قرب الساعة زاد جداً حتى أنه ليس للإسلام قائمة تقوم مع أنه ورب الكعبة لا بد من بقائه الى آخر الدنيا بحيث تقوم القيامة على مسلمين وغيرهم كما ورد في حديث البخاري عن معاوية بن أبي سفيان وهو يخطب على المنبر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى وأن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) فهذا نص في بقاء هذه الأمة

ومن المبكيات أن الأمة كما تفهقت اعتقدت اشتداد القرب مع أن هذا لا يخطر في بال السواس الذين شيدوا مدنهم وحصنوا بلادهم ورفعوا أعلام المدينة

ثم سكت الحكيم فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فإنه جدير بالبحث فقال قسم العلماء اشراط الساعة الى قسمين صغرى وكبرى وقالوا أن الصغرى تأتي مقدمة للكبرى وإيضاحه أن هذه الأمم على سطح الكرة الأرضية يتلو بعضها بعضاً وكما ذهبت أمة اتبعها أخرى (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وكما أن الشخص الواحد ينذر

بالهلاك وهو الشيب والهرم والأمراض المتنوعة فكل هذه تنذر بالاستعداد للرحيل (وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) ويحيى البرق ليستعد الناس للمطر فهكذا الأمم لكل أمة عند إرادة خرابها نذير ينذر بانقراضها وتلاشيها من الوجود أو دخولها في عناصر أمة أخرى وجميع الأمم على سطح الكرة الأرضية ينقرضون ويذهبون من الوجود وتمزق الأرض كل ممزق باجماع الشرعيين والفلكيين والطبيين وجميع علماء الأرض قاطبة في هذا العصر من الافرنج والشرقيين

ونذير الأمة عند انقراضها حلول الأمراض فيها أي أمراض الاجتماع وداء الشقاق (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) وذلك أمور : —

- (١) عموم الترف فيها وتطاولهم في البنيان حتى يعم الطبقة السفلى من الأمة
- (٢) اختلاط الأنساب وأن يتزوج الشريف وضيعة الذنب فتمادوا عليه حصل الانقسام وذهب التناسب واستحكمت الشقاق
- (٣) ظهور الزنا وانتشاره جداً فتمى طال أمده كثير قتل الأجنة فذهبت الأمة من الوجود

- (٤) قلة العلم وظهور الجهل فيتولى الجهلاء الرئاسة فيظلمون الناس فتضيع الأمة
- (٥) شرب الخمر وكثرته والإدمان عليه فانه كما قال علماء العصر الحاضر سبب لتلاشي الأمم الشرقية ولذلك قال هنرى فى كتاب خواطر وسوانح أنه الطريقة الوحيدة فى إبادة الشرقيين هى حرب حقيقية معنوية

- (٦) أن يكتر الرجل من النساء عنده كما كان عند الشيخ المهدي السوداني والتعايشى
- (٧) أن يتولى أحكام الناس الذين لا قدرة لهم على ضبط المثلث من لاعصبة لهم ولا قوة ولا بأس ولاشجاعة ولا علم

فهذا من أعظم النذر فكل أمة غلبت عليها هذه الصفات أو أغلبها غلبت على أمرها ودخلت فى جسم أمة أخرى وحكمها الأقوى منها فانقرضت من الوجود حقيقة كما

في عاد وثمود والذين من قبلهم وبعدهم أو حكما كما في الأمم التي احتلتها أمم أخرى وتسلطوا عليها (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) وهذا كعاد وثمود ومن قبلهم وبعدهم (أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) وهذا كالأمم الباقية في حكم غيرها وهذه هي التي عملت عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ويخرجون من الاستعباد إلى الحرية

فهذه الصفات السبع التي ذكرناها علامات لانقراض الأمة واضمحلالها وهي بلا ريب علامات أجمع عليها جميع العمرانيين الشرقيين والاوروبيين وما من نبي أو حكيم أو سياسي إلا وأندر قومه وأعظم الناس الحكاء وأجل منهم الأنبياء وأعظمهم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذي ظهر وبرع في علوم العمران فان هذه الاسباب السبع ذكرت في الاحاديث مفرقة فأشار إلى الأول والثاني في حديث البخاري وهو سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والإيمان والاحسان والساعة وهذا نصه : عن أبي هريرة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال له ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسوله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أسرارها اذا ولدت الأمة ربها (أى سيدها) واذا تطاول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم اه

فقوله اذا ولدت الأمة ربها إشارة إلى ما أحدثه بنو العباس وملوك الاسلام قاطبة وأمراؤهم وأغنيائهم من اتخاذ نساء السبي المباحات لهم شرعاً وخرج منهم أولاد صاروا ملوكاً وأمراء سادة على هؤلاء النساء وغيرهن فلما تمادى الأمر على ذلك زالت العصبية

وذلك حاصل في بلاد المغرب والشام وجميع أقطار الاسلام إلا جزيرة العرب فانهم ما زال بينهم النسب محفوظاً الى الآن

فالقصد من هذه العبارة ترك الجنسية وعدم الرابطة القومية فانها من أمهات النذر للاقراض إذ الرابطة تكون بالجنسية والدين واللغة والوطن والصفات المشتركة والجنسية من أقواها .

وقوله وإذا تطاول^(١) رعاة الابل الخ فالقصد منه عموم الترف في الأمة فتنقطع الاعمال وتكثر الجبايات ويحتبون الحرب كما حصل في أمة الرومان ودولة العرب (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) . فقدم العامة فتطاولوا في البنيان وزخرفوا منازلهم وشيدوا قصورهم وأكثروا من المعاصي (فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) ثم أشار الى أن هذا علم يقوله (ولم أهكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) والذنوب هنا كل ما يخل باصلاح الأمة كعموم الترف والزنا وغيرها من الأمور السبعة المذكورة وأشار للثالث والرابع والخامس في حديث البخاري عن أنس قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) وليس رفع العلم إلا ما ورد في حديث البخاري أيضاً بسنده الى عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله لا يقبض العلم اتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً أخذ الناس رؤساء جهالاً فاستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

فن هذا تبين معنى رفع العلم ولا يظن اخواننا أن علم الفقه وحده كاف في نظام الأمة فلقد سمعت من مشايخنا أنهم يقولون أن قضاء هذا العصر قضاء ضرورة وذلك لأنهم لم يستوفوا شروط القضاء الشرعي ومن لنا بقضاء كعلي رضي الله تعالى عنه وشریح ومن بعدهم فهذا اعتراف بأن القضاء عندنا أصبح ركنه مهدداً وهو تفسير حديث النبي

(١) قدم هذا في الفصل الاول في هذا الجزء واتضح فيه اسراف الامويين العباسيين الخ

صلى الله عليه وسلم ولذلك لما ضعفنا في غالب الأقطار عن ضبط العامة اغتالتنا الأمم وأصبحنا معرضين لأخطار كثيرة وارتزعت بلاد وخربت أمم ودخلت أخرى في جسم غيرها من الأمم ولقد حل بنا ما حل بعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وذلك في بلاد الاندلس فانهم أجلوا عن بلادهم وأهلكوا وهكذا الأمم الأخرى أصبحت في الاختلال فأخذها الاحتلال جزاء وفاقا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فانه عز وجل يحب البقاء والسعادة لا الشقاء والدمار فان لم تصلح الأمة بنفسها أرسل لها من يصلحها وما كان الله ليضيع العباد فيريح الضالة باحدى أمرين . إما الهلاك من الوجود أو تحكها أمة أخرى وهذا هو سر هذا الوجود .

ومن أسباب هذا الجهل أن أهل العلم يظنون أن المدار على تعلم قواعد العلوم العربية والأصول وأن تحصل للانسان ملكة الفهم في العلوم الشرعية وبها يصلح أن يكون قاضياً . مع أنه قد أضع حياته فيما لا يكفيه ولا يفنيه فترك فهم القرآن والحديث وتهذيب النفس فأصبح من الضالين المضلين فالاعتدال على الفهم شيء والفهم شيء آخر والعمل هو النتيجة فاذا ترك هذا كله لم يبق إلا علم الفتاوى وهو لا يهذب النفوس وانما جعل سلاحاً لاصلاح منازعات العامة وأشار الى السادس والثالث والرابع بحديث البخارى :

قال أنس ألا أحدثكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء وتقل الرجال حتى يكون خمسين امرأة القيم الواحد .

وهذا نراه حاصلًا في كل أمة كثرت حروبها حتى قربت من الاضمحلال في كثير من أمراء الشرق الذين يكثرون من الترف وهو علامة على الاضمحلال ودمار الأمة وأشار الى السابع في حديث البخارى بسنده عن أبي هريرة قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاء اعرابي قال متى انقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع

حتى اذا قضى حديثه قال أين أراء السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال فاذا أضيئت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف أضعها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة

ولما أتم الحكيم كلامه قال له التاجر انا نسمع في هذه الأحاديث التي تقصها علينا ذكر الساعة ولقد حصل لنا ريب في هذا فان الساعة هي القيامة وأين القيامة وأين خراب أمة مخصوصة نحن علمنا من هذا التقرير الذي أوضحته لنا ان هذه الأمور توجب دمار الأمم وخرابها لا خراب الكرة الأرضية كلها إذ هي أمور ترجع الى صلاح العمران وفساده واذا فسدت أمة لم يلزم منها فساد أمة أخرى بل الهى دلت عليه التواريخ وجميع التجارب والعلوم انه كلما هلكت أمة أحدث الله بعدها أخرى كما انه كلما هلك انسان خلفه آخر في الوجود ليدوم العمران مع أننا نسمع عن أسرار الساعة عن كل نبي من الأنبياء فلقد أشكل علينا الأمر وزاد أشكاله فأزل الريب عن قلوبنا فقد قرب أن نصل الى فهم هذا الموضوع من حسن بيانك فان نظرنا لايضاحك وجدنا هذه منذرات بخراب الأمة التي تقع فيها فقط وان نظرنا لألفاظ الأحاديث وجدناها تذكر الساعة مع ان الأمم كلها لا تنجى من الوجود الا اذا جاء لها نذير عام وهو المعبر عنه بالاشراط الكبرى كأن تطلع الشمس من مغربها وهذا بلا ريب عند اختلال سير الشمس واضطرابها في سيرها بمحصول تصادم أو نحوه من الأمور السماوية التي يعلمها الله تعالى ويجهلها العلماء كافة وبعد ان تأخذ الأرض زخرفها وتزين ويظن أهلها انهم قادرون عليها ولا يبقى حرب في الأرض ويظهر جميع أهل الأرض بمظهر الجمال في الاخلاق والآداب وذلك عند ظهور عيسى كما في الحديث ويزول الضلال والدجل من الأرض ولا يبقى سوى السلام وهذه الاشرط لا وجود لها الآن البتة فان المدينة التي تراها الآن ملأت الكرة الارضية ظلما وحربا فأين الهدى وأين السلم وما البهتان والزور الا من الأمم الحاضرة الذين هم أساس كل ظلم وعتو فأوضح لنا هذا الموضوع تنل الثواب الجميل

فقال الحكيم : ان اشراط الساعة ذكرت على لسان كل نبي يندرون قومهم بها وكلهم كانوا ياتون بالقسمين فلنقدر ان الامم التي قدر الله وجودها على سطح الكرة الأرضية من آدم الى خراب الأرض ألف أمة مثلاً فاذا قدرنا الامم التي مضت من قبلنا تسعمائة وخمسين وبقى الآن ٥٠ ونحن لانعلمها فكلمها هلكت أمة من الحسين الباقيين وهم بلا ريب أقل من التسع مائة والحسين انذرت بانقراض الدنيا إذ هذه الأمة واحدة من الحسين الباقية فكلمها غرب نجم واحدة قربت القيامة بمقدارها ولذلك سميت السبعة العلامات الصغرى وذلك انها تنذر بأمرين بهلاك أمة عاجلا وبقرب الساعة فبعد ان كانت بقي عليها خمسون أمة يبقى تسع وأربعون

فهنا أمران هلاك لجزء من الناس وانذار لقرب خراب الأرض كلها فاذا بقيت الدنيا بعد هلاك أمة آلافاً مؤلفة من السنين فيقال ان علامات انقراضها من اشراط الساعة فاذا تناهت الأمم واحدة بعد الأخرى حتى جاء أمر الله جاءت العلامات الكبرى ونحطمت الأرض والسماء وانقلب هذا الوضع الذي نراه . وفائدة هذا الانذار ان الامم قد يكون بها رمق الحياة فتستعد للرجوع ويخلفهم أقوام يجددون مجداً جديداً ويسابقون الناس وربما فاقوا آباءهم الأولين وهانحن نرى الآن اليابان والطلليان والأمريكان واليونان استرجعوا مجدهم بعد خروجهم من الاستعباد وهكذا بنو اسرائيل رجعوا مجدهم لما استكملوا العلم والاخلاق في أربعين سنة حتى مات الجيل الجبان وأخلفه أهل الشجاعة والبأس (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين) وهذا هو الدواء الذي تستعمله الامم لرجوع مجدها وعظمتها . ولعمرك لم يقصه الله في القرآن الا ليرينا كيف نسترجع مجدنا القديم

وأما الاحتجاج بقرب الساعة فجهد عظيم فانه من تدلى الفهم الدال على تفاهم الخطب ولذلك قال العزيزي في شرح الجامع الصغير نقلاً عن بعض العلماء حديث (الدنيا سبعة آلاف وأنا في سابعها ألفاً) ما معناه انه حديث مكذوب لا أصل له بل هو قلق التركيب شخيف العبارة سنده فيه وضاع

أظن أن هذه الفكرة جاءت من أمة اليهود التي شاع فيها هذا الكلام تسلية عما فاتهم من الملك ولما ضعف المسلمون ورثوا هذا الكلام عنهم وهذه طبيعة في النوع الانساني كلما ضعف عن شيء أحب التسلي كما يتسلى العاجزون بالقضاء والتقدير والبطالون بلعب الطاولة والترد والسكرارى يسلون أنفسهم عما أصابهم من هموم الدنيا وأحزانها غاية الأمر أن هذا سكر ظاهر وذلك خفي يأخذ بالعقول عن النظر في الشؤون وكما يتسلى العاجزون عن الفتك بالعدو يتمنى زوال النعم والحسد وما يفتكون الا بأنفسهم وما يشعرون فالأمة التي تتكل على قيام الساعة تدل بذلك على دنو أجلها وموتها وهلاكها مالم يتداركها حكاماء علماء ويأخذوا بيديها من وهدة الضيق والهلاك

ومن طبق هذا على أحوال الأمم جميعها رآها مطابقة تمام المطابقة وهذه الأمة العربية لما شاعت هذه الأمور السبعة فيها الى القرن التاسع من الهجرة ابتداء الدمار فيها تنبيهاً من الله لأهلها ليأخذوا حذرهم ويرجموا مجدهم وقد ورد في الحديث ان فتح القسطنطينية من أسراط الساعة وقد جاء مصداقه حين فتح أحد الاسبانيين بلاد الأندلس وقتلوا أهلها وسبواهم فأخذوا وهم لا يشعرون

وذا ذهبت تلك الدولة شرع الافرنج في احتلال الجهات الأخرى وامتلاكها من الغرب والهند وغيرها (وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) فقوله مهلكوها كخراب الأندلس وقوله أو معذبوها عذاباً شديداً كالبلاد التي أهلكتها أو ملكها غيرهم كالغرب والهند ومصر والجاوه وكل على حسب جريمته في الابتعاد عن نظام البلاد وادارتها المعبر عنها بالقواميس الشرعية والقوانين السياسية المطابقة لها وليس هذا كله مانعاً من الترقى مرة أخرى بل جرت سنة الله أن الأيام يداؤها الله بين الناس (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وهذا الدين لا يزول من الأرض بل آية أمة أضاعته حملته أخرى تقدر على حمله (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

ولما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية وكان سلمان الفارسي جالسا قال مشيراً
اليه هم قوم هذا وقد ظهر هذا فان الفرس هم الذين أبرزوا علوم الإسلام وأغلب حملة العلم
منهم كما قرره العلامة ابن خلدون ها نحن ان لم نتم بهذا الدين فربما يأتي المستر والمسيو
الانكليزي والفرنساوي فيسلم فيغلبون على أمرنا ونحن الآن فينا بقية من روق الحياة
نعملوا للعمل وثقوا بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويرجع مجدكم
وربما فقم الأولين وهنا يظهر سر التوكل على الله تعالى فلما سمع القوم منه
ذلك قالوا :

لقد شفيت قلوبنا والحمد لله الذي جعل في الاسلام رجلا حكيما مثلك يبين للناس
ما نزل اليهم وأكثر فيه من أمثالك
فقال الجهمد أن بيان أخينا الحكيم الفاضل كف شاف في هذا الموضوع ولقد
بدأ لي فهم انخبته من فحوى كلامه ومرامى أغراضه وذلك ان القيامة قسمان صغرى
وكبرى فاذا مات انسان فهي قيامة صغرى له والقيامة الكبرى هي عند خراب الارض
وبين موت الشخص وخراب الأرض يموت أنفس كثيرون وكلما ماتت نفس قربت
الساعة الكبرى بمقدارها إذ النفوس الانسانية معدودة محدودة وما مثل النفوس
بالنسبة للأرض الا كمثل الانفاس بالنسبة للنفس الواحدة فكما تنفس الانسان مرة
ذهب من حياته جزء وقرب موته بمقدار ذلك النفس فاذا ذهب نفس آخر ازداد
القرب وهكذا إذا مات شخص ممن قدر وجودهم على سطح الكرة الأرضية قربت
القيامة بمقداره وهكذا كلما هلكت أمة دلت على قرب الساعة أو اشتداد قربها وعلى
ذلك فهم قوله تعالى في عيسى وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها وقوله صلى الله عليه وسلم
بعثت أنا والساعة كهاتين وقوله (أنا النذير العريان) وكان إذا ذكر الساعة أو خطب
يظهر الغضب في وجهه عليه الصلاة والسلام

وقد ورد في حديث أن جماعة جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن الساعة فقال (إذا مات هذا فقد قامت قيامتكم) وأشار إلى أصغرهم فيفهم منه أنها اسم جنس وهذا هو الذي فهم من الأحاديث وهو المطابق للأخبار ولكن هذا غير ما يفهم عامة الأمة في هذا لزمان . ولقد كان النبيون يندرون بالأمرين الاشرار الصغرى والكبرى وكان أكثر عنايتهم بالصغرى لأنها هي المهمة القريبة وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد اقترب ماذا أنزل الليلة من الفتن لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج كذا وحلق بالسبابة والوسطى) مشيراً الى فتح مسألة التتار وذلك أن الاسلام كان آخذاً في الانتشار ولما انتشر جهة فارس وخراسان قربوا من بلاد التتار وهم يأجوج ومأجوج فمهر عن مقدمات فتح السد بفتحه كما يقال الصحة مفتاح المرض والشباب مفتاح الشيب والحياة مقدمة الموت اذ كل من التوالى نتائج فهكذا ظهور التتار وهم يأجوج ومأجوج نتائج اتساع الفتوحات ومتاخمة بلادهم لبلاد التتار وانظروا كيف ظهر أثر هذا الكلام بعد ٦٠٠ سنة وخرجوا ودوخوا الاسلام كما أوضحناه في هذا الكتاب

ثم ان كلام الأنبياء عام لا يخص أمة بعينها فتى حق القول على أمة هلكت واضمحلّت وقد تكون لها بقية فترجع كما كانت ولذلك كانوا يعلمون العلامات الصغرى والكبرى لأن أحوالهم عمومية وكان الكون كله أمامهم ينظرونه بمنظار الكشف فيعبرون عنه بما يوحي اليهم والوحي أمر سماوى عمومى فاذا جاء للأمة أخذ كل بما يناسب قواه العقلية فاذا أراد الله هلاك أمة فهمت أن القيامة ستقوم عليهم ووقفت حركتها واذا أراد اعزازها كان هذا سببا في نشاطها وعلمت أن هذه المنذرات يقصد بها الأخذ في أسباب السعادة مرة ثانية أو تكون عقولهم ارتقت ويقارنونها بقوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

والأمة إذا يئست من روح الله عدت كافرة ولكنه كفر دون كفر لأن هذا يوجب عذاب الدنيا والكفر الآخر يوجب عذاب الآخرة فقال آخر .

هذا السبب لا يصح أن يكون سبباً لاجداث هذا الفتور العام في الامة إذ فكرة قرب الساعة كما قلنا شائعة في جميع الأمم فلم تختص بأمة دون أمة على أن فهمها على غير وجهها جاء من انتكاس القرائح والافهام على الرأي الناشئ من الخول العظيم المستولى على الكافة وهذا ما نبحت عنه والذي أراه يصلح أن يكون سبباً عاماً لقطع سلسلة الولاء في الأمة بين الحاضرين والماضين فلم تتطلع الانفس لجدتها القديم وذلك أن غيرنا من الأمم إذا مات عظيم من عظمائهم نصبوا له التماثيل وألقوا الكتب في تفریطه وذكر أعماله ونشروا أخباره حتى يعرفه الناشئون في المدارس والمنازل وعلى ألسنة الناس في المجالس حتى ينسخ الناشئون على منواله ويتبعونه اقتداء بما فعل لما يتولد من روح النشاط وحب التقليد فاذا جاءوا عند تمثاله وقفوا أمامه لم يروا شخصاً أمامهم إلا تذكرة لجميع أعماله في حياته ويتمثل لهم ان هذا الهيكل رمز لتلك السجايا الحميدة والصفات العديدة الجميلة فيشب الناشئون على سير الآباء ومحبتهم والافتداء بهم ويحبون أوطانهم أما نحن فان عطائنا وهم الأولياء والملوك والعلماء لا تقرأ في سير الكثير منهم الا الكرامات وخوارق العادات ونترك كل عمل جليل عملوه مما ينفع الأمة حتى إذا وقفنا عند الأضرحة لم نعمل بما صرح به علماءنا من أننا نقف معتبرين في أحوال دنيانا وآخرتنا ونقارن بيننا وبين صاحب ذلك الضريح . وكيف كانت حياته ونفمه للناس واقتداؤه بالأنبياء ونطلب له الرحمة مكافأة على احسانه (فهل جزاء الاحسان الا الاحسان) ونقتدى في أفعالنا (فبهدهم اقتده) وعلى ذلك نخطينا كل الأعمال الشريفة ووقفنا في هاوية لا مرد لها إلا إذا عقلنا وفهمنا كتاب الله على وجهته

ولذلك لا ترى انتشار سيرة سيدنا عمر وعثمان وعلى وغيرهم من أكابر الصحابة ولا التابعين ولا الملوك العاديين من العباسيين والأمويين وإنما المنتشر على الألسنة بين العامة والخاصة بعض كرامات الأولياء الصالحين والاختصار عليها مع ترك ذكر الأعمال العظيمة لنفع الأمة وهذه قصة سيدنا الحسين وعلى ومعاوية تراها شائعة ولا

تذكر فضائلهم إلا تبعوا وإنما المذكور في الغالب المشاجرة التي أمر العلماء الاتذ كرو كان الواجب أن تنشر فضائلهم بين الأمة ليقننوا الناس بهداهم . ونرى أن المؤرخين يجمعون الحوادث من حيث هي بقطع النظر عن تأثيرها في النفوس وإنما يأتون بكل ما سمعوا مع أن التاريخ حدث في الأمم للاعتبار والاقتداء . ولم نجد منهم من ألف تاريخاً يقصد النفع والتأثير على الأئمة والنفوس بفضائل الأعمال العمومية فيرون التاريخ من حيث مصدره لا من حيث نفعه وتأثيره مع أن الأمم العربية عرنت تأثير ذلك فبحثوا عن سير علمائهم وخلصوا الحوادث تلخيصاً يولد في الناشئة رغبة صالحة . ولعمري أن الناشئة متى سمعوا قصص أسلافهم مشحونة بالحرب والضرب والقتال والحداع قلدوهم في أعمالهم وعلى ذلك نرى قصة أبي زيد الهلالي والزنادي خليفة وعذرة العيسى وهبله شائعة بين عامتنا .

فياليت شعري كيف يفلح قوم شاعت هذه القصص الجهلية بينهم حتى اتنا نرى العامة في القرى والامصار عندنا بالبلاد المصرية مولعين بهاتين القصتين شبانهم وشيوخهم وصفارهم وكبارهم فلانا لله وانا اليه راجعون^(١) .

وما قصص الغابرين من الأمة مع الحاضرين إلا كسلسلة اتصل أولها بأخرها فاذا قطع ذكرهم انقطعت السلسلة من الأذهان فتدهورت الأمة وضلت تأهية حتى تأخذها أمة أخرى وتحفظ أنسابها وأشعارها وتاريخها وتنسى سلسلة قومها

ولقد عرف الانكليز ذلك فجعلوا قومهم - قسمين محافظين وأحرار فالمحافظون يدرسون الماضي وبيقون كل قديم على قدمه ليقى نظام الأمة متصلاً كما كان أولاً ويتصل أولها بأخرها وتبقى رابطة قوية والأحرار يأتون لكل جديد فيمزجونه بالقديم فيأتون بكل اختراع حدث علماً منهم انهم انقطع نسبهم عن الأمم المجاورة لهم في المعمورة تألبوا عليهم وغلبوهم في الصنائع والمعاملات فأخذوهم فكل أمة تركت مجدها القديم أولم تنظر للجديد ولم تجار جيرانها هبطت وانحلت واختلت

(١) ليفكر من بعدنا في هذه القصص وليهدبوا وبيقوا النافع منها حتى تصلح لسماع الجمهور

فبالأول تذهب قوتها وجيشها وبالثاني تنقض عليها الأمم وتمقطع عن سابقتها فتتهور في الهاوية وبئس المصير فوجب علينا أن نسلك الطريقة ونعمل بالأمرين وتقرأ سير الأوابين منا وتؤلف تأليفاً نافعا مؤثراً وأن نجارى الأمم حولنا ونستعين بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

فقال الأديب اننا نرى في الأمة جزءاً صالحاً من شعائر القومية وارتباط السلسلة ولكنه يحتاج إلى اصلاح وتفليح فلا يصلح هذا أن يكون سبباً بل هو من العوارض والذي أراه يصلح سبباً عاماً جهلنا بأساليب الروايات وهى من الفنون الجميلة أضاعته الأمة وحفظه الغربيون والفنون الجميلة كلها مشوقة للنفوس إلى ما يراد منها والخياليات والروايات أعظم ما يقود الأمم للترقى والنجاح وما تركنا هذا إلا لجهلنا بمقصود القرآن والحديث فاننا قصرنا أفكارنا وأضعنا أعمارنا فى استنباط الأحكام الفقهية التى بها نعبد وبها نحكم بين الناس مع أن كلا من العبادة الفقهية والاحكام بين الناس إنما هى ظواهر ومقدمات ولها نتائج ونهايات فالعبادات لتفريغ النفوس عن الشواغل إلى العبود وهذا هو المقصود وإذالم يحصل فهى قاصرة وهكذا الأحكام بين الناس ما شرعت إلا لفساد الأخلاق والمنازعات بين الأفراد وأرقى منها تهذيب أخلاقهم التى لا يحتاج معها إلى تلك الأحكام ولا ريب أن فن الخياليات والروايات كما قيل يسوق النفوس بالوعظ إلى الخالق يشوقها إلى الكمال والآداب التى هى الثمرة المطلوبة فلا يكون هناك دعاوى ولا بينات فهذا الفن يوصل للقرب من الخالق والخالق وهما نتائج جميع الديانات إذ السكون مؤسس على الحب وهو أرقى من الخوف والعبادات والأحكام السلطانية أقرب إلى الخوف وصلاح النفوس وكلها بالحب وهما النهاية والحب أقوم الأمرين وأفضل الطرفين وأعدل الحكيم .

ولهاتين الغايتين جاء القرآن بقصص الأنبياء والصالحين والملوك والفرعنة والجبارة وذكرها فيه أكثر من ذكر الأحكام والعبادات اشارة إلى ما قلناه والروايات إما على السنة الحيوانات أو الجمادات أو الانسان وهذه الأخيرة تارة عن رجال معروفين وتارة عن مجهولين والأولى إما أن تكون حقيقية أو غير حقيقية ومن الحقيقية

قصص القرآن ومن غير الحقيقية مقامات الحريرى و بعض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرفاء ومما جمع بينهما ألف ليلة وليلة ومما جاء على السنة الحيوانات كتاب كليده ودمنه وكثير من الكتب توضع على هيئة محاوره بين الجمادات ولكل وجهة هو موليتها ن وضع على السنة الحيوانات والجمادات أسلم عاقبة وأنفع مما وضع على لسان الانسان ون أصل لالتباس الحق بالباطل ولذلك كثر الخلط في التاريخ بشيوع ألف ليلة وليلة ومحوه من كتب الروايات ما علمنا وما لم نعلم فلكونها على السنة الانسان اشتبه الحق بالباطل وفسدت العقول بعلم التاريخ لما يوردون عن هارون الرشيد وخلفاء العباسيين مما لا يجوز فاقتدى بهم كثير من أمراء الأندلس والشرق فضاغت الدول الاسلامية ولم يكن مثل هذا من كتاب كليده ودمنه الذي وضعه الهنود وترجمه الفرس فالذى على السنة الحيوانات لا خلط فيه فمثل رواياتنا جعلت لترقية العقول ولكنها نعم السير على بس العير أما قصص القرآن فقد جاءت حكاية عن الأنبياء ولم يكن فيها إلا الحث على كمال النفوس الانسانية

ولعمري أن الناظر فيها يعجب جدا من اقتناص مارق وراق من تواريخ أولئك الأنبياء مما يلائم التوحيد وتهذيب الأخلاق والعدل وحسن النظام مع أن حياة كل منهم فيها أمور متفرقة لا تنحصر فواجبا لحسن هذا النظام البديع المبهج الجميل ولقد عرف من نزل عليه التاموس مغزى تلك القصص وهو الاعتبار فأباح الروايات على اختلاف أنواعها وقال عليه الصلاة والسلام حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فالقصود من الحكايات معادرتها لا مواردها لأن في النفوس البشرية ميلا إلى الكمال والحاسن بفطرتها وتلك الأفايص الروية عن بنى اسرائيل التي كان يحدتهم بها في أغلب الليالي ولم يجعل عليهم حرجا فيها إذ هي تحرك مافي النفوس من التحسين والتبجح بالفطرة وأباح عليه الصلاة والسلام للأمة أن تأخذ الروايات من حيث هي حكم ومواعظ بقطع النظر عن مواردها وإنما المعتبر مضارها كما قاله علماء البيان من أنها جميعها استعارات تمثيلية وقال تعالى (إن في ذلك لعلبرة لأولى الأبصار) ولهذا

شجنت كتب التفسير بروايات نبي اسرائيل وكان الصدر الأول يعرفون ماقلنا فخلق من بعدهم خلف غيروا ما بأنفسهم من العلم فتغيرت الأوضاع فظنوا ما نقل عن سليمان وأيوب ويوسف مما ذكر خارج القرآن في الروايات أمورا محققه فضل البعض فيها والبعض كذبها وقال لا أصل لها ثم خلف آخرون وصاروا يقولون أن الأمة العربية قوم يجمعون الخرافات ويؤلفون المفتريات وهذه كلها من الانكسار على الرأس وإتيان البيوت من غير أبوابها حتى زاد بعضهم في الطين بلة ورجع إلى قصص القرآن وأخذ يطبقها على التاريخ وتارة يثبت وأخرى ينفي

ولعمري أن قصص القرآن لم يكن القصد منها أن تأتي لتراجع على التاريخ وإنما القصد تنأجها والنظر في عجائبها والانتفاع بها وأما النظر إلى أصل القصة فهو جهل وشك وإن كانت نفسها حقيقة ومتى عدل بالشئ عن قصده كان ضره أكثر من نفعه فساء مثلا القوم الجاهلون ولقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله لا تضر بوا القرآن بعضه ببعض .

النظر في الروايات أمر طبيعي في البشر هو مبنى قوامهم وعليه يدور رحي مجدهم فهما عرفت الأمة أن القصد منها غاياتها فهي بخير ومهما رجعت إلى أصلها فهي ضالة وشاهدنا على ذلك ما كان من الصدر الأول من المسلمين فانا لم نسمع منهم غير الفهم والتفهم والتعقل وهما هي أمة الإفرنج الآن لا يزالون يؤلفون الروايات وهم يعلمون أنها خيالية ولعلها إذا مضت فترة من الزمن يأتي قوم آخرون فلا يفهمون ويقولون أنهم مخرفون كما جاء متأخروا الاسلام فظنوا أن أسلافهم مخرفون في كتب ألف ليله وليله وغيره ومن جهلنا بالقصد من قصص القرآن أن الكثير من المتعلمين أصبحوا لا يلوون على الاعتبار بها ولا تذكرها بل علماء الفقه أنفسهم والمحدثون لم نرهم يستيقظون قط إليها لظنهم أن الفقه هو المقصود والمهم من القرآن فضيعنا جزءاً عظيماً من ديننا

وبعض الناظرين في تلك القصص يقول مالنا تراها مكررة وهلا ذكرت مرة واحدة ساء ما يفهمون أو ما علموا أن القصة تذكر تارة تفصيلاً وأخرى اجمالاً وأخرى بين

ذلك بحسب المقامات واختلاف الأحوال وتباين الأغراض فيستشهد في كل مقام بحسبه بحال من أحوال صاحب القصة ولنوضح هذا الاجمال بقصة ابراهيم إذ ذكرت في سورة الانعام لمجرد الاستدلال على الله تعالى

فذكر ذم الأصنام ثم البرهان بأقول الكواكب والقمر والشمس على مدير الكون كله وفي سورة الأنبياء ذكر محاورة بينه وبين قومه في الأصنام وتكسيها وادخالهم له في النار ونجاته منها وانعم الله عليه بعد ذلك فقال: ولقد آتينا ابراهيم رشده الآيات:

وذكرها في سورة الشعراء فشرح كيفية دعائه فقال وان من شيعته لا ابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم فذكر محاورة بسيطة في الأصنام ثم شرع يصف الخالق وتدييره فقال الذي خلقني فهو يهدينى والذي هو الى أن قال رب هب لي حكما والحقنى بالصالحين وضمن دعاءه ذكر الجنة والنار والتعريض بقومه أنهم غاؤون

ففي المرة الأولى أرانا الحجج العقلية وفي الثانية كيف يكون أنعم الله على من نصب نفسه لنفع الأمة وكيف يؤيده متى صدق في نيته ولذلك صدرها بقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فأشار إلى أن الخالق متى علم من عبد صدق نيته في نفع أمة نجاه من الاعتداء ونصره وفي الثالثة أرانا كيف يكون الاخلاص لمدير الكون وكيف يكون الدعاء والتعريض في الكلام لجلب الخصوم ومقامنا هذا لا يسع تفصيل القصص وأنتم أيها السادة خلاصة من الأمة فمثلكم من يكتفى بالقليل عن الكثير وجميع قصص القرآن على هذا النمط على أن في تكرارها فوائد تعلم الأمة كيف تؤلف الكتب ومثل القصة في القرآن كمثل كتب تؤلف في موضوع والنفس كثيرة السامة فلا تكاد تثبت على حالة واحدة فاذا قرأت القصة في موضوعين أو مواضع في كتابين أو كتب كان لها أشوق وأثبت ولقد نعلم أن الأمم الغربية والشرقية يحيلون على المؤلفات في تأليفاتهم فينشط القراء لها وهي من أجمل الحيل في التعلم

ولما غفلنا عن تلك القصص هدمنا كثيرا من بنيان مجدنا وسبقنا اليه الغربيون

وتفرقنا شيعاً وذاق بعضنا بأس بعض ولو عقلنا بعضها لم نتفرق ومن لنا بحكيم يجمعنا على كلمة واحدة ويقص علينا موضعاً رائقاً من قصة ابراهيم وهو قوله واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات الى قوله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) فان هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع الأمة وهي متفرقة فقد ذكر فيها اخلاص ابراهيم واسماعيل في بناء البيت ودعائهما وانه لما مات وصى بنيه وذكر ان من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يأمر بالنصرانية ومنهم من يأمر باليهودية وتعالى بعضهم فادعى ان اولاد ابراهيم كانوا يهوداً أو نصارى فأمرهم بالرجوع الى ملة ابراهيم وهو أصل هذا الدين وهو التوحيد بالبرهان وأن النصرانية واليهودية أشبه بالفروع من الأصل وبينهما فرق في الأعمال والاحكام لاني التوحيد والاعمال والاحكام تتغير بتغير الزمان وقد ذهب الزمان المناسبة له تلك الاحكام فبطلت ببطلانه فلنرجع الى أصل دين ابراهيم وهو التوحيد ولا جرم ان كل أمة من الامم راضية عنه فالمرجع اليه أولى من الشقاق والانقسام

هذا هو مغزى تلك الآيات

ولعمرك الله انها لم توضع في القرآن لمجرد سرد حكاية وانما علم الله اننا سنقع في هذا الانقسام فذكرها ليأتي قوم حكما، فيقلدون سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ويجددون شريعته التي مزقتها الخلافات وصاروا فرقاً شتى ويقولون أن علماء الأمة كانبياى بنى اسرائيل ومثلهم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم كمثل أولئك الانبياء لابراهيم وكلهم مصدق بربه ونبيه وكتابه فوجب أن نترك المناقسة في أمر الصحابة والخلفاء ، لأن هذا ليس من الدين في شيء وانما هي أمور عارضة ليس لها دخل البتة وتحدد في الامر العام وهو الخالق والقرآن والنبي وكل يعمل على شاكلته ولاندخل الاشخاص والتشيع في ديننا وتقول لمن يتعرض لأحد الأئمة رضوان الله عليهم من آل البيت أو غيرهم من العلماء وأكابر الأمة . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ويترك كل واحد التعصب لمذهبه ، فمثل

الحكيم منا كمثل النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء كالأَنْبياء وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كإبراهيم ودعوة نبينا لتابعي الأمم بتوحيد العقيدة مع الأمر باحترام جميع الأنبياء كدعوة حكيمنا باتباع القرآن والخالق والنبي ونبذ الشقاق واحترام كل مذهب بدون تعصب لأحدهم من آل البيت أو غيرهم وتعظيم كل عظيم من عطاء الأمة فيقول آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد فلم هذا الشقاق ولقد علمت أن قصص إبراهيم جاءت لأمر كثيرة:

(١) برهان التوحيد

(٢) كيفية المحاجة وبيان صنع الله بمن صبر على الجهاد

(٣) كيفية الدعوة وإدخال النصيحة في قلب الدعاء

(٤) كيف تجتمع العناصر المختلفة من البيانات المتفرقة

وغير ذلك مما لم نذكره وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لوحدة الدين مع اختلاف الأنبياء فما بالك بمن يدعو لاتحاد أجزاء دين واحد فهو أسهل ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك لا ذاق ككسرى وقيصر وغيرهما وعما كتبه إلى هرقل عظيم الروم :

(و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً آرياء من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وما يشير إلى هذه الطريقة قوله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) كأننا مأسورون بالدعوة لأصل الدين عند الاقتراف كما دعا صلى الله عليه وسلم إلى اتباع الأنبياء له عند اختلاف الديانات

مقاصد علم التاريخ

ومما تفيده تلك الفصص من حيث الأسلوب أن يكون تأليف علم التاريخ لمقاصد

وغايات ينتحلها المؤلفون كما يفعل مؤلفو الأمم الأخرى فاننا ما رأينا قصة في القرآن ذكرت إلا لغاية مطلوبة اختلفت طرقها واتحدت وجهتها وعندى أن هذا أعظم معجزة إذ كيف يستخلص من قصص كثيرة متفرقة متباينة نبذاً مخصوصة لمعان متقاربة تنحصر في الله والرسول والمحاجات وتهذيب الأخلاق والبعث والحشر والميعاد من الثواب العقاب فعلياً أن نتحرى هذه الطرق ونسلك عند تأليفنا مسلك الارشاد لا الأخبار وإذا كان المقصود من القصص الحث على الفضائل والعقائد فمن قارنها بالتاريخ فقد رجع بها عن أصلها وضل سواء السبيل ومثل من يقرأ هذه القصص ويرجعها إلى التاريخ الأصلي كمثل من يقرأ القرآن والتفسير ويطبقه على النحو والصرف وعلوم البلاغة مقتصرأ على ذلك فهو لاء قوم ما علموا المقصود منه بل خرجوا به عن موضوعه وأبو البيوت من غير أبوابها فلم يفلحوا

فباب القرآن ليس هو التعمق في العلوم العربية ونحوها ولا التطبيق على التاريخ ساء مثلاً القوم الغافلون ولسنا بهذا ندم هذه العلوم فاننا ما عرفنا إلا بها وإنما قلنا أن المقصود وراءها لاهي فمن وقف عليها فهو الضال سواء السبيل .

ففي الجملة فمن الروايات فن جميل جهله المسلمون في كتابهم فجهلوا عمرته وغفلوا عن أفهام أسلافهم فيه وضلوا ما في كتب التفسير من تلك الروايات عن الأنبياء ظناً منهم أنها حقيقية مع أنها خيالية وليس الحقيقي إلا ما جاء به لفظ القرآن منها فحسب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث بها الحديث الليل كله لعلمه أن القصد ثمرة الحديث لا هو وفرق ما بين ما يراد لنفسه وما يراد لغيره وان هذه كلها استعارات تمثيلية ولقد سمعنا الغربيون اليه وضللناه . على هذا أصبح الناس يقرءون سورة يوسف في القاهرة كسماخ قصة عشق وما علموا أنها مقصودة للعفة والصبر والاحسان إلى العشيعة والعفو عن المذنب عند القدرة وحسن السياسة وترك الزنا وحبس النفس عن الشر وإكرام الأخوة وعدم مؤاخذتهم وغير ذلك ولقد خصت قراءة القرآن بأوقات الأفراح والمآتم وما علموا أنها إنما تكون لنفوس تحيا حياة طيبة بالفهم والعلم .

البرهان والتقليد

فقال السائح هذا أقرب الى الدواء منه الى الداء، إذ هو جاء لبيان طريقة الاصلاح ونحن الآن نبحث عن الداء والذي أراه أن هذه الأمة لم تتعمق إلا في مسائل الأولياء والكرامات وخوارق العادات فقال له الصانع أنتكر كرامات الأولياء فقال لا ولكنى أقدر ما خطر بنفسى فيها وما حكمتها فقالوا امض في هذا الحديث فقال :

إن هذا الكون مؤسس على نظام وحكمة عليّة فائقة ومنها أمر الدين . فأية أمة كان فكرها راقياً عرفت دينها بالبرهان وإن سقطت أفكار أفرادها وتفرقت أهواء عقلائها فأنهم لا يعرفونها إلا بخوارق العادات وقد أرسل صلى الله عليه وسلم والقرآن أعظم معجزته لأنه راجع الى العقل والفكر وهو الباقي لآخر الزمان أما تلك الخوارق فاذا توقف عليها إيمان الأمة دل على انحطاط أفكارهم ونكوصهم وضعفهم عن فهم دينهم كما نص على ذلك الشعرانى وكان الله لما رأى سرعة شكهم أتى لهم بتلك الكرامات ليطمئنوا علماً منه بأنهم ليسوا مستعدين للتصديق والإذعان بنفوسهم

وهذه الاسلامية فى صدرها لم تكن فيها تلك الكرامات الا قليلا مما وقع لعمر وأبي بكر ونحوهما رضى الله عنهما والايان النبى على الخوارق وحدها ضعيف كما حقه الغزالي فى قوم موسى اذ ارتدوا حين رأوا عجلا من ذهب جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى وذلك لأن عالم الشهادة والحس يكثرفيه الخطأ والفرور وطى هذا ورد قوله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذبها الأولون وآتينا ثمودالناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً

ولقد علم الناس ناقة صالح وكيف شاهدها قومه فكفروا فأراد الله أن يجعل معجزات نبيه فى أفكارهم وعقولهم لا فى حسهم الذى يقع فيه الغلط وكان ارسال الآيات الحسية لمجرد الأخذ بحسب الظاهر أو التخويف ولا ريب أن الخوف لا يدوم الاتعاظ والانزجار به إنما الذى يدوم الاعتبار بالعقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (أناجيلهم في صدرهم) كسحرة فرعون الذين آمنوا
 ايماناً ولم تتغير عقيدتهم بعد بخلاف قوم موسى
 وبالجملة فامتنا الآن تحتاج الى زيادة نور في الايمان وتثبيت في العقيدة وفهم
 للقرآن كما كنا زمن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين وينبى على ذلك علو
 الفكر فيسمو من البسائط الى المركبات ويعلمون أن التوحيد ليس أمراً بسيطاً فاذا
 بقى التوحيد في القلب ولم يصل للعمل فهو ناقص وما الدين الا قول واعتقاد وعمل فاذا
 اعتقدنا ولم نعمل أو قلنا ولم نفعل فنحن لم نزل في البسائط ولم نخرج منها الى المركبات
 ونبقى عبرة للأمم وأول الدين أمر بسيط ونهايته سياسة

العلوم الرياضية والطبيعية

نقال العالم المتبحر في العلوم أن هذا يصلح أن يكون من الأسباب الداعية لموت
 الشعور اذ الناس تبقى أفكارهم من- صرة في أمور جزئية ولا ينظرون للكليات ولكنه
 لا يكفي وحده لعموم هذا الفتور

والذى يصلح أن يكون سبباً في عموم هذا الفتور اهمالنا العلوم الرياضية والطبيعية
 مع أنها أصبحت لازمة للحياة لزوم الجسد للروح وأصبحنا نحتاج اليها في أصغر الصنائع
 وأدقها وأكبرها وأعظمها وليس احتياج الخياط لها أقل من مسيس حاجة مدير الكهرباء
 والبخار في سير القطار وليس لزومها للاديات بأقل من لزومها للعقليات

وهاهو القرآن الكريم يقص علينا قصص الأمم الفائرة تارة ويذكر حكم الكون
 اخرى وهذه العلوم قد أبانت في الاكتشافات الحديثة ما يدهش الحكماء من أعاجيب
 الخلقه وبدائع الحكمة في الطبيعة والكيمياء وما فيهما من مقادير معينة في المركبات
 وتناسب المقادير تناسباً عجيباً حتى أنها سارية بقوانين لا تتعدها فاتضح بيا قوله تعالى
 وكل شيء عنده بمقدار وقوله وأنبئنا فيها من كل شيء موزون وقوله وهو أسرع
 الحاسبين وقوله ان الله سريع الحساب وقوله والذي خلق كل شيء فقدره تقديراً وقوله

الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقوله انا كل شىء خلقناه بقدر وقوله الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقوله والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وقوله ونضع الموازين انقسط ليوم القيمة وقوله وأنزلت من السماء ماء بقدر وقوله وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد وقوله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وهذه الآيات كثيرة يطول شرحها منتشرة فى القرآن كأنها جواهر منتثرة فانقتصر على ما ذكرنا وكفانا هذا الاجمال .
فقال له الأديب

ايضاح فى العلوم الطبيعية

أيها الفاضل أفض فى هذا الموضوع وفصل الكلام تفصيلاً فان الاخوان كلهم آذان صاغية وأنى طالما كنت أقرأ فى كتب الأقدمين أن جميع الموجودات وضعت بمقدير هندسية وحسابية وكنت أراهم يسمونها نسباً تأليفية ويقولون انها أفضل النسب لجمعها بين الهندسية والحسابية وهذه العلوم المكتشفة حديثاً قد أوضحت الأشياء إيضاحاً تاماً وأنت بها خبير فأوضح المقام وغرابته فانه من ملحقات البحث فى الاسلامية وما آل اليه أمرها وعلاقة هذه العلوم بها فان المسلمين اذا علموا أنها تفسر القرآن وتجعل معناه ظاهراً فى الطبيعيات نشطت عقولهم من عقل الجهل الى حرية العلم
فقال إن العالم مركب من أجسام كثيرة وعناصر متباينة تزيد عن سبعين عنصراً وهذه العناصر هى التى وصل إليها الاستكشاف الآن وقد كان الأقدمون يعتبرون البسائط أربعة فقط وهى الماء والتراب والهواء والنار فأصبح ما كان بسيطاً عند

الفر بين والمراد بالعنصر من لا يمكن تحليله إلى جسمين آخرين وهذه العناصر منقسمة إلى قسمين معادن وغير معادن تسمى أيضاً فلزات والمعادن أجسام صلبة كلها إلا الزئبق وهي موصلة للحرارة والكهربائية بحيث أن الكهرباء والحرارة إذا وصلت إليها أسرعت فيها كما تسرع النار الاشتعال في الحطب وهي تلعب متى صقلت كما هو مشاهد في النحاس والحديد والذهب والفضة والخارصين والرصاص وغيرها حتى أن الأقدمين كانوا يتخذون المرات من الحديد فيصقلونها حتى تصير كالزجاج .

والعناصر التي ليست معدنية وتسمى لافلزية تكون على الأحوال الثلاثة للمادة وهي الغازية والسيولة والصلابة كالهواء وكالماء وكالأحجار ومنها عنصر يسمى الأكسوجين وآخر يسمى الأدروجين وهما يتكون منهما الماء ومتى حلل بالآلات انفرد كل عنصر بنفسه كما يحلل الماء إلى أكسوجين وأدروجين ومن عجيب الاتقان أن كل عنصر له هيئة مخصوصة فالأكسوجين الذي هو أحد ركني الماء جسم كثير الوجود في الكون داخل في الهواء والماء والصخور والأحجار فإذا انفصل منها صار جسماً غازياً كالهواء عديم اللون والطعم والرائحة يقبل السيولة بضغطه ضغطاً عظيماً أو تبريده تبريداً شديداً وهو أثقل من الهواء قليل الذوبان في الماء وليس الاشتعال الذي نراه في غاز الاستصباح والبتترول والزيت إلا من اتحاد عناصر هذه الأجسام وإذا اتحد معه الأدروجين صار ماء طهوراً والأدروجين اسم مشتق من كلمتين يونانيتين معناهما المولد للماء ووجوده على حالة الانفرد نادر جداً ولكنه كثير الوجود في الكون على حالة الاتحاد في الماء والمواد العضوية الحيوانية والنباتية وهو غاز يسيل بضغطه ضغطاً قوياً وبتبريده تبريداً شديداً وهو أخف الأجسام المعروفة يلتهب بلهب باهت قليل النور شديد الحرارة وإذا وضع فيه جسم متقد تاراً ينطلق به سرعة فهذا الغاز غير صالح للاحتراق ولا للتنفس فإذا وضع فيه حيوان مات مختنقاً لعدم وجود أكسوجين معه وهذه الصفات بلا ريب تخالف صفات الأكسوجين وذلك أنه إذا وضع فيه سلك من حديد ملتف لفاً حلزونياً وفي طرفه قطعة من الصوفان متقدة فإن السلك يلتهب

وينتشر منه قطع صغيرة وصلت حرارتها إلى درجة الاحمرار وهذا الاحتراق حاد جداً يدوم بدوام الأكسوجين

وبالجملة فالأكسوجين والأدروجين مختلفا الصفة فالأول يحرق والثاني يطفى والأول حار جداً والثاني بارد جداً والأول يتجه عند تحليله إلى القطب الموجب فتكون كهر بائته سالبة والثاني إلى القطب السالب فتكون كهر بائته موجبة فان الأجسام المكهربة تطلب أضعادها دائماً

فتأملوا أيها الاخوان كيف وضع صانع هذا الكون هذين الجسمين مع بعضهما وهما متناقضان متضادان في الصفات فكونا شيئاً واحداً أخذاً صفات متوسطة وهي الماء الذي جعله الله حياة كل حي وما أشبه هذا التركيب بتركيب نوع الحيوان من ذكر وأنثى وبالجملة دام الوجود

وما ذكرت هذا لإثباتاً واحداً لتعلموا أن كل جسم في الكون سار على هذا النسق أفراداً وتركيباً واختلافاً واتساقاً . ولا ذكر لكم كيف اتحد هذان الجسمان وما مقاديرهما وكيف ظهر هذا السر وواقع المعقول المتقول لتقيسوا عليه جميع المقادير في الكيمياء فإن جميع التراكيب في الكيمياء تنقاد لقانونين القانون الأول قانون (المقادير المحدودة) وهو أن نسبة مقادير الأجسام المركبة لبعضها تكون ثابتة لا تتغير وبعبارة أخرى أن اتحاد الأجسام ببعضهما يكون بمقادير محدودة ثابتة في كل حركة . القانون الثاني قانون النسب المتضاعفة ويسمى قانون دالتون وهو (إذا اتحد جسمان ببعضهما وتكون عنهما عدة مركبات فلو بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة) .

ولنوضح القانون الأول في مثالنا وهو الماء فنقول :

إن الماء مركب من ذرة واحدة من الأكسوجين وذرتين من الأدروجين فإذا حللنا الماء نجد الذرات الداخلة في تركيبه من الأكسوجين نصف الذرات الداخلة فيه من الأدروجين فأني مقدار من الماء حللناه وجدناه هكذا الثلث في الحجم أكسوجين

والثلثان أودروجين وفي الوزن نجد أن ذرة الأوكسوجين (الذرة عندهم هي أصغر جزء وصل إليه العنصر) قدر ذرة الأودروجين ست عشرة مرة والذرة الواحدة من الأوكسوجين معها ذرتان من الأودروجين وحينئذ يكون نسبة الأوكسوجين إلى الأودروجين كنسبة ثمانية إلى واحد

وحينئذ يقال :

١ : ٨ :: ٢ : ١٦ :: ٣ : ٢٤ :: ٤ : ٣٢ :: ٥ : ٤٠ وهكذا إلى ما لا يتناهى

من مياه الأرض جميعها وهذه نسبة هندسية وبالنظر لتقادير أحدهما وحده تكون نسبة عدديه فكان العنصرين لم يتحدا إلا على نسبة عددية ونسبة هندسية معاً وهذه القاعدة كما قلنا سارية في الماء كله

وهذا بعض الحساب والميزان وغيرها الذى ذكره الله فى القرآن حتى أن الماء لو دخل فيه ذرة من الأيدروجين مثلاً زائدة عن هذه النسبة فإنه لا يقبلها كما يشاهد فى العمليات الكيماوية فى تحليل المواد وبهذه نفهم قوله تعالى (يا بنى إنا إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) فانظروا كيف عبر بالذرة التى عبر بها الكيماويون وفهموا أن جميع الذرات فى الصخر وجميع الأجسام لا يمكن أن تحتل عن مقاديرها المعينة ثم أعقبه بقوله (إن الله لطيف خبير) مشيراً إلى اللطف فى التدبير ومعرفة بواطن الأشياء فهذا وأمثاله يفهم آيات القرآن . وقال تعالى (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقال وما تكون فى شأن وما تتلومنه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) فتأملوا كيف ظهر وزن الذرة المذكورة وكأن الناس أصبحوا بهذه العلوم يشاهدون هنا الحساب المتقن الذى هو كتاب مبين وإنما قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر مع أن الذرة لم يمكنهم تحليلها

إلى أقل منها لأن علماء الغرب لا يزالون يقولون أن الذرة تقبل التحليل الذي لم تصل إليه .

فهذا هو الميزان السارى في الكون كله ، وبهذا وأمثاله نفهم قول قدمائنا أن الحب سار في الموجودات كلها وقولهم أن بين الكائنات نسبة محفوظة وهذه النسب بعينها كنسب الحروف السواكن والمتحركات في علم الشعر وعلم الموسيقى فأنهما من واد واحد كالتقادير الكيماوية فأن بحر التوافق مثلا وزنه مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن نسبة عدد الأسباب فيه إلى الاوتار كنسبة ١٠ إلى ٦ وفي نصفه كنسبة ٥ إلى ٣ فهي نسبة هندسية منفصلة وما فيه من العلال والزخافات فهي كمرض في جسم الحيوان وإذا نسبنا الاسباب لبعضها والاوتاد كذلك كانت نسبة عددية ٣٠ : ٦ : ٩ : ١٢ وهكذا أو ٥ إلى ١٠ إلى ١٥ إلى ٢٠ وهكذا أى في شطر وشطرين وثلاثة وهكذا ، ونسبة السواكن إلى المتحركات كنسبة ٦ إلى ١٣ فنقول الشطريه ستة حروف سواكن و١٣ حرفا متحركا ونقول ٦ : ١٣ : ١٢ : ٢٦ : ٢٤ : ٥٢ فهي هندسية وإذا نسبنا السواكن إلى بعضها والمتحركات كذلك كانت نسبة عددية ، وهكذا جميع أوزان الشعر .

فيظهر أن مقادير الكيمياء هندسية حسابية كمقادير أوزان الشعر ومثلها الموسيقى أيضاً واكتفينا عن الكلام فيها بالشعر لأنهما من أوزان متقاربة جداً موضوعة على هذه النسب المحددة وما أشبه هذه المقادير المتناسبة بمقادير حساب الكواكب الجارية فإنها كلها تجرى بحساب متقن .

وكل هذا الكون جار على مثل هذه النواميس ، وكم من عاقل ينظر في ميزان القبان ولا يعلم أنه موضوع بنسبة هندسية حسابية عرفها أهل تلك الصناعة حتى أن نسبة الذراع القصير إلى الذراع الطويل كنسبة الرمادة إلى ما يوزن معادلا لها وهكذا السفينتان العامتان على وجه الماء نسبة وزن إحداها إلى وزن الأخرى كنسبة الفراغ الذي شغلته إحداها في الماء إلى الفراغ الذي شغلته الأخرى أو كنسبة وزن الماء

الذى أزاحته إحداهما إلى الذى أزاحته الأخرى وهكذا الحجر النازل والنسبة التربيعية التى يتوالى تضعيفها بقانون محدود كلما نزل الحجر فكل هذه تعرفنا ما ذكر من الآيات وقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان)

فها نحن من هذه العلوم أصبحنا نعرف معنى هذا الميزان الذى سرى فى الكون كأنه مشاهد بالبصر من شدة وضوحه وهذا هو القسط والوزن والحق

ولما كان فن الكيمياء مبنياً على نسب هندسية وحسابية وضعوا معادلات كمعادلات الجبر حتى أصبح معنى هذه الآيات محسوساً وحق علينا قوله تعالى

(وكأى من آية فى السموات والارض يبرون عليها وهم عنها معرضون)

وإنى أعوذ بالله أن نقول أن قلوبنا غلف كما قال اليهود لصاحب شرعنا فحق عليهم القول فى أمم قد خات من قبلهم من الجن والانس إهم كانوا خاسرين ولقد عرف علماء العرب أن جميع هذه الذرات المكونة منها العوالم متحركة دائماً حركة سريعة كحركات الكواكب وهذا غامض جداً على من لم يقرأ علوم الطبيعة وإذا كانت كلها متحركة وهى على تلك النسب المذكورة فحركاتها موسيقية طبعاً وتكون أصواتها لذيذة إذا صفت النفوس وخلصت من عالمنا الذى نحن فيه وبهذا عرفنا معنى قول فيثاغورث أن العالم مركب من موسيقى . وهناك تفسير آخر لهذا القول وهو أن الموسيقى لا يقصد بها إلا النسب المحدودة المذكورة آنفاً وإنما ذكرت الموسيقى لأنها أظهر منها وأسهل وأوضح

وأما المركبات العنصرية فهى صعبة الفهم على غير المتعلمين وإذ فرغنا من ذكر القانون الأول فلنبين الثانى وهو قانون النسب المتضاعفة ومثاله اتحاد الأزوت بالأكسوجين فإبه يكون خمس مركبات الأول يحتوى على ١٤ من الأزوت و١٦ من الأكسوجين والثانى والثالث على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٢ من الأكسوجين ، والرابع على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٣ من الأزوت و١٦ × ٤ من الأكسوجين والخامس على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٥ من الأكسوجين

فنسبة مقادير الأوزوت لبعضها المساواة ونسبة مقادير الأكسوجين لبعضها عددية لأنه يزيد ١٦ دائماً ونسبة مقادير الأوزوت في كل واحد من المركبات إلى الأكسوجين تكون هندسية ولأكتف بهذا القدر فإني أظننت فيه ما أرى من تحاذل عقلاؤنا وخاصتنا وعامتنا في العلوم ، وظنهم أنها تخالف الشريعة مع أنها هي سرها وخلاصتها إذ بهذه المقادير والنسب المحفوظة ، ذقنا الطعم وشمنا الريح وسمعنا الصوت وأبصرنا الكون ولسنا النعمومة مثلاً فما كان على النسبة الجميلة قبلته تلك الحواس وما ليس عليها لا تقبله

فالسبع إنما يلند بما كان على تلك النسبة في الشعر وبقية الحواس لا يلذ لها إلا ما كان بتلك المقادير لتناسبة في تركيب المركبات (إن ربك هو الخلاق العليم) ، وليس القبول وعدمه إلا الحب أو البغض ومنه ثبت أن العشق سار في الكون كله وأنه تابع للحساب والهندسة بل أضحى المسلمون محتاجين إلى الحكمة العقلية التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا بكل حسي حتى ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين عقلاً وأخلاقاً وكان نباهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية وعندى أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور

والأمل بعناية الله تعالى بعد زمان قصير أو طويل أن يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نسايتهم بل يجلبوا إلى دينهم العالم المتمددين لأن نور المعارف بقدر ابعاده العقلاء عن دياناتهم يقر بهم من الاسلامية لأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لا يجتمعان في دماغ واحد ، ثم أن تبعة التفسير تشمل علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين وهؤلاء الذين عاصروا الأورباويين أكثر انماً وأشد عذاباً بتفسيرهم وقتصارهم على تدريس شيء من اللغة والفقه وقطع من المنطق مظامة متلبسة غير مستعملة وشيء من الحساب إلا كالألفرائض والمواريث تدريساً غير مرتب فلما يفيد ، فهؤلاء العلماء المتأخرون هم المسؤولون يوم القيامة عن هذه الأمة وضياعها ووقوعها في شرك الردى والهوان لتركهم البحث في الأحوال الحاضرة والعلوم النافعة في هذا العصر .

وكما شمل التأخر علماءنا شمل الوعاظ والزهاد فالأولون مقتصرون على حكايات زهاد من صحيح وموضوع ورواية كرامة الأنجاب والاقطاب والنقباء والابدال وعلى بعض الاناشيد في الحفلات والترنمات ولا تنس خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات في الدعاء للغزاة والمجاهدين وتمداد فضائل العبادات .

وبالاجمال فابتعادنا عن العلوم النافعة وانحيازنا في جانب عظيم من الجهل هو الذى جعلنا أخط الامم ولو بقينا على هذا خمسين سنة بعدت النسبة بيننا وبين جيراننا كبعدها بين الانسان والحيوان ، والنتيجة أن ناموس الارتقاء هو الذى سبب هذا الفتور العام كما قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

فقال المجتهد هذا يعد سبباً في الانحطاط ولكنه لا يكفي وحده لهذا الانحطاط العام ، وفقد الاحساس الملى ، والاخلاق الفاضلة ، والذى أراه يصلح سبباً لذلك أننا كنا قادة للامم سادة هداة فاغتررنا ونمنا آمنين مطمئنين وتنبه غيرنا ونحن لانشعر وسبقونا ونحن لاندرى حتى اذا تيقظنا من كهفتنا رأينا الشوط بعيداً فيئسنا من المباراة واليأس أعظم مسقط للأمم قال تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فما أخرنا الا يأسنا من المباراة واللحاق للامم الراقية واليأس في الحقيقة كفر بالمواهب التى أفرغها الله عز وجل في الوجود وجهل به وأى كفر أطم وأعم من جهل الوجود وما حواه ، فقال السائح هذه شكاية حال ولا تنفى بالعرض ولا توضح السبب .

وما المسلمون بالأبعدين كأهل الصين ولا المتوحشين العريقين في التوحش .
كأهل أمريكا الأصليين .

والذى عندى اننا فقدنا الهداة والمرشدين والأكابر المصلحين فلم نجد أميراً يدخل الأمة في حكمه آخذاً بنظام الرغبة أو سائقاً بسوط الرهبة ولا حكماً معترفاً بفضله ولا تربية متحدة المبادئ، فيشيب الولدان ويشبون وهم بها متحدون ولا جمعيات منتظمة تسمى للخير ولذلك حل فينا الفتور وإلى الله ترجع الأمور . فقال التاجر

إن ما ذكرته من الأمر المطاع والحكيم المتبع لا يكونان في الأمم المنحطة إلا اتفاقاً وأما الرأي العام والجمعيات فلا يفقدان إلا بفقد الاحساس العام وهذا ما تساءل عنه ثم قال والذي أراه أن الداء العام هو فقد المال والفقر الآخذ بالزمام فالفقر هو السبب الأكبر في جهلنا وفساد أخلاقنا وتشتت آرائنا حتى في ديننا وقد احسنا وهكذا من كل ما حل بنا

هذه فطرنا لا نقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادنا غنية وشرعنا قويم وفخارنا قديم فلا ينقصنا من الأمم الحية غير القوة المالية التي أصبحت لا تحصل إلا بالمال الطائل فوقتنا في مشكل الدور فنحن نحتاج للعلوم وهي لا تحصل إلا بالمال والمال لا يكون إلا بالعلوم وهذا الدور إن لم نهتد لعله دخلنا في قانون فناء الضعيف في جانب القوى من قانون الارتقاء

تنازع البقاء

قال الفقيه اشرح لنا تنازع البقاء وأفض فيه أيها الفاضل فانك مغوار في البحث فقال : اعلموا اخواني إن هذا الكون مؤسس على أن الأقوى يغلب الأضعف وليس هذا خاصاً بالإنسان بل هذا حكم سار في النبات والحيوان والصنائع فالنبات الأقوى يغلب الأضعف متى تجاوزا فتى زرعت بذور من أنواع مختلفة منه وتمت في تربة واحدة ثم حصدت معاً وزرعت كرة أخرى وهكذا مرارا لا يبقى منها إلا أقواها وأوقها للأرض وأكثرها تحملاً للحوادث الجوية ولو تنازع نباتان في قفر لما بقي إلا أقواها على احتمال القبط كما لا يفوز بالبقاء في زمن القحط إلا من كان أشد صبراً على الجوع كما ذكره ابن خلدون . وأما الحيوانات المنفردة بالبقاء المنازعة لغيرها فأمثلها كثيرة إذ رأوا أن الخيل والبقر الوحشية التي تشرح قطعانا لا يحصى عددها في سهول أمريكا الجنوبية الواسعة إنما أصلها عدد قليل أنها من أوروبا يوم غزوة الاسبانول وقد قدر بعضهم عدد الخيل الوحشية في سهول بلادها الواسعة بنحو ثلاثة ملايين ثم النباتات

والحيوانات التي أدخلت من أوروبا إلى استراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطي الأرض هناك وفازت في الأرض بالبقاء ولا يخفى أن الذي يفوز بالبقاء على مساواه انما هو ما تميز بصفات جسدية أو عقلية تجعل له هذا الفوز .
وهذه الصفات كثيرة جداً فقد تكون في الإقدام أو القوة أو كبر القدر أو صغره أو وسائل الهجوم والدفاع أو الجمال أو السرعة أو الصبر على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير في تحصيل القوت أو الحكمة في اتقاء الشر وبعض الحيوان يفيد لونه كالجلل الأبيض والذب الأبيض اللذين يقطنان في الجهات القطبية المغطاة بالثلج دائماً وكذلك الذباب الأخضر الذي يعيش على أوراق النبات وبعضها يفروه الذي يتلبد إذا أقبل الشتاء وبعضها يسرعه في الهرب أو شدته في القتال .

ثم لتعلموا أيها الأخوان أن التنازع إنما يكون بين الأنواع الأقرب بعضها إلى بعض لاشتراكها في المتنازع عليه ويقل كلما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد وكلما كانت الصورة قديمة ضعفت عن مقاومة أخصامها الاحداث لاتخاذ الاحداث في التنازع صوراً تناسب التغييرات الحاصلة في أحوال الحياة فتجعلها أقوى وكل صورة غابت لاتعود أبداً إذلا تعود قادرة على الثبات في التنازع وإذا أردت مثالا زيادة عما تقدم فهناك بلاد هولاندا الجديدة (استراليا) فان هذا القسم لانعزاله عن العالم مرة واحدة وعن كل منازعة بقيت نباتاته وحيواناته متأخرة جداً فأعلى حيواناته رتبة ذى الجراب الذي عاش في أوروبا في الدور الثاني وتلاشى لتغلب أنواع أخرى عليه أقوى وأكمل وإنما بقي مثل هذا الحيوان في استراليا إلى يومنا هذا ولم يضمحل لعدم وجود منازع شديد البأس ولكن من يوم دخلها الانكايز أخذ كل ما فيها في التلاشى حتى كاد يضمحل لعدم صبره على منازعة ما أدخلوه معهم ولم يسمع قط ضد ذلك فلم يسمع أن حيوانات ونباتات استراليا أمكنها أن تتأصل في أوروبا .

فمن هذه الأمثلة التي رأيتها في كتاب لويز بجتر الألماني المترجم إلى اللغة العربية تعلمون أيها الاخوان كيف تغلبت نباتات أوروبا وحيواناتها على نبات وحيوان

فارتى أستراليا وأمريكا ولم يمكن تلك الحيوانات والنباتات أن تقف أمام هذه التي دخلت عليها

غلبة الرجال

وليست الغلبة خاصة بنوع الحيوان والنبات بل سرت الى نوع الانسان فأصبح الأوربي هو العنصر الوحيد في أمريكا أما أهلها الأصليون فأصبحوا آلافا معدودة بعد ان كانوا ملايين فاقترض جُلهم ودخل بعضهم في العنصر الأقوى وتناسلوا وهكذا أصبح العنصر الاسود في استراليا يقل أمام الجيش الجارف من أوروبا وهكذا أهل جنوب افريقيا كل ذلك جار على الناموس العام من فناء الأضعف في الأقوى كما فنى المسلمون السابقون في الأمم التتارية الآتين لهم من الجنوب ففرقوهم شذر مذر واحتلوا بلادهم وأخر بوبها وملكوا ديارهم وأموالهم واعتنقوا دينهم وصاروا هم أغلب المسلمين اليوم في الهند والصين ومنهم تكونت أغلب أمم أوروبا الآن فقد تكاثرت دخولهم اليها حين اختلطوا بالمسلمين وحاربوهم في القرن السابع من الهجرة واغتالوا روسيا وقد تغلبوا من قبل ذلك مراراً عليها قبل زمن النبوة فمنهم هذا العنصر كما أثبتناه في كتابنا هذا

مهم بقايا بأجوج ومأجوج الذين كانوا من كل حدب ينسلون

غلبة الآلات والصنائع

ومن العجيب أن الغلبة لم تقتصر على الحيوانات والنباتات والانسان بل سرت أيضاً الى الآلات فهأنحن نشاهد في بلادنا كيف غلب وابورهم طواحيننا وسواقينا ونواعيرنا وشادوننا تلك الآلات القديمة الضعيفة وكيف تقاوم هذا السيل الجارف وكيف يسامى الخبيث الطيب وكيف يقف الضعيف أمام القوى أم كيف يقوى الضار على مقاومة النافع قال تعالى (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) وقال تعالى (يريد

الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) وهكذا غلب وابدور حرثهم محرثنا بل مخض اللبن واخراج الزبد منه وتربية الخيل والبهايم كل ذلك تقدموا فيه تقدماً باهراً ولا دليل أقوى من العيان

وما عليكم الا أن تنظروا نظرة واحدة تروا الأمر واضحاً جلياً في مراعيينا وبيوتنا وأحوالنا المعاشية كلها وفي الزراعة وتربية المواشي وهكذا غلبت منسوجاتهم وخبزهم وطحنهم منسوجاتنا ومطبوخنا ومخبوزنا واضحى تجارهم أقوى من تجارنا ومر بيئهم أقوى من مر بيئتنا وسماويهم أقدر من سماويننا وسواسهم أقدر من سواسنا ورؤساء دينهم أقوى تأثيراً على النفوس في دينهم من رؤساء ديننا في نفوسنا وجمعياتهم المؤلفة ثابتة لها نتائج مهمة دينية وسياسية وتجارية وصناعية حتى جاهلهم أرقى من جالنا فغلبوا ذاتاً وصفة وتجارة ورئاسة وجمعية ان في ذلك لعبرة لمن يرى وما سبقونا الى ذلك حتى تقدموا في الصفات النفيسة كالصدق والأمانة وغيرها بل متدينهم أصدق من متديننا في دينه كما أخبرنا به غير واحد ممن جابوا تلك الأقطار

فهذا يا قوم معنى فناء الضعيف في جانب القوى وهذه سنة في الكون سارية فيه لا تتجاوزها . فكل أمة تمسكت بالقديم جداً من الأعمال ولم تحسنه ولم تبادر الى الاعمال دخل الجديد عليه فأباده

وهذا مصداق قوله تعالى كل يوم هو في شأن فآية أمة وقفت على قديمها ولم تعباً بما طرأ ولم تغير الأساليب حسب الزمان أهلكتها الله وهذا هو السر في أمره تعالى بالسير في الأرض لتعلم أن الكون متغير دائماً

والسير في الأرض يهدى الانسان الى كل ما حدث وعندى أن السير في الارض الآن ومعرفة الصنائع الحديثة فرض وتركهما اثم كبير بل هو أضر على الأمة من كل معصية هذا هو اجمال ما نعلمه من الكلام على فناء الضعيف في جانب القوى وناموس

الارتقاء وهذا وإن لم يكن من موضوعنا الآن ولكن شرحته اجابة لطلب حضرة
الفاضل الفقيه

ولنرجع الى مبحثنا الأصلي في أن السبب في ضعف الأمة هو فقرها وهو أصل
كل تأخر مادياً وأديناً فقد سبقونا في كل ما سمعتم من الصنائع والتجارات والزراعات
بالمال والنبي وهما حاصلان بالعلم والعلم متوقف على المال فمن لنا محل هذا الدور المشكل
حتى نسير على صراط مستقيم

فأجابه الفاضل الفقيه فقال أن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لم يعوزهم المال
للتدرج في العلوم حتى تليهاحات البحرية الى الجهات القطبية لأن فريضة الزكاة على
مالك النصاب والكنارات جاعلة لفقراء الأمة وبعض المصاريف العمومية نصيباً غير
قليل في مال الأغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة أمنوا المعسر . وعاشوا
عيثة الاشتراك العمومي الذي يسعى لأمثاله كثيرون من الجمعيات كطائفة السوسيات
(الاجتماعيون) والنهليست (العدميون) وهم يريدون اعدام البشر لأنه أصبح
في نظرهم شروراً وقبائح تجب ابادته والكومونولست (الاشتراكيون)

نكل هؤلاء يسمون لغرض واحد وهو الاشتراك العمومي في المال وهم وإن
اختلفت لغراضهم ظاهراً فباطنهم إرادة ذلك وهذه الجمعيات مكونة من ملايين يريدون
التساوي أو التقارب في الأموال وملوكهم وأغنيائهم أحبوا الاختصاص والشرع الاسلامي
جاء طريقاً وسطاً بين هذا وذاك (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على
الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

فتمطيل الزكاة والكفارات أوجب بعض هذا الفتور المبحوث عنه كما أوجب
ترك الزكاة فقد ثمرات عظيمة بين المسلمين وهي أن يعرف المسلم مقدار دخله وخرجه
عند الحصاد أو حولان الحول في السوائم فتعلمه كيف يقتصد وبالجملة فليس المسلمون
فقراء وإتاهم لم يحسنوا التصرف في المال .

الاجتماعات

والذى أراه يصلح سبباً حقيقياً لهذا الفتور العام جهل المسلمين بما فرض الله عليهم من الاجتماعات الدينية التى هى أساس كل مقالوطة سياسية فعدمه ا حكمه تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطبائهم ووعاظهم والارشاد والتعرض للشؤون العامة كما أن علماءهم صاروا يسترون جهلهم بجعلهم يتحدث فى الأمور العامة والخوض فيها من اللغو الذى لا يجوز و ربما اعتبروه من التجسس أو السعى بالفساد فسرى ذلك من الخاصة والعلماء الى العامة والجهلاء ، وصار كل واحد لا يهتمه إلا حظ نفسه وحفظ حياته فى يومه كأنه خلق أمة واحدة ويموت غداً جاهلاً ان له على الجامعة الاسلامة والجامعة البشرية حقوقاً وأن لها عليه مثلها ذاهلاً عن أنه مدنى بالطبع لا يعيش إلا بالاشترك ناسياً أوامر الكتاب والسنة

ولما مضت قرون وتوالت عصور على الأمة وهى بتلك الحال تأصل فقد الاحساس فى الأفراد وتبعثرت الجامعة تبعثراً لم يبق معه إصلاح والمعجب من شريعة هذا شأنها من الحكمة قررت اجتماعات متكررة وجعلتها فرضاً دينياً لازماً ومضى زمان طويل فنسوا المقصود منها ولعمري أن هذه الأمة محتاجة الى رجال مجددين للنهضة مقرر ين ومشوقين الى علوم القرآن فى قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم الى المعالى والشرف والاجتماع ونحن الآن كما ذكر الله (ولاتكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قست قلوبنا وما قسوتها إلا من عدم معرفة الحكمة فى المشروع لنعمل للفرض المطلوب

أما الغربيون المعاصرون لنا فلما لم يكن لديهم من الدين اجتماعات كافية استدعوا طرقاً واحتالوا بحيل الاجتماعات استرعاء للاسماع بوسائل شتى . فيخصصون أياماً

لذكري مهات الأعمال لأعظم رجالهم الماضين لينسج على منوالهم الحاضرون ويعدون في مدتهم ساحات ومنتديات يسهل الاجتماع ويكثر القاء الخطب وإبداء المظاهرات ويكثر من المنزهات الزاهية العمومية ويجرون فيها الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات ومنها أعدادهم في التشخيص أما كن بقصد اراءه العبر واسترعاء الاسماع للحكم أو لوقائع واستسهلوا ما تضمنته الخلاعة المتخذة شيا كما لمقاصد الجمع ويعتبرون نفعها أكثر من ضررها ويعتنون غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريحهم الملية المفصلة المدججة بالعلل والأسباب تمكينا لحب الجنسية ويحرصون على حفظ العاديات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر . وقيمون النصب المذكورة بما نصبت له من مهات الوقائع القديمة وينشرون في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية وينشدون الأغاني الوطنية المبهجة للشعب الى الحمية الوطنية

فهذه عشرة أنواع من أهم اجتماعات الغربيين جعلوها شيا كالاجتماعات وأما المسلمون فلهم من الاجتماعات ما يفنيهم عن مثل هذه وترانا في مصر لم نصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فقد أصبحت أما كن اجتماعنا للفجور والفسق لاغير والأبرة الخديوية بات ضررها أكثر من نفعها وهذه تواريحنا مصمتة مقفلة ولقد حفظنا الآثار العربية ولكن ليس في القوم شعور بأنها آثار آبائهم الأولين وأقنا تمثال المرحوم ابراهيم باشا ولكن ما ذكرنا الا بوقوع بأسنا بيننا وأن قلوبنا شتى . أما الجرائد فنعدنا منها جملة صالحة والأغاني الوطنية قليلة

وبالجملة فنحن أضعنا ثمرة الاجتماعات الدينية وقلدنا في اجتماعات الغربيين ولم نصن الأول ولم نعرف الثاني فخرنا الصفتين ورجعنا بحقى حنين فأجابه الحكيم أن هذا بالدواء أشبه منه بالداء وهو المبحوث عنه ثم قال والذي أراه أوجب هذا الفتور العام اننا فقدنا الحكماء المسيطرين على العلماء والعامه وذلك انه ما من أمة من الأمم الا وجرت العادة أن يكون فيها حكماء يرشدون

العلماء فالأمراء فالعامة وهم الوارثون حقاً للأنبياء وهم المسمون بأهل الحل والعقد وهم الذين كانت تعتقد بهم الامامة وأمر صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم فقال : (وشارهم في الأمر) وشارهم أول خلفائه الراشدين رضى الله عنهم واقتدى به الثانى حتى ترك أمر الخلافة لهم وهكذا كان معاوية وتبعه خلفاء بنى أمية فكانوا يتبعون مشورة سرقة المؤمنين لاسيا بنى أمية

وهذا صدر دولة العباسيين كانوا مدعين لسيطرة رؤساء بنى هاشم ولما استبدوا بالرأى ولم يكن أمرهم شورى بينهم ذهب الملك منهم وتفرقوا أيدي سببا .
وهكذا كل فرع من فروع الاسلام بل هي حالة كل فرد من نوع الانسان يستقيم أمره بالاستشارة ويعوج ويضل بالاستبداد

وما مثل أهل الحل والعقد في المسلمين إلا كمثل الأشراف ومجالس النواب في الحكومات المقيدة ومقام الأسرة الملوكية التي لها حق السيطرة على الملوك في الحكومات لمطلقة كالروسيا والصين ومقام شيوخ الافخاذ في أمراء العشائر الغربية فأولئك الأمراء يس لهم من الأمر غير تنفيذ ما يبرمه الشيوخ وبالجملة فقد الحكماء في الملة الاسلامية هو السبب الأعظم في هذا الفتور

والمسلمون من حيث الحكماء الآن ينقسمون ثلاثة أقسام قسم فيهم حكماء ينصحون وهم في الصين وقسم فيهم حكماء مسيطرون وهي فارس وقسم ليس فيهم حكماء أو فيه وهم متروكون وهي بقية البلاد ما عدا القليل منها كبعض من نيفوا في مصر .

فأجابه السائح قائلا

ان فقد الحكماء لا يصلح سببا عاما وهذه الصين كم فيها من الحكماء وهم لا يخافون سطوة الجبارين ومع ذلك لا تزال ترى الفتور شاملا لهم والذي أراه يصلح سببا عاما أمران ترك أمور كثيرة في الدين وزيادات بدع فيه فالزيادة والنقص هما اللذان أوجبا هذا الفتور العام .

ألم تروا أن إخراج الزكاة وإعداد القوة ما استطعنا صارتا منبوذتين الآن أليس

غلاة الصوفية وجهلاؤهم اخترعوا أناشيد لم ينزل بها سلطان واعتنوا بما زادوه وهاونوا بالفروض الأصلية فلم يوفوها حقها ثم صار التشديد حتما لازما وأصبح المؤمن يلتبس عليه كثير من أمور دينه ويضل في الفروع الكثيرة فأجابه العالم قائلا :

وما للدين والأنحطاط في شؤون الحياة الدنيا فإذا حصل تشديد في الدين أوتنوع في طرق العبادات أو بدع مستحدثة فكيف تؤثر على شئون الحياة الدنيا مع أن الدين غير الدنيا وكيف يعقل ذلك وهؤلاء معاصروننا من الغربيين بالغوا في هذا حتى ظن بعض حكائهم أن مدينتهم لم يستقم أمرها إلا بعد عزل الدين عن شؤون الحياة الدنيا .
فقال السأمح :

اعلموا أن سير نوع الانسان في أعمال الحياة الدنيا كله تعاريج وضرر وآلام ونصب إذ الحياة تجارية على تنازع البقاء والاضرار بالغير ومحبة النفس وحب الغلبة مع مر العيش وكدر الحياة وهذه كلها آلام عظيمة فلا بد لها من ناموس يخفف وطأتها ولا يكون ذلك إلا الاعتقاد بأمر عام شريف يعم سكان سطح الكرة كلها كما أن الانسانية مشتركة بينهم

وهكذا المادة تنوع الى صور كثيرة وهي في الحقيقة واحدة فهكذا نوع الانسان مهما تنوعت أصنافه فلا بد له من اعتقاد واحد يلم شعثه وهو الاعتقاد بقوة غالبة عالية. تتصرف في الكائنات بنظام محدود يعبر عنها الجاهل بلفظ (الطبيعة) والمهتدي الراشد بلفظ (الله)

وكما ان كل قوم اشتركوا في المعيشة لابد لهم من قانون يجمعهم ودستور يشملهم حتى يرجعوا اليه عند التنازع يناسب أحوالهم المعاشية وكل فرد من أفراد ذلك الشعب لابد أن يجرى على مقتضاه وإلا كان وحشيا منقورا منه .

فهكذا كل أمة مع الأمم المجاورة لها على سطح الكرة أرضية لابد من عموم أمر بينهم يجمعهم كلهم يكون أعم مما اشترك فيه الأفراد وأبسط إلا وهو الاعتقاد

بالغالب القاهر المتصرف في العالم على أبدع نظام وإلا كانت شريرة متوحشة تنفر منها جيرانها .

ثم أن هذا الاعتقاد لا بد منه للأفراد والأمم ليخفف مرارة الحياة ويدفع الناس إلى التساوى والانصاف في الحقوق والرجوع إلى الحق وإلا هلكوا أو ضلوا وصارت الحياة أشق شيء (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وكلام الله حق وصدق لا مبدل لكلماته فكل فرد وأمة أعرضت عن ذكر ربها ضلت سواء السبيل في الحياة الدنيا وساءت عقباها

وإذا دققنا في حال جميع الديانات التي ينزل بها الرسل الكرام مجدها في مبدأ أمرها بسيطة سهلة تقود إلى الخير فإذا تمادى الزمان دخلها كثير من الشرك الخفى والتشديد وهما مطية الدمار والخراب فأما أن تبقى على ما هي عليه فتصير إلى الخراب والدمار وأما أن يرسل الله لها حكما يهدون الناس ويمجدون ما اندرس ويحترفون ما ابتدع فترجع إلى مجدها وسابق عزها فإذا لم يتداركوها هلكت أو اندجت في أمة أخرى

وذلك كما حصل في كنعان وبنى اسرائيل فقد كانت تتوالى فيهم الرسل المنذرون والمبشرون كما قصه الله في القرآن فترجع مدينتهم زاهية زاهرة

وكما حصل في عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم فانهم بادوا بالاهلاك العالم وبالجملة فقد وضع ان الأمم كما انه يجمعها نوع واحد وهو الانسان جمعها فكر واحد في الدين وهو مدبر الكون المبرعنه بالعبارات المختلفة وكما انهم أصناف مختلفون فمنهم الساميون والحاميون واليافيثيون فهكذا تنوعت طرق الديانات باختلاف

الأَنْبياء والأزمان والأمكنة فتطابق الخلق والأمر (الألهُ الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين)

اعلم أن الإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر والروح والنفس من أعظم داع
تتمو المدنية وتقدم الحضارة إذ هذه مع غموضها على العقول كلف العقلاء بمعرفتها
بالبراهين وهي صعبة الرام جدا فكأنهم ألزموا أن ينزروا علينا العالم درسا صحيحا
ويخرجوا من الماديات الى المجردات وهذا لا يتسنى لهم الا بعد فحص الكون من
علويات وسفليات ويفتفون بذلك في دنياهم

فانظروا كيف كانت علوم التوحيد مبدأ للترقى في المدنية والحضارة داعية الى
التقدم السريع في الماديات والأدييات بل مثل البحث عن المجردات كمثل بحث علماء
المتقدمين عن علم الكيمياء ليصنعوا منه الذهب فكان القليل منهم يصل الى المطلوب
والكثير يعثرون على أشياء كثيرة نافعة في الطب والزراعة والبيطرة وغيرها
أيها الاخوان ما ذاترون في هذه العجائب فلولا بحث الأقدمين عن الذهب
ما وصل المتأخرون الى هذه العلوم الناجمة عن علم الكيمياء واليه الرمز بحكاية آدم
وشيث في كلام الأقدمين وانه علمه الكيمياء

فمن هنا عرفنا كيف كان البحث بالبراهين العقلية في الله واليوم الآخر هو
السبب الوحيد في ترقى الأفكار وتمدين الأمم واثارة الخواطر وقيام الناس من رقدة
الجهالة ولذلك لا ترى أمة إلا ودرست الرياضيات ثم الطبيعيات وأعقت ذلك كانه
بالالهيات وأدخلت فيها الملائكة والأرواح وأعقت ذلك كله بالسياسة والأخلاق
فتأملوا كيف احتاج نوع الانسان في تمدينه الى الايمان بالمجردات ليرتبط بعضه ببعض
أولا ويبحث عن الحقائق ثانيا ولقد جعلوا العلوم جميعها أنواعا وأصنافا متفرقة مختلفة
المشارب والأذواق وكل علم يبحث عن شيء مخصوص من هذا العالم وكل علم تحت
فروع ترجع اليه وهذه العلوم يرجعونها الى أصل واحد وهي الهيات عند اليونان
والتوحيد عند المسلمين واللاهوت عند الأوروبايين كما رجعت الدول لنوع الانسان

ورجعت العقائد الى مدبر الكون المحرك له ورجعت العلويات والسفليات لأصل واحد وهي المادة

والنبي يهمننا من ذلك كله ملوك الاسلام وأمرأؤه ان لم ينسجوا على هذه الحكمة الباهرة فيكون لكل قوم منهم أمور خصوصية ومدنية تناسبهم كما هي طبيعة الكون ولكن تكون بينهم جامعة عامة تشمل الأمم الاسلامية في جميع الكرة الأرضية فيتناقل العلماء الكتب فيترجم المصري لكتب الفارسي والفرسي لكتب المصري وهم جميعا كتب التركي والثلاثة تأليف الهندي وبالعكس وهكذا

ويتعارف العلماء بالأفكار والآراء ويتزاورون وهذه اللغة العربية هي السر الوحيد والترجمان العام فان لم يتواصل ملوك الاسلام ونام العلماء ولم يتعارفوا باخوانهم في أقطار المسكونة فليشروا بخراب عام وقيامه تقوم عليهم وحدهم ويخلون الأرض لله يورثها من يشاء من عباده قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

وهذا العذاب ليس خاصا بالآخرة بل هو في الدنيا وكفى بما فيه المسلمون عذابا فلم تكن عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا

وكل فرد من أفراد علماء الاسلام وملوكهم مطالب بهذا التواصل فان أبوا فجزأؤهم ما حل بنا اليوم فليجتهد العلماء في التواصل وليتحدوا على التعاون والاعقاب كل فرد بالأمم وحده فاذا فعلوا ذلك فقد ساروا على السبيل الذي في الكون وهجوا منهج القرآن المطابق تمام المطابقة للحكمة الالهية وهذه هي حدود الله (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)

فتكون أمم الاسلام راجعة لأصل واحد وهو التواصل بين الملوك والعلماء بوجه عام فيكون الهندي مع الصيني مع المصري كالألماني مع الفرنسي مع الانكليزي كرجوع العقائد والعلوم والأجهام وأمم نوع الانسان وأسرات المملكته وفروع الشجرة وأوراقها إلى اعتقاد واحد وعلم الالهيات والعنصر البسيط وهو الأثير والانسان ورب

المنزل والملك المدبر العام والشجرة فان هذا الملك متشابه يشبه بعضه بعضا والوسادة هي السر السارى فيه فيقدر ظهورها يتم وبقدر اختفائها يكون نقصه .
 وها أنا أيها الاخوان اوضحت هذا المقام وهو حكمة الايمان بما غاب عنا من الاله وملائكته وإلى هذا المبحث أشار الله في أول مرة من الكتاب المبين وهي :
 (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .
 فانظروا إخواني كيف كانت آية في القرآن من حيث التلاوة نهاية ماتصل إليه المدنية في كل أمة .

فالايمان بالله والمجردات أول العلوم ومنهاها ومبدؤها ونهايتها (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)
 لاغنى للمدنية عنه وإن تظاهر قوم بضد هذا أمام المسلمين السياسيين فذلك ليرجعوكم إلى التفرق وهم متحدون فليتدبر المسلمون ان كانوا يعقون .
 فقال الحكيم إن هذا من أهم الأسباب و بواعث الانحطاط ولكنه وحده ليس سبباً لكل ما نحن فيه من هذا السقوط السبب الوحيد في ذلك قصر نظر الأفراد وضعف الهمم والبعد عن المفاخر والتزهد عن المطالب والانتقاض عن المكاسب والرضى بالنذل والهوان

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت ايلام
 فالأمم إذا هانت ونبتت شرف النفس لم يقدموا على عمل واستكبروا كل ما يروونه وأعظموا الأمور التي يشاهدونها وعجزوا وعجزاً صراحاً وأضحوا في انحطاط وخمود وفي الحديث القدسي أنا عند ظن عبدي بي وفي التنزيل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وفي الحديث النبوي ومن أراد الخير يعطه ومن توى الشر يوقه فكل من كان أقدم على الأمور وأقل تهيباً فاز بالمرغوب وسعد في الدنيا .

ويشير لذلك قصة زكريا ومريم وأنه رآها تأكل فأكهة الشتاء صيناً وبالعكس
 فتنبى أن يكون له ولده صفات كصفاتهما وكان في الحراب فجاءته الملائكة وهو قائم
 يعلى في الحراب كما كان وقت دخوله على مريم فبشر بيحيى مصدقا بكلمة من الله
 وهي أيضاً صدقت بكلمات ربها (وسيداً) ومريم سيدة نساء العالمين (وحسوراً)
 لا يأتى نساء وهي أيضاً كذلك لا يقربها الرجال (ونبياً من الصالحين) وهي كانت
 من الصالحين وقيل بنبوتها فانظروا كيف جاء التنبى حين صورته في نفسه جازماً به
 وبالجملة فمعرفة أفراد الأمة أقدار أنفسهم وشرفهم هو الذى يعلى شأنهم ولا يصل بالأمة
 أوج المعالى سوى تثبيت هذه الفكرة فى أذهانهم ولذلك لما كان بنو اسرائيل مستعبدين
 بين المصريين وأرسل الله سيدنا موسى لهم فأول فكرة بثها فيهم أنهم أفضل العالمين
 فقال: (وإني فضلتكم على العالمين) ولما لم تكن هذه الفكرة كافية وحدها بل لا بد
 من العمل التابع أردف هذا بأن أضلهم فى التيه حتى ناد الجليل المستب التترن على
 النل والاقباد وجاء آخرون تربوا على شظف العيش فى مدة الأربعين التى مضت
 فى التيه فأمكنهم فتح قرية الجبارين فهذه سنة الله فى الأمم التى يريد ارتقاءها وما
 من أمة حية إلا وتجد هذه الفكرة منبثة فيهم ويرون أن سواهم أحق بأن يكونوا
 عبيداً لهم ألا ترى أن أمة انكلترا ذكر فى قانونهم أن اللسم الانكليزى أشرف السماء
 فلا يراق إلا لأشرف المطالب . وقام بسمارك فى ألمانيا خطيباً وقال نحن الالمانيين
 لا نخشى إلا الله وجاء فى القرآن قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
 شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ، وقال (كنتم خير أمة أخرجت
 للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان
 خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

فاذن يجب على علماء الأمة وشعرائها أن يوقدوا فى نفوس أفرادها نار الغيرة

وشرف النفس

فأجابه العالم قائلاً أن المتعلم الذى قرأ علوم الإسلام يرى من أسانده ومحدثهم

ومحاورتهم في تقطيب جباههم ما ينفره ويصغر في عينه كل أمة من الأمم عند ذكر أمتنا فتمحن من هذا الوجه آمنون ولم يبق علينا إلا أن يعرف الشبان وجوه المطالب وترقى فيهم ملكة الاستعلاء وها هو القرآن بين أيدينا فيه آيات لكل خلق من أخلاق الإنسانية كالكرم والشجاعة والمحبة والاحتراس من الأعداء والاعتقاد وطلب التفكير وحوز العلوم والجهاد.

فلو أن كل فريق من الناس كالشجعان في الحروب والأطباء في المستشفيات والأغنياء حفظوا آيات في النوع الذي هم بصدده لكان ذلك داعياً للإقدام على الأعمال فيقرأ المجاهد وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم والغني وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والطيب كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين والعالم المتفكر قل انظروا ماذا في السموات والأرض وهكذا مما لا يحتمله المقام.

ولقد ألف الشيخ الغزالي كتاباً في بعض ذلك سماه علوم القرآن وذكر نحو ٧٠٠ آية في تهذيب الأخلاق ومثلها في النظر في ملكوت السموات والأرض واقد علمت أن أهل أوربا نهجوا هذا المنهج فذكروا آيات من كل نوع من هذا على حدته ليقف كل قوم على ما هم بصدده .

ولقد سمعت ممن اتق به أن أحد مدرسي مدرسة الطب بمصر قال له عند ذكر أمراض العيون أن أهل مصر لا يلزم لهم قانون صحة قانونهم كتابهم . أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) حكيم باشا إذ الوضوء في الأوقات الخمس والمحافظة على النظافة في هذا الدين تنبذ جميع الأمراض بالسكلية وتستأصلها منهم ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذي أوجب الأمراض

ومن العجيب ان الله يأمر بالنظافة لأجل الصلاة وقد أراد أن تكون صحة لنا جهلناها وعرفها الغربيون ولا يتم ذلك إلا إذا عرف كل قوم الآيات الدالة على ما هم بصدده وهكذا قال بنظام الانكليزي أن المحافظة على نظام الدين الاسلامي توجب

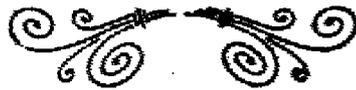
عدم ارتكاب الذنوب بالكلية وهذا أيضا لاطلاعه على الآيات الدالة على النظافة كما هو مقرر أن النظافة سبب للصحة الجسمية ولقلة الذنوب والردائل فله شريعة سمحاء جهلها الأقربون وعرفها الأبعدون

ومع هذا فيجب على كل طائفة أن تتعلم القدر الضروري المشترك بين الجميع. كآيات العبادات بأنواعها ويكون ذلك بفهم وعلم وبعقل لا كالقراءات الآن ويمنع الحكام قراءة القرآن في الأماكن التي لا تنبئ وعنى التفسير ويعظمونه ويجلونه ثم يلقى في أذهان القارئ وجوب فهم المعنى ويعرفون قوله عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينهك فلست تقرأ وهكذا حتى تشب الأمة على مبادئ الدين

خاتمة

وحينئذ قام فاضل من فضلاء الجمع وقال يا قوم انى تأملت ما دار بينكم فألفيته جمع شتات المسائل وخلاصة الأسباب ونموذج الرقى وظواهر الاصلاح وبهجة السعادات ونظام الحكومات فلتدرسوا العلوم وتنشئوا الصناعات ولتبشروا بالنجاح ولا تفرطوا فى صغير أه كبير مما أفضتم فى شرحه اليوم واصبروا على الأعمال صبر أولى العزم يأبها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ما

(تم الجزء الثانى من كتاب نظام العالم والأمم وهو نهاية الكتاب)



تقريظ

وردت للمؤلف قصيدتان غراوان مرتبتان على مقتضى رويهما وأول اسمي
منشئيهما الفاضلين

الأولى مدبجة بقلم الأديب الفاضل العلامة الشيخ حسين والى من أجلاء علماء
الأزهر الشريف ووكيل الأزهر سابقا فاستحسننا نشرها لاشتمالها على أقسام الكتاب
التسعة ولصدورها من صديق للمؤلف حميم قال حفظه الله :

أذا قيل من أذكى فؤادا	وأدرى بالحقائق فى الرجال
وأصغى جوهراً وأعز نفساً	أفوق الجوهري ولا أبأى
تركت نفسه فعلت علوا	فجاءتها الحقائق بامثال
على جئانها غلبت فكانت	لها أحكامها لا للخيال
رأى بالجنىم مبدأ كل شيء	وبالنفس اجتلى غيب المآل
وحظ النفس عند الجسم نزر	وعند تغلب حظ الكمال
وإن الله برهن للبرايا	بآيات تدوم على التوالى
ولكن عميت زمنا لأمر	وصار قريبتها صعب المنال
وغشى وجهها مركوم سحب	فصاروا فى ظلام أو ضلال
وظنوا الشمس اذ زالت أتاها	من الرحمن تكوير الزوال
وما علموا بأن الشأو ناء	وأن الشمس صاحبة انتقال
فان هى لم تكن طلعت بشرق	تكن طلعت بغرب غير آل
لها الطوران فى الدنيا جميعا	كما الخصمين كانا فى سجال
بدت بالغرب دهرا فاستبانوا	أعادهم ففازوا فى القتال
فلما أثروا فىنا اتبهننا	وأودى الضعف بالاسل الطوال

وليس لنا من الضوء المزجي
 أصاب الجوهري به فأنمي
 هو النظارة الكبرى تریه الـ
 أمور بعينها لا بالمثال
 ولولا آية فيه لشرق
 كأن الله أثره فأضحى
 درى سر الكتاب وكان غيبا
 وبوح السر أفتح ما نراه
 فشوق نفس كل نحو علم
 وقد أبى بسبب كمننا
 وفكر في السموات المتكازا
 تبين ما حوى الأفلاك بما
 وبعد تبين الأرضين حتى
 أثره جمادها فرآه حيا
 أثره نباتها نصرها بهيجا
 أثره أعجم الحيوان يوزى
 أثره حقيقة الانسان فيها
 أثره النفس في شرف خطير
 أثره سياسة الأمم الأوتى
 أثره عجائب العمران طرأ
 فهذى تسع آيات كموسى
 تكفلها كتاب منه سام
 ألا يا جوهري رعاك مولى
 فان تلق الأنام وأنت منهم

سوى سم الخياط لدى النضال
 كما يسمى المصيد لدى الجبال
 لدام مجهلا في شر حال
 وما وافق بمشبهه الليالى
 فباح بسره قبل السؤال
 اذا لم يلف في شرف الخصال
 فكان مقاله فوق المقال
 يزال سافلا منها لعال
 وجلوز شمسهن مع الهلال
 جرى جهة اتصال وانفصال
 تبدت في عوالمها الثقال
 يسبح ربه بفصيح قال
 تزين بالنظام وبالجمال
 بذى نطق عن العرب العوالى
 عجائب فوق أعداد الرمال
 وأمر آتيا من ذى الجلال
 وراء سياسة الأمم الخوالى
 وشرعة ربها بين الموالى
 ولكن نعمها بادی اقتبال
 منظمة كوعد منه خال
 أرادك المعارف والمعالى
 فان المسك بمض دم الغزال

القصيد الثانية لسعادة الفاضل المرحوم يحيى بك قدرى مأمور إدارة أوقاف الحلمية
من بحر المتدارك (الحبيب) وأهداها للمؤلف فشكرنا له وآثرنا نشرها لعدوابة أفاضها
وروتق أسلوبها ولصلة المودة بينهما قال حفظه الله

ان رمت الفلسفة العليا	لبنى الإسلام والأمن
أوشئت الحكمة مستقياً	من غيث العلم المنسجم
بادر لجواهر قد نسقت	في شعر يزهر بالحكم
يهدى الخيران ويرشده	لنظام الكون المنهم
فيه التطبيق على حكم	من يحكم تنزيه الحكيم
فيه الآيات نعم	ما في الملكوت من العظم
فيه التفصيل يشوقنا	لجمال الصنع المنتظم
صنع الافلاك وأنجمها	كنظام الشمس المتسم
وثلاث مواليد وجدت	في الارض بخلق من سدم
وسياسات وتدابير	جاءت كالنور على علم
قرنت بمسائله تحف	عن أهل العلم ذوى القلم
زانته براهين سطعت	كشفت عن سر مكتم
قد صيغ الرشد بأسطره	كنجوم ضاءت في الظلم
فالفضل لمنش عنونه	بنظام العالم والأمم

فهرست الجزء الثانى

من نظام العالم والامم

صفحة

الباب السادس

٣	بيان ما فى الباب السادس من الفصول والمباحث والطوائف
٤	الطائفة الأولى — الشعراء
٥	الطائفة الثانية — الناظرون فى الرياضيات
٧	الطائفة الثالثة — علماء التشريح
١٢	معنى قول القدماء الصفراء والسم والبلغم والسوداء
١٢	أقوال القدماء وحكاماء العصر فى الكبد وظهور حكمة الله فيه
١٣	موزانة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح
١٤	ترتيب الأعضاء الباطنة فى جسم الإنسان
١٥	الرئة
١٦	الدورة الدموية
٢٥	أعضاء التوليد
٣٠	ابداع غريب وحسن وضع وترتيب فى الكبد والرئة والحواس
٣٥	فيما يهم من حقائق علم التشريح
٣٧	الفصل الأول — فى أن جسم الانسان كالألة البخارية الطاحنة
٣٩	تركيب جسم الانسان

	صفحة
وظائف جسم الانسان	٤٠
جهاز الحركة	٤٣
الفصل الثانى — فى الكلام على ما يوافق من الأغذية وما لا يوافق	٤٤
الفصل الثالث — فى بيان أن هذه الأغذية مقسمات على ما فى الجهاز المحققى	٥٠
من الآلات المعدة للهضم بالنظرة	
الفصل الرابع — فى بيان الجهاز التنفسى	٥٦
الفصل الخامس — فى الدورة الدموية	٦٠
القلب قصر يباهى إيوان كسرى	٦٢
جمال الوضع وبهجة الصنع وجمال الحكمة	٦٨
الفصل السادس — الجهاز المعجز	٧٢
شرح رؤية العين	٧٩
عجائب العيون	٨٧

الباب السابع ٩٠

فى الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية الذين درسوا علم النفس

المحسوسات	٩٤
المدركات — المشومات — المسموعات	٩٥
المبصرات	٩٧
الحس المشترك	١٠١
الخيلة أو المصورة	١٠٢
القوة العاقلة	١٠٧
أقسام العلماء — أقسام العلوم	١٠١
التقسيم الحديث	١١٢

صفحة

- ١٢٢ مسامرة فى علم الحكاء والفلاسة
 ١٢٧ الارادة والاختيار
 ١٢٧ السعادة والاختيار
 ١٢٨ حكمة تامة ونظام عجيب
 ١٣٠ ابداع العقل والمنطق والخط
 ١٣٢ ضرب مثل لحال النفس مع الجسم
 ١٣٤ قوى الأنسان كلها ترجع إلى نفس واحدة
 ١٣٥ برهان أن النفس وقواها واحدة
 ١٣٦ المادة والنفس
 ١٣٦ المادة والنفس والعقل والملائكة
 ١٤٠ لطيفة
 ١٤١ آراء الناس فى النفس
 ١٤٥ عموم الوحدة فى الموجودات

الباب الثامن

١٤٧

بيان مافيه من المواضع

- ١٤٨ (١) الوحدة فى الأمم ترجع إلى قوتى العلم والعمل
 ١٥٠ (٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا وكيف تقارن بجسم الانسان
 ١٥٢ (٣) تأثير الاعتقاد فى الأمم
 ١٥٣ (٤) مابه نظام الدنيا والدين
 ١٥٠ (٥) مآل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت
 ١٦٠ (٦) الأمة تصارع العالم كله فى نظامه

- ١٦٣ (٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا
- ١٦٤ (٨) الترقى سنة العالم شرحها القرآن قبل داروين باثني عشر قرنا
- ١٦٧ (٩) أقسام أهل المدينة الجاهلة وأعمالهم
- ١٧٠ (١٠) أهل المدن الجامعية
- ١٧١ (١١) في أسماء الثروة
- ١٧٢ (١٢) في الخشوع
- ١٧٣ (١٣) اعتقادهم في العدل
- ١٧٤ (١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح ثم الضالة والفاسقة
- ١٧٩ **الباب التاسع**
- في أمة الاسلام ونظامها وما يجب على أهلها أن يتخذوه في هذه الأيام
- ١٨٢ الفصل الأول — في ذكر أحوال المسلمين من القوة في عصر النبوة ومن الضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الآن
- المبحث الأول — في قوة أمة الاسلام في عصر النبوة وصدر الاسلام
- ١٨٤ ثروة الخلفاء وعملهم
- ١٨٦ المبحث الثاني — فيما طرأ عليها بعد ذلك في أيام بني أمية وأيام بني العباس وكيف أزالها التتار وفي الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند وإيزابلا
- ١٨٦ شيوع التبذير في الدولة
- ١٨٩ الاسراف أيام بني أمية
- ١٩٣ دولة بني العباس والاسراف فيها
- ١٩٤ ثروة نساء الخلفاء
- ١٩٦ الجوارى والغلمان
- ١٩٧ الوزراء
- ٢٠٢ كثرة الأسرى أو الأرقاء

	صفحة
الحصيان	٢٠٣
مقاومة الخلفاء للغناء	٢٠٤
دار الشجرة	٢٠٥
قصر الحمراء وأمثاله	٢٠٧
البذخ فى الألبسة	٢٠٨
القرش والأثام عند الفاطميين	٢١٠
أثمان الجوارى	٢١٠
سخاء البرامكة	٢١١
التهتك	٢١٣
يأجوج وماجوج	٢١٥
قيس بنخص شباب المسلمين المتعلمين نخر عنب قرطبة	٢٢٥
مصير براق ابن عمار	٢٢٧
قصيدة للسيد يحيى القرطبي	٢٣٧
الأمم الإسلامية جميعها متشابهة	٢٤٠
سرمكنون	٢٤٩
البحث اثالث - فى حال المسلمين فى عصرنا الحاضر	٢٤٢
الفصل الثانى - فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل	٢٥٩
الكلام على العمل والتوكل	٢٦١
الفصل الثالث - توزيع الأعمال على الأفراد وما حكم الشرع فى فروض الكفايات	٢٦٦
باب العلم	٢٦٧
الفصل الرابع - المعلوم التى يجب تحصيلها والصنائع	٢٧٢

صفحة

- ٢٧٩ تمة هذا الباب
- ٢٨٠ الفصل الخامس - طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذا الأيام
- ٢٩٠ الفصل السادس والسابع - في وجوب استعمال العقول وترك الفضول
- ٣٠٥ الفصل الثامن فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة
- ٣٠٦ الفصل التاسع - في الكلام على سياسة أوربا واستطلاع علومها
- ٣٠٦ الفصل العاشر - قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية
- ٣٠٦ المقالة الأولى
- ٣٠٨ المقالة الثانية
- ٣١١ المقالة الثالثة - في انشاء الأمم
- ٣١٥ المقالة الرابعة
- ٣١٧ المقالة الخامسة - في عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها
- ٣٢١ ثمرة هذا النظر
- ٣٢٢ الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر - في ذكر علومهم الافراد وتشويقهم وفي ذكر كيفية التوصل بالقرآن إلى هذه الطريقة وفي ذكر ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه
- ٣٢٢ الاقتصار على علم الفقه
- ٣٢٣ الفصل الرابع عشر - في ذكر حكمة التكليف بالايان بما غاب عنا مما ليس يحرم وفي توحيد العلوم وأن الوحدة فيها نظام كل شىء
- ٣٢٤ الفصل الخامس عشر - في ذكر السياحات وفوائدها شرقاً وغرباً
- ٣٢٥ الفصل السادس عشر - المقالات الأصمعية . المقالة الأولى الترقى في الأزهر
- ٣٢٧ الفصل السابع عشر - المقالة الثانية كليات الاسلام وطريقة التعليم في الأزهر

صفحة

- ٣٢٩ الفصل الثامن عشر - المقالة الثالثة نظام الأزهر
 ٣٢٩ رأى الكاتب الأصمى
 ٣٣٢ الفصل التاسع عشر - المقالة لربعة الغرائى والعلم الازهرى
 ٣٣٥ الفصل العشرون - المقالة الخامسة الكليات والترقى
 ٣٣٧ الفصل الحادى والعشرون - المقالة السادسة الأزهر وابن رشد
 ٣٤٩ الفصل الثانى والعشرون - المقالة السابعة كليات الاسلام وناموس الترقى
 ٣٥٣ الفصل الثالث والعشرون - المقالة الثامنة الواقفون والعلماء
 ٣٥٦ الفصل الرابع والعشرون - فى المقالة التاسعة خطاب لوجهاء الأمة
 ٣٥٨ الفصل الخامس والعشرون - المقالة العاشرة العالم مدرسة كبرى والله سيدها
 والناس الطالبون
 ٣٦٠ دعوة عامة للناشئين إلى جمال العالم والعلوم
 ٣٦٦ العالم السفلى
 ٣٦٤ الفصل السادس والعشرون - المقالة الأولى الرازية هذه العلوم فأين الترقى
 ٣٦٥ الفصل السابع والعشرون - المقالة الثانية
 ٣٦٧ ميزان وبرهان
 ٣٦٨ الفصل الثامن والعشرون فى حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى
 ٣٧٤ الفصل التاسع والعشرون - محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه
 وسبيل ارتفاعه
 ٤٠٦ مقاصد علم التاريخ
 ٤٠٣ البرهان والتقليد
 ٤٠٤ العلوم الرياضية والطبيعية

صفحة

٤٠٥	لمضاج في العلوم الطبيعية
٤١٣	تنازع البقاء
٤١٥	غلبة الرجال
٤١٥	غلبة الآلات والصنائع
٤١٨	الأجائنات
٤٢٩	خاتمة
٤٣٠	تقريظ
٤٣٣	الفهرست

الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الجهاز	الجهر	١٣	٣
	الطائفة الثانية	١	٧
(١) ظواهر علم التشريع (٢) وما يهم من الحقائق (١) أما ظواهر علم التشريع			
يقرون	يقرون على	١٥	١٣
يحسبوا	يحسبون	١١	٢٣
الكواكب	الكواكب	٢	٢٤
مع حرمان	من حرمان	٢	٢٤
المختص بهم	المختف بهم	١٦	٢٩
المهمة	المهملة	١١	٣٥
الفقد	المتقد	٥	٤١
تخلصه	يخلصه	٢٢	٤١
	الكرونب	٨	٤٥
	والقنبيط		
	والبطاطس	١١	٤٥
يعوزه	يعوده	٢٢	٥٢
الجزر	الجذر	١٩	٥٥
فيهما	فيها	١٩	٥٦
من الرثة	من القلب	٦	٥٩
العجيب	العجيب	٢	٧٩
كورتى	كورتى	١١	٨٢

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
القيح	بالقيح	٣	٨٩
تسمى	تسعى	١٤	٩٨
فاذا	فلو	١٦	١٠٢
وما دامت	ما دامت	٢١	١٠٢
العالم	العلم	١١	١٠٥
العلوم	العلوم	٣	١١٢
تكلفت	تكلف	١٠	١١٢
متساويين	متساويان	٧	١١٦
حيل	احيل	١٠	١٢٩
امرئ	ثلاثة أمور	٢٠	١٣٤
بدل درس	من درس	١٣	١٣٥
العلوم	العلوم		
مثلها	قبلها	١٩	١٣٦
دحضه	ادحضه	٢١	١٣٨
ويفعلون	ويفعلون	١٦	١٣٩
والصورة	او الصورة	٤	١٤٠
ادمع	اوسع	٨	١٤٠
وأضل	واضل	٣	١٥٠
دفع الله	دفع الله	١٩	١٦٢
القبائل	القبائل	٤	١٦٤
قلاقل	قلائل	٤	١٦٤
المدينة	المدنية	٩	١٦٧
ما ترى	ما يرى	١٣	١٦٧
في اليوم الآخرفهم	واليوم الآخرفهم في	١٢	١٧٥

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
الألفاظ	الالفاظ	٨	٢٨٢
والانتطس لم	الاندلس اذم	١٤	٢٨٢
منصرفه	متصرفه	١٣	٢٨٣
بسيلهم	يسيلهم	١٥	٢٨٣
يكفي	يهديني	١٩	٢٨٦
يوفي	يستوفي	١٨	٢٨٨
الفعل	العقل	٢٣	٢٨٨
الفعل	العقل	١	٢٨٩
بسرعة	وبسرعة	١٧	٢٩١
مسطور	مطار	٤	٢٩٤
عاد وعمود	وعمود	١٢	٢٩٩
وما نظام	وماهى نظام	٥	٣٠٠
انه يقرأ	ان يقرأ	٨	٣٠٢
متى	مى	٥	٣٠٣
يخيل	يتخيل	٦	٣٠٣
سامدون	ساجدون	٢٦	٣٠٤
وأحاديث	أحاديث	١٢	٣٢٢
علماءها	علماءها	١٧	٣٢٢
من غفلتها	غفلتها	٣	٣٢٣
اشارة الى	اشاره اى	٢٠	٣٢٤
توجد	توجد	٢	٣٤٠
عندهم	عنده	٥	٣٤٢
يطلق	يطاق	٥	٣٤٥
ذوات	ذرات	١٦	٣٤٥

الخطأ	الخطأ	صفحة	سطر
وإن كان ليس له مثال في الشاهد	وإن كان ليس له مثال في الشاهد	٣٤٦	٢
فكانوا ممن إلى قوله أهل اليقين	فكانوا ممن إلى قوله أهل اليقين	٣٤٧	١٤
عليه	علي	٣٥٠	١
اختلال	احتلال	٣٥٢	٢٠
لم تقى	لم تقى	٣٥٧	١٠
الجلية	الجلية	٣٥٨	١٩
إذا	اذ	٣٥٨	٢١
وتغذى	وترضع	٣٥٩	٣
إلا بالمدارس	لا بالمدارس	٣٥٩	٢
كالاندلس	كاسبانيا	٣٦٠	٥
التربية فأخر فاضل	التربيه فأخر فاضل	٣٦٢	٧
.....	مع الآخرة	٣٦٣	٢١
الذين	والذين	٣٧٤	١
أجر	جر	٣٧٦	٢٠
ناوأم	نادام	٣٧٦	٢٣
الأمة	الآية	٣٧٧	٢
لفرق	لفرق	٣٧٧	٧
بنقص	ينقص	٣٧٨	٥
فاذا	فلو	٣٨٠	٢٢
تربوا	تسربوا	٣٨٠	٢٣
في أحوالهم	في أحوالها	١٨٢	٤
ومذود	ومزود	١٨٦	١٠
فخما	فخيا	٢٠٧	٧
بن	بن بى	٢٢٤	١٦

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
أقبل	فاقبل	٢	٢٢٥
قتلوا	قبلاوا	١٤	٢٢٧
قتلوا	قتلوا	٢٣	٢٣٤
يملك	يملك	٨	٢٣٨
حيران	حيران	١٧	٢٣٩
الامة	الاية	٢١	٢٤٢
يكونون	يكونوا	٣	٢٤٣
جاء	صار	١٣	٢٤٤
يدل	يه دل	٩	٢٤٨
تنصرم	نصرم	٢	٢٤٩
لانقاد	لانقاد	٢٢	٢٥٢
الغرب للشرق	الشرق للغرب	١٣	٢٥٥
لا تقسها	لا تقسها	١٣	٢٦٠
وأية	وأى	١	٢٦٠
ممتزجان	ممتزجتان	٢	٢٧٣
اتبعا	اتبعا	٨	٢٧٣
كالطيب	كالذى يكون مريضا	٧	٢٧٦
فأية	فاى	١	٢٧٩
وحسروا	أوحسروا	٨	٢٧٩
على	عل	٦	٢٨٢